شرح مسائل الجاهلية

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى بها وعلق عليها

أبو عبد العزيز منير الجزائري

دار الفرقان
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ - ٢٠٢٠م

حقوق الطبع محفوظة للناشر

دار الفرقان للنشر والتوزيع
20 شارع أحمد حسينة - باب الوادي - الجزائر (العاصمة)
00213 (0) 556 96 58 10
dar.alfurquan@gmail.com

شرح

مسائل الجاهلية

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى بها وعلق عليها

أبو عبد العزيز منير الجزائري

دار الفرقان للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمَةُ المُعْتَنِي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله الَّذي بنعمته اهتدى المهتدون، وبعدله ضلَّ الضَّالون، أحمده سبحانه حمد عبد نزَّه ربَّه عما يقول الظَّالمون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وسبحان الله ربِّ العرش عمَّا يصفون، وأشهد أنَّ نبيَّنا محمَّدًا عبده ورسوله وخليله الصَّادق المأمون، اللَّهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه الَّذين هم بهديه مستمسكون، وعلى طريقه سائرون.

أمَّا بعد:

فإنَّه «لا صلاح للعباد، ولا فلاح ولا نجاح، ولا حياة طيِّبة ولا سعادة في الدَّارين، ولا نجاة من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة، إلَّا بمعرفة أوَّل مفروض عليهم والعمل به، وهو الأمر الَّذي خلقهم الله ﷻ له، وأخذ عليهم الميثاق به، وأرسل به رسله إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدُّنيا والآخرة، والجنَّة والنَّار، وبه حقَّت الحاقَّة ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين

وتطاير الصُّحف، وفيه تكون الشَّقاوة والسَّعادة، وعلى حسب ذلك تُقسم الأنوار ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]»[١].

وفي المقابل فإنَّ أعظم الذُّنوب الشِّرك بعلَّام الغيوب ﷻ، عن عبد الله بن مسعود قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أي الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟

قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ**»[٢].

وهو أكبر الكبائر، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟**» (ثَلَاثًا).

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «**الْإِشْرَاكُ بِاللهِ...**»[٣].

فلهذا فإنَّ التوحيد أعظم وأكرم ما يعتني به العبد المسلم، والشِّرك أكبر وأخطر ما يهابه ويخافه على نفسه.

وقد تنوَّعت كتابات علماء أهل السُّنَّة في هذا الموضوع بين شعر ونثر، ومطوِّل ومختِصر؛ ومن بين هؤلاء العلماء الفضلاء الأجلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله «فشمَّر عن ساعد جدّه واجتهاده؛ وأعلن بالنُّصح لله ولكتابه ورسوله، وسائر عباده، دعا إلى ما دعت إليه الرُّسل، من توحيد الله وعبادته،

---

(١) «معارج القبول» (١/ ٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

ونهاهم عن الشِّرك، ووسائله وذرائعه؛ فالحمد لله الَّذي جعل في كلِّ زمان من يقول الحقّ، ويرشد إلى الهدى والصِّدق، وتندفع بعلمه حجج المبطلين، وتلبيس الجاهلين المفتونين»(١).

وقد كتب رحمه الله العديد من الكتب والرسائل نُصحا للأمَّة فيما ينفعها، وتحذيرا لها فيما يضرّها في دينها ودنياها، فجزاه الله خير الجزاء.

ومن هذه الكتب المذكورة، والرسائل المشهورة (**مسائل الجاهلية**)(٢)، وهو بحث نافع لطيف، ماتع منيف، له المكانة العالية، والمنزلة الغالية عند العلماء وطلبة العلم، لذا حفظوه وفي المجالس شرحوه.

وَمِمَّا زاد هذه المتن نفعًا - بإذن الله - شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

ومِنْ باب التَّعاون على نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسَّة إليه، قُمْت بالاعتناءِ بهذه الرِّسالة؛ وَأَصْلها دروس للشَّيخ فُرِّغت؛ فاستأذنْتُه في

---

(١) «الدُّرر السنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة» (١/ ١٦).

(٢) قال العلامة صالح الفوزان حفظه الله: «فالشيطان وأتباعه من دعاة الضلال لا يزالون يدعون إلى الجاهلية، وإلى إحياء أمور الجاهلية، إلى الشركيات والبدع، وإلى الخرافات، وإلى إحياء الآثار، وكل هذا القصد منه: طمس الإسلام، وعودة الناس إلى الجاهلية، فلابد من دراسة أمور الجاهلية من أجل أن نجتنبها ونبتعد عنها»«شرح مسائل الجاهلية» (ص١٣).

إخراجها في كُتيِّب، فما كان مِنَ الشَّيخ حفظه الله إلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيرًا[١].

وما كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهذيب و التَّرتيب، والتَّوثيق والتَّدقيق، بَلْ حَاوَلْتُ المُحَافَظَة على كلام الشَّيخ بِحُرُوفِه إِلَّا مَا يَقْتَضِيه المَقَامُ مِنْ إِضَافَة مَا يُربط به الكَلَام لِتَمَام المَعْنى مع التَّعليق على بعض المواضع منها.

سائلًا الله ﷻ أنْ يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأنْ يجزي خير الجزاء كل من أسهم في إخراجه للمنتفعين، إنه سميع مجيب الدعاء.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مُحِبُّكُم فِي الله

أبو عبد العزيز منير الجزائري

fr.hotmail@abdelaziz-abou

واتساب:00213555903095

* * * * *

(١) كان ذلك في بيته بالمدينة النَّبويَّة، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، الموافق لـ ٢٠/ ١٢/ ٢٠١٧م.

مُقَدِّمَةُ الشَّارِحِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإن معرفة المسلم بالشر وأمور الجاهلية من أجل أن يحذر ذلك ويتجنبه ويُحذِّر إخوانه المسلمين منه مطلبٌ عظيم جداً، وكثيرٌ من الناس إنما أُتي حيث وقع في الجهل والضلال والباطل بسبب عدم معرفته بالشّر ووسائله وأسبابه، ولهذا قيل قديماً: «كيف يتقي من لا يدري من يتقي؟!»[(١)]، فالذي لا يعرف الشّر كيف يتقيه؟! ولهذا جاء في «الصحيحين» عن حذيفة -رضي الله عنه-، قال: «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ**

---

(١) «حلية الأولياء» (٩/ ٣١٦).

يُدْرِكَنِي»[(١)]، وأهل العلم يقولون: «إن في تعريف الشّر تحذيراً من باطله»، وهذه فائدة عظيمة؛ أي: إذا عرف المسلم الشّر وعرف خطورته وعرف أضراره عليه في الدنيا والآخرة فإن هذا أعظم عونٍ له بعد الله ﷻ على توقي الشّر والحذر منه.

ولهذا -أيها الأخوة الكرام- كما أن المسلم مطالب بمعرفة الخير ليفعله فإنه في الوقت نفسه مطالب بمعرفة الشّر ليّتقيه، وكما أن كتاب ربنا ﷻ بيّن لنا الخير لنفعله أيضًا بيّن لنا الشّر لنجتنبه، وهكذا سُنة نبينا صلوات الله وسلامه عليه، بيَّن لنا ﷺ الشّر وبيّن لنا صفات أهل الشر لنتقي الشّر ولنتقي أهله ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] أي: لتتضح للناس فيحذروها ويتّقوها ويتّقوا أعمالهم وخصالهم وصفاتهم ولهذا أيضًا قيل:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا لِلشَّرِّ ... لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ
فَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشَّرَّ ... مِنَ النَّاسِ يَقَعُ فِيهِ

فالذي لا يعرف الشّر ربما وقع في الشّر من حيث ظنه حقًا وهدىً، وعندما تضعف معرفة الناس بالشّر ووسائله وأسبابه ربما وقعوا في صور كثيرة منه وهم يظنون أنهم لم يقعوا في الشّر بعد، بل إن الأمور ربما اشتبهت عليهم؛ فظنوا البدعة سنة، والسنة بدعة، والحق ضلالاً، والضلال حقًا، فتختلط الأمور وتلتبس، ولا يستقيم للمسلم أمره في هذا الباب إلا إذا عرف الحق فلزمه وعرف الشّر فحذر منه واجتنبه.

ويأتي هذا الكتاب الذي بين أيدينا وعنوانه «**مسائل الجاهلية**» أو «**المسائل**

---

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية» ضياءً لأهل الخير في باب عظيم تمس الحاجة إلى معرفته؛ ألا وهو معرفة مسائل الجاهلية التي خالفها الرسول ﷺ وجاء بمخالفتها وجاء بالتحذير منها.

ولك أن تسأل هنا: ما حاجتنا إلى معرفة مسائل الجاهلية التي جاء نبينا ﷺ بمخالفتها والتحذير منها؟

والجواب: أن الله ﷻ قضى قضاءً كونياً قدرياً أخبر عنه رسوله ﷺ أن هذه الأمة تتبع سَنَنَ من كان قبلها شبراً شبراً؛ في الحديث الصحيح: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**»[(١)]؛ فخصال الجاهلية التي خالفها النبي ﷺ ونهى عنها وحذّر منها في أحاديثه صلوات الله وسلامه عليه سيوجد في هذه الأمة من يتَّبعها بين مُقلٍّ ومستكثر، لكن لابد أن يوجد في هذه الأمة من يتبعها لأن الله ﷻ قضى ذلك قضاءً كونياً أخبر عنه نبينا ﷺ في الحديث المتقدم؛ وهذا خبر من النبي ﷺ خرج مخرج التحذير للأمة حتى يحذروا من خصال الجاهلية ويحذروا مما كان عليه أهلها.

ولا يمكن للإنسان أن يحذر خصال الجاهلية إذا لم يكن يعرفها، فإذاً معرفة خصال الجاهلية من أجل أن نتقيها وأن نحذر منها لا شك أنها من المطالب المهمة ولاسيما في زماننا هذا الذي كثر في الناس اتباع سَنَنَ الجاهلية سواءً في أبواب العقائد أو في أبواب العبادات أو في أبواب المعاملات والسلوك، ولاسيما أيضاً مع كثرة وسائل الاتصال بين الأمم والشعوب وانفتاح الناس على أمم

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

الكفر وعاداتهم وعقائدهم ومشاهدتهم لذلك كله؛ فإن هذا مع ضعف العلم بدين الله ﷻ أوجد في كثير من الناس شيئًا من خصال الجاهلية التي حذّر منها النبي الكريم ﷺ.

وأقول في ختام هذه التقدمة:

كلٌ منا سيقف أمام الله ﷻ يوم القيامة والله ﷻ سائله، والله ﷻ إنما خلقنا في هذه الحياة الدنيا لنستقيم على طاعته ولنلزم أمره، ولنتبع أنبياءه ورسله عليهم صلوات الله وسلامه، وأن نحذر من كل باطل كان عليه الناس، والباطل هو: كل ما كان على خلاف هدي الأنبياء والمرسلين، فالأنبياء جاءوا بكل خير وحذّروا من كل شر، وهكذا يجب أن يكون المسلم محافظًا على ما جاء به الأنبياء من الدعوة إلى الخير، وحذراً كل الحذر مما نهى عنه الأنبياء من الشرور والأباطيل.

ومن نعمة الله علينا أمة محمد ﷺ أن الله ﷻ أذهب بدعوته ﷺ باطل أهل الجاهلية وضلالهم، وانظر أيه الأخ الكريم إلى ذلك الموقف العظيم المبارك الذي وقفه نبينا ﷺ عندما حج حجة الوداع، ومكة قبل بعثة النبي ﷺ اجتمع فيها الباطل بكل صنوفه وبجميع ألوانه، الباطل فيما يتعلق بالعقائد، والباطل فيما يتعلق بالعبادات، والباطل فيما يتعلق بالدماء والأنفس وغير ذلك، فبُعث النبي ﷺ ومكة كان قد خيّم عليها الباطل والضلال، ليس هذا فحسب؛ بل إن الباطل خيّم على الأرض بأجمع وغطى الأرض كلها إلا قلة من الناس بقايا من أهل الكتاب، وإلا فإن الجاهلية عمّت وطمّت وخيّمت على الأرض برمتها، وقد قال ﷺ: «**وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ**

أَهْلِ الْكِتَابِ»[١]؛ فكانت الأرض كل من عليها ممقوت عند الله ﷻ مُبغض عنده إلا بقايا إلا قلة، نزر قليل من أهل الكتاب، وأما الأرض برمتها فقد خيّمت عليها الجاهلية وضربت بأطنابها في جميع أطرافها، ثم يمُنّ الله ﷻ على الأمة ببعثة محمداً ﷺ، وينشأ في هذا المجتمع الذي خيّمت فيه الجاهلية ويبدأ بالدعوة، وتبدأ الدعوة إلى الإسلام في غربة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»[٢]، فبدأ غريباً، كل من يدعوه إلى الإسلام يستنكر هذه الدعوة لأنهم لا يعرفون شيئًا من الدين، ولا يعرفون الإيمان الصحيح، ولا يعرفون العقيدة السليمة، فخيّمت عليهم الجاهلية، جاهليةً عامة عمت الأرض إلا بقايا من أهل الكتاب؛ فبُعث ﷺ في الناس وأخذ يدعو، وبدأت الدعوة تنتشر وضياؤها يشعّ ونورها يضيء وتنتشر في الأرض ويكثر الأتباع إلى أن يشاء الله ﷻ ويأتي ﷺ إلى مكة ويحج ومعه الآلاف على الإسلام وعلى الدين الصحيح وعلى العقيدة الصحيحة، ويخطب في الناس خطبةً عظيمة ويقول في تلك الخطبة وهو موضع شاهدنا لحديثنا يقول في تلك الخطبة: «**أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ**»[٣] ثم أخذ يفصّل في ذكر بعض أمور الجاهلية في الأموال وفي الدماء إلى آخر ذلك.

وانظر النعمة! واستشعر هذه النعمة العظيمة الكبيرة بالإسلام؛ أن مكة التي

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) رواه مسلم (١٤٥).

(٣) رواه مسلم (١٢١٨).

كانت خيّمت عليها الجاهلية وطبّقت أطرافها بعد سنوات قلائل بمنّ الله ﷻ وفضله يخطب النبي ﷺ ومكة ممتلئة بالمسلمين المعتنقين للدين الصحيح ويعلن أن كل أمر من أمر الجاهلية تحت قدميه.

ولهذا أيها المسلم يجب عليك أن تمضي بعزة الإسلام و تضعها أمور الجاهلية تحت قدميك، وإياك أن تُفتَن بمشرك أو بيهودي أو بنصراني أو بأي دين من أديان الباطلة؛ أنت المسلم فأنت الذي تحمل الدين الصحيح الدين الحق، منّ الله ﷻ عليك بمعرفة الإسلام، فكيف ترضى لنفسك بالدون وأن تتشبه بهذا أو ذاك من الكفار الذين لم يعرفوا هذا الدين الصحيح؟!

ولهذا كل أمر من أمر الجاهلية ضعه تحت قدميك وامض في حياتك معززاً مكرماً ماضياً على دينك الصحيح مستقيماً عليه، يعينك على ذلك أن تعرف خصال الجاهلية وأمورهم وأعمالهم وصفاتهم حتى تكون منها على حذر.

وأسأل الله ﷻ أن يقينا وإياكم الشرور، وأن يهدينا جميعاّ سواء السبيل، وأن يبصرنا بديننا، وأن يعيذنا جميعاً من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً، وأن ينفعنا بهذا الكتاب النافع العظيم «مسائل الجاهلية» للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

[المتن]

قال الإمام الأوّاب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

«هـذه أمـور خالـف فيهـا رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم ما عليـه أهل الجاهليـة الكتابييـن والأمييـن ممـا لا غنـى للمسـلم عـن معرفتها.

فالضـدّ يُظهـر حسـنه الضدّ وبضدّهـا تتبيـن الأشـياء».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**هذه أمورٌ خالف فيها رسول الله ﷺ ما عليه أهل الجاهلية الكتابيين والأميين**» قوله: «**هذه أمور**»؛ يفيدك أنه لم يقصد بهذا الكتيب حصر المسائل وجمعها كلها، وإنما أراد أن ينبه على أخطر الأمور وأعظم مسائل الجاهلية خطورةً، سواءً من هذه المسائل ما كان كفراً مخرجاً من الملة أو دون ذلك، أو ما كان سبباً لبقائهم على الضلال الذي هم عليه؛ فهذا أيضاً من خصال الجاهلية التي ينبغي أن تُعرف.

كما أننا ينبغي أن نعرف أعمال الجاهلية نفسها أيضاً نعرف الأسباب التي منعتهم من قبول الحق، لأن هذا من جاهليتهم؛ كامتناعهم من قبول الحق لأجل الآباء أو لأجل الكثرة أو نحو ذلك من الأمور فكل ذلك جاهلية. فإذاً هذا الكتاب لم يحصر مسائل الجاهلية ولم يأتِ عليها جميعها ولا أراد ذلك المصنف ولا قصده، وإنما قصد أن ينبه على أبرز وأهم المسائل التي خالف فيها النبي ﷺ أهل الجاهلية الكتابيين والأميين.

وقوله رحمه الله «**أهل الجاهلية**»؛ هذه نسبة إلى الجاهل، والجاهل مشتق من الجهل؛ فالمراد بالجاهلية: هم أهل الجهل، والمراد بقوله «**أهل الجاهلية من الكتابيين والأميين**» أي: أولئك الذين بُعث فيهم عليه الصلاة والسلام وكان قد خيّم عليهم الضلال وطبق عليهم الجهل والباطل، فكانوا في ضلال مبين وعماية مطبقة عليهم إلا قلة قليلة ونزرٍ يسير من بقايا أهل الكتاب بقوا على التوحيد الخالص.

قال: «**أهل الجاهلية الكتابيين**» أي: أهل الكتاب، والمراد هنا: اليهود والنصارى؛ فإنهم أهل كتاب ولكن الكتاب الذي بأيدي اليهود والكتاب الذي بأيدي النصارى كتاب محرّف ومبدّل ومغيّر، وأصبح فيه بدل التوحيد شركًا، وبدل الهدى ضلالاً، وبدل السنن والحق بدعًا وضلالاً وأموراً ابتدعوها واخترعوها، فهي كتب محرفة ومبدلة، ولكن يقال لهم «أهل كتاب» باعتبار أنهم في الأصل على كتاب نبي من أنبياء الله ولكن طرأ عليهما ما طرأ بسبب أئمة الضلال فيهم من التحريف والتغيير والتبديل، كما بيّن الله جل وعلا ذلك في مواضع من كتابه تبارك وتعالى.

«**والأميين**» المراد بهم: المشركين من غير أهل الكتاب، وهم من كانوا على الشرك، والمشركون كانوا على أصناف كثيرة من الشرك ولم يكونوا على صنف واحد؛ منهم من يعبد الشمس، ومنهم من يعبد القمر، ومنهم من يعبد الكواكب، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، ومنهم من يعبد الصالحين والملائكة والأنبياء إلى غير ذلك، فكان شركهم منوّعًا وكانوا مختلفين في اتخاذ الأرباب فكلٌ يعبد ما يهواه.

قال: «**ما لا غنى لمسلم عن معرفته**» انتبه لهذه الكلمة المهمة؛ لأن الشيخ رحمة الله عليه يقول: لا غنى لمسلم أن يعرف هذه الأمور؛ لماذا؟! ولك أن تتساءل، وقد تقدم الجواب بذلك، يقول: «**لا غنى لمسلم عن معرفته**» أي: أن المسلم لا يستغني عن معرفة هذه الخصال التي ذكرها الشيخ رحمه الله تعالى لأجل أن يحذرها وأن يتقيها كما تقدم «كيف يتقي من لايدري ما يتقي؟!» فالذي لا يدري ما هو الشيء الذي يتقيه كيف تكون منه التقوى؟! وتقوى الله عز وجل: العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله، وترك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله، بهذا عرّفها أهل العلم[1]؛ فكيف يترك الإنسان معصية الله دون أن يعرف المعصية ودون أن يعرف الجاهلية ودون أن يعرف الباطل؟! فلهذا يقول رحمة الله عليه: «**مما لا غنى لمسلم عن معرفته**».

ثم إن معرفتك بالباطل يفيدك فائدتين:

الفائدة الأولى: أن تحذر الباطل.

والفائدة الثانية: يعرّفك بحسن الحق وجماله، لأن الضد يُظهر حسنه الضد؛ مثل لو قال لك شخص: عرّفني بالنور وجماله وحسنه وشدّة حاجتنا إليه، فقلت له: أرأيت لو أنك في مكان مظلم وليس عندك نور وتريد أن تقرأ لا تستطيع،

---

(١) من أجود ما ورد في تعريف التقوى ما قاله التابعي طلق بن حبيب رحمه الله: «التَّقْوَى: عَمَلٌ بِطَاعَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنْ اللهِ، رَجَاء رَحْمَةَ اللهِ؛ وَ التَّقْوَى تَرْكُ مَعْصِيَةَ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنْ اللهِ خيفة عقابَ اللهِ» «كتاب الزهد للإمام عبد الله بن المبارك» (ص ١٠١).

وتريد أن تمشي فتتعثر في الطريق.. وتصف له الظلام؛ وصفك الظلام له هو بحد ذاته بيانٌ لحسن النور.

قال لك شخص: حدثنا عن العافية والصحة وحاجتها؟ فقلت: أرأيت عندما يكون الشخص مريضا كيف لا يستطيع أن يفعل كذا؟ ولا يستطيع أن يفعل كذا ويحس بآلام ولا ينام ولا يرتاح.. إلى آخره؛ يقول لك: الحمد الله والله العافية أمرها عظيم، أحسسته بجمال العافية بتحديثه عن ضدها.

فإذاً يُظهر حسن الشيء: بيان ضده؛ فلو أردت أن تعرّف شخصًا ما بحسن التوحيد وبيّنت له قبح الشرك، بيانك له قبح الشرك بحد ذاته يعدّ بيانًا لحسن التوحيد، ولهذا قال الشيخ هنا وأورد هذا البيت قال:

فالضدّ يُظهر حسنه الضدّ وبضدّها تتبين الأشياء

إذاً معرفة مسائل الجاهلية يفيدك من فائدتين:

الفائدة الأولى: أنك تحذر هذه الخصال، وتسأل الله ﷻ أن يعيذك منها وأن يحميك من الوقوع فيها.

الفائدة الثانية: يفيدك غبطة وفرحًا بفضل الله عليك بالإسلام؛ أنت عندما تقرأ هذه الخصال وتستشعر معافاة الله ﷻ لك منها ووقايتك منها تقول: الحمد لله الذي عافانا من هذه الأمور ومنّ علينا بالإسلام الصافي والدين النقي؛ فتزداد تمسكًا وفرحًا بدينك الصحيح الذي منّ الله ﷻ عليك به.

وهذا أمر يلاحظه الإنسان عندما يرى المبتلين بأبدانهم، فإنه يحس بالعافية ويقول: الحمد لله الذي عافانا مما ابتلاهم به.

فهذه فائدة عظيمة أنت إذا قرأت خصال الجاهلية وعرفتها يفيدك أولاً: اتقاء هذه الخصال والبعد عنها، ويفيدك ثانيًا: معرفة بقدر وقيمة ومكانة الدين العظيم الذي منّ الله ﷻ عليك به ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٨].

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف ﵀:

«**فأهمّ ما فيها وأشدها خطراً: عدم إيمان القلب بما جاء به الرسول ﷺ، فإن انضاف إلى ذلك استحسان ما عليه أهل الجاهلية تمّت الخسارة، كما قال تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]».

[الشرح]

بدأ الشيخ ﵀ ببداية مهمة، بل بقاعدة عظيمة وأصل متين يفيدك في جميع ما سيأتي من مسائل الجاهلية التي ذكرها ﵀ محذّراً منها؛ فيقول ﵀: «**فأهم ما فيها وأشدها خطراً**»؛ أهم ما فيها: أي الجاهلية ومسائل الجاهلية، وأشدها خطراً: «**عدم إيمان القلب بما جاء به الرسول** ﷺ» إلى آخر كلامه.

أولاً: هذا يفيدنا فائدة مهمة في هذا الموضوع، ألا وهي: أن خصال الجاهلية التي كانوا عليها وجاء الإسلام بمحاربتها ليست على مستوى واحد، بل متفاوتة فيما بينها فبعضها أخطر من بعض، ولهذا قال الشيخ هنا: «**فأهم ما فيها وأشده خطراً**»، إذاً هي ليست في الخطورة على درجة واحدة بل متفاوتة في الخطورة؛ منها ما هو كفر أكبر ناقل من ملة الإسلام، ومنها ما هو دون ذلك ليس كفراً أكبر وإنما هو من كبائر الذنوب وعظائم الآثام لكنه ليس مُخرجاً من ملة الإسلام.

إذاً خصال الجاهلية متفاوتة، فأخطر شيئا في خصال الجاهلية يقول الشيخ: «**عدم ايمان القلب بما جاء به الرسول** ﵊»؛ هذا أخطر ما يكون، عندما يكون

قلب الإنسان ليس مؤمنـًا بما جاء به الرسول ﷺ سواءً كل ما جاء به، أو ليس مؤمنا ببعض ما جاء به ﷺ؛ فهذه جاهلية خطيرة جداً، عندما يقول بعض الناس: (أنا لست مقتنعا بكذا من أمور جاء بها الرسول ﷺ!) فهذا نوع من الجاهلية يصاب بها قلبه أو قلوب بعض الناس، «**عدم إيمان القلب**» والقلب هو الأساس، كما قال ﷺ: «**أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ**»(١)، ولهذا يؤثر عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «الْقَلْبُ مَلَكٌ وَلَهُ جُنُودٌ، فَإِذَا صَلُحَ الْمَلِكُ صَلُحَتْ جُنُودُهُ، وَإِذَا فَسَدَ الْمَلِكُ فَسَدَتْ جُنُودُهُ»(٢).

مع أن هذا الأمر ليس على إطلاقه، يعني: قد يطيب الملك ويفسد بعض الجند، وقد يخيب الملك ويصلح بعض الجند، أما القلب إذا صلح لا يمكن أن تتخلف الجوارح عن مراده، وإذا فسد أيضـًا هي تبع له، فهو الآمر الناهي الموجِّه وبقية الجوارح هي تبع له.

فإذا كان قلب الإنسان والعياذ بالله لم يؤمن بما جاء به الرسول ﷺ أو ببعض ما جاء به الرسول ﷺ كيف يكون فعله للخير وعنايته به؟!

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٨)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٣٧٥).
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ أَحْسَنُ بَيَانًا فَإِنَّ الْمَلِكَ وَإِنْ كَانَ صَالِحًا فَالْجُنْدُ لَهُمْ اخْتِيَارٌ قَدْ يَعْصُونَ بِهِ مَلِكَهُمْ وَبِالْعَكْسِ فَيَكُونُ فِيهِمْ صَلَاحٌ مَعَ فَسَادِهِ أَوْ فَسَادٌ مَعَ صَلَاحِهِ؛ بِخِلَافِ الْقَلْبِ فَإِنَّ الْجَسَدَ تَابِعٌ لَهُ لَا يَخْرُجُ عَنْ إرَادَتِهِ قَطُّ» «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٨٧).

ولهذا أعظم أساس في بابنا هذا «باب الحذر من خصال الجاهلية»: أن يجتهد المسلم في عمارة قلبه بحب ما جاء به الرسول ﷺ وحب دينه وحبه هو ﷺ، وأن يرضى قلبه بذلك، «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**»(١)، وأن يبغض كل ما خالف ذلك.

وخذها قاعدة عندك؛ كل ما خالف هدي النبي ﷺ فهو جاهلية، لأن الحق والهُدى بيَّنه النبي ﷺ بيانًا تامًا، اقرأ ذلك في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فكل ما خالف هديه ﷺ فهو جاهلية لأن الأمور إما حق أو باطل، والحق كله بيَّنه النبي ﷺ، وماذا بعد الحق إلا الضلال!!، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] الحق هو ما جاء به صلوات الله وسلامه عليه، إذاً أخطر ما يكون على الإنسان في هذا الباب عدم ايمان قلبه بما جاء به الرسول ﷺ.

يقول المصنف: «**فإن انضاف ذلك استحسان ما عليه أهل الجاهلية تمت الخسارة**»؛ إذا اجتمع في الشخص أمرين:

الأمر الأول: عدم الايمان أو عدم القناعة القلبية بما جاء به الرسول ﷺ.

والأمر الثاني: يستحسن ما عليه أهل الجاهلية، مثل ما يقال: معجب بهم وبصفاتهم وبهيئاتهم وبتعاملاتهم وبأحوالهم وبأمورهم وبأعيادهم إلى آخره، معجب بهم ويتتبع ما هم عليه، حتى إن بعض الناس من شدة تتبعه لما عليه أهل الجاهلية يحرص ألا يفوّت التتبع لما عليه أهل الجاهلية شبراً شبراً خطوة

---

(١) رواه مسلم (٣٤).

خطوة، كلما خطى خطوةً في السفه والغي والضلال خطاها معهم وتابعهم عليها؛ يستحسن ما عليه أهل الجاهلية، وهذه فتنة تصاب بها بعض القلوب نسأل الله العافية، تصاب بعض القلوب بفتنة فيبدأ يتابع أهل الجاهلية في كل ما يفعلونه؛ حتى في أمور قبيحة سيئة تنفر منها الطباع تجده يتابعهم فيها.

وحتى لا نطيل أضرب مثالاً في ذلك: قصات الشعر؛ الآن يُفتن بعض الناس بما عليه أهل الجاهلية فيتابعه خطوة خطوة في قصات الشعر، وتجده إذا ذهب إلى المشتغل بقص الشعر يعرض عليه صور لأهل الجاهلية يحدد شخصاً من هؤلاء يقول: أنا أريد مثل هذا، والآخر يقول: لا أنا أريد هذا أفضل، والثاني يقول: لا أنا أريد... ثم يحلقون شعورهم حلقاً محرماً، النبي ﷺ نهى عن القزع[1]، وكل أعمال الجاهلية في حلق الشعر نوع من هذا القزع الذي نهى عنه

(١) عَنْ نَافِعٍ مَوْلَى عَبْدِ اللهِ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما يَقُولُ: «**سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَنْهَى عَنِ الْقَزَعِ**» رواه البخاري (٥٩٢٠)، ومسلم (٢١٢٠).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «نهى رسول الله عن القزع، والقزع أن يحلق بعض رأس الصبي ويدع بعضه قال شيخنا: وهذا من كمال محبة الله ورسوله للعدل فإنه أمر به حتى في شأن الإنسان مع نفسه فنهاه أن يحلق بعض رأسه ويترك بعضه لأنه ظلم للرأس حيث ترك بعضه كاسيا وبعضه عاريا، ونظير هذا أنه نهى عن الجلوس بين الشمس والظل فإنه ظلم لبعض بدنه، ونظيره نهى أن يمشي الرجل في نعل واحدة بل إما أن ينعلهما أو يحفيهما.

والقزع أربعة أنواع:

أحدها: أن يحلق من رأسه مواضع من ها هنا وها هنا مأخوذ من تقزع السحاب وهو تقطعه.

الثاني: أن يحلق وسطه ويترك جوانبه كما يفعله شمامسة النصارى.

الثالث: أن يحلق جوانبه ويترك وسطه كما يفعله كثير من الأوباش والسفل.

الرابع: أن يحلق مقدمه ويترك مؤخره وهذا كله من القزع والله أعلم».

النبي ﷺ؛ فتجده لا يفعل الذي وجّه إليه النبي ﷺ ويتابع أهل الجاهلية في أمور تنفر منها الطباع السليمة.

وبدون مبالغة بعض قصات الشعر التي يفعلها بعض أبناء المسلمين مقلدين أهل الجاهلية بها قصات بشعة جداً، إذا رآها الإنسان الذي عنده فطرة سليمة إن سلّمه الله وإلا يكاد يستفرغ من المنظر الذي يراه من قبحه وشناعته، ولكن لفساد القلوب وتلوث العقول والفتنة باتباع الجاهلية لا يبالي باتباعهم، هذا مثال وقس عليه أمثلة كثيرة جدا تفشوا في الناس بسبب فتنة القلوب باستحسان ما عليه أهل الجاهلية.

فإذا كان الإنسان يستحسن ما عليه أهل الجاهلية، وفي الوقت نفسه لا يرتاح لما جاء به الرسول ﷺ لا تسأل عن هلكته وخسرانه؛ ولهذا قال المصنف هنا: «**تمت الخسارة**»؛ فتمت الخسارة إذا اجتمع في الشخص أمران:

الأمر الأول: عدم الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ.

والأمر الثاني: استحسان ما عليه أهل الجاهلية سواء في أقوالهم أو في أفعالهم أو عقائدهم.

«**كما قال الله** ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [**العنكبوت: ٥٢**]» انظر الآية وشاهدها في كلام المصنف؛ المصنف ذكر أمرين تتم بهما الخسارة؛ الأمر الأول: عدم الايمان بما جاء به الرسول، والأمر الثاني: اتباع ما عليه أهل الجاهلية، النتيجة: تمام الخسران، والآية تنص على ذلك؛ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: استحسنوا ما

عليه أهل الجاهلية ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: لم يؤمنوا بما جاء به الرسول ﷺ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ أي: أولئك الذين تمت خسارتهم.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الأولى: أنهم يتعبَّدون بإشراك الصالحين في دعاء الله وعبادته يريدون شفاعتهم عند الله لظنهم أن الله يحب ذلك وأن الصالحين يحبونه، كما قال تعالى:** ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾**[يونس: ١٨]، وقال تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ **[الزمر: ٣]**».

[الشرح]

بدأ رحمه الله تبارك وتعالى بالمسألة الأولى، وبدأ بها لأنها كبرى هذه المسائل وأخطرها وأشدها ضرراً على الناس، قال: «**المسألة الأولى: أنهم**» أي أهل الجاهلية؛ سواءً أهل الكتاب أو المشركين والأميين.

قال: «**أنهم يتعبدون بإشراك الصالحين في دعاء الله وعبادته**» واقع هؤلاء حقيقة أنهم أشركوا الصالحين وغير الصالحين؛ أشركوا الصالحين وأشركوا الشمس والقمر والنجوم والأشجار وغير ذلك، فأشركوا عباد الله الصالحين وأشركوا الجمادات ونحو ذلك من شمسٍ أو قمر أو حجر أو شجرة أو غير ذلك، لكن خصّ المؤلف الصالحين بالذكر: لأن عبادة الصالحين أقرب إلى النفس من عبادة الحجر؛ لأن عبادة الرجل الصالح أقرب إلى النفس من عبادة الحجر، فمكانة الصالح في النفس أعظم من مكانة الحجر، ومن هنا دخل الشيطان

على من كان قبلنا، وأول ما بدأ الشرك بدأ بعبادة الصالحين، لأن الناس خُلقوا وفُطروا على التوحيد وأول ما بدأ بهم الشرك بدأ من جهة عبادة الصالحين عبادة ودّ ويغوث ويعوق وسواع ونسر، جاء في «صحيح البخاري» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «.. أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ»[(١)].

عرفوا بالصلاح فلما ماتوا جاء الشيطان إلى أقوامهم وذكّرهم بهؤلاء الصالحين ومكانته وقال: إذا دفنتموهم دفنًا عاديًا سوف تنسونهم لكن ابنوا على قبورهم أبنية حتى تذكّركم بهم، واصنعوا لهم تماثيل على هيئاتهم وصورتهم وأشخاصهم، من أجل إذا رئيتم تلك الأبنية وتلك الصور ذكرتم هؤلاء الصالحين وذكرتم الخير الذي يدعونكم إليه، وترَك هذا الجيل على هذه الحال، ثم جاء للجيل الذي بعدهم وقال لهم: إن آبائكم وأجدادكم وضعوا هذه التماثيل وهذه الأنصاب من أجل أنهم إذا استغاثوا بهم أُغيثوا وإذا طلبوا منهم أُعطوا؛ فعبدوهم من دون الله، فكان أول شرك حصل في الناس كانت هذه بدايته، وذلك لأن عبادة الصالحين أقرب إلى الناس وأسهل من عبادة الحجر؛ لمكانة الصالح في النفوس ومنزلته عند الناس، ولهذا خصّ ذلك بالذكر رحمه الله.

قال: «**أنهم يتعبدون بإشراك الصالحين في دعاء الله وعبادته**» ثم يجعلون ذريعتهم في ذلك الضلال والباطل والشرك بالله أنهم يقولون: إنما أردنا بذلك

(١) رواه البخاري (٤٩٢٠).

الشفاعة «**يريدون شفاعتهم عند الله لظنهم أن الله يحب ذلك وأن الصالحين يحبونه**؛ هكذا يَفتن الشيطان الناس ويوقعهم في شبكة الشرك بهذه الطريقة؛ يوهمهم أن الله يحب ذلك، وأن الله يحب من عباده أن يجعلوا بينه وبينهم وسطاء من الصالحين يبلغونه حاجات الناس والعياذ بالله، يوهمهم ذلك، ويوهمهم في الوقت نفسه أن الصالحين أيضًا يحبون ذلك.

والله عزوجل لا يحب ذلك، والصالحون من عباده أيضًا لا يحبون ذلك، بل أنبياء الله كلهم والصالحون من عباده أجمعوا على النهي عن ذلك والتحذير منه .

قال: «**يريدون شفاعتهم عند الله لظنهم أن الله يحب ذلك وأن الصالحين يحبونه كما قال الله تعالى**: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[**يونس**: ١٨]» هذه طريقة أهل الشرك يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم وإذا سُئلوا لماذا تمارسون هذا الشرك وتمارسون هذا الباطل؟ يقولون: «هؤلاء شفعاؤنا عند الله».

قال: «**وقال تعالى**: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [**الزمر**: ٣]» يقول: نحن لا نعبد هؤلاء الصالحين إلا من أجل أن يقربونا إلى الله، ومن أجل أن يشفعوا لنا عند الله ﷻ؛ ومن هنا ولج هؤلاء في الشرك ودخلوا فيه من أوسع أبوابه؛ من هاتين الجهتين: جهة القربة، وجهة الشفاعة، من أجل أن يقربوهم إلى الله ﷻ، ومن أجل أن يكونوا لهم شفعاء

عند الله ﷻ، فهذه من أبرز وأخطر خصال الجاهلية التي يجب على المسلم أن يعرفها من أجل أن يحذرها وأن يتقيها.

وإذا نظرت في واقع المنتسبين إلى الإسلام تجد أن هذه الخصلة من خصال الجاهلية موجودة فيهم، تجد الرجل أو المرأة يذهب إلى قبر الرجل الصالح وأحيانًا غير الصالح ويقف أمام القبر خاشعًا باكيًا متذللاً منكسراً وربما ذبح ذبيحة عند القبر ثم مدّ يديه إلى جهة القبر سائلاً متضرعًا طالبًا من صاحب القبر نفسه يا فلان أدركني الحقني! والله بأذني سمعت امرأة تطوف في الحج وهي إلى جنب بيت الله ﷻ وتنادي بصوت عالي: «دخيلك يا محمد الحقني يا محمد»! والنبي ﷺ يقول: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»(١).

وأحيانًا بعض الكتب التي كُتبت على بعض طرق أهل الجاهلية للعوام وللجهال بأيديهم يقرؤونها؛ استغاثات شركية وتوجُهات لغير الله، حتى قرأت في بعضها كُتب فيها دعاءً يقال عند زيارة قبر أحد الأولياء قال: (تذهب إليه متطهراً، وتقف أمام قبره خاشعًا خشوعك في الصلاة، وتنحني قليلاً إلى جهته ثم تناديه باكيًا: يا سيدي فلان أنا ببابك أنا لائذٌ بجنابك أنا واقف بأعتابك إن لم تأخذ بيدي من الذي يأخذ بيدي!، أنا عبدك الكسير وفلان الذليل وبك المستجير إلى

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

آخره..) فأي شيء هذا؟! أليس هذا هو أبرز خصلة كانت في الجاهلية وبُعث نبينا ﷺ لمحاربتها وتخليص الناس منها؟! ثم يأتي دعاة الباطل إلى هؤلاء ويقولون لهم: هذا العمل هو العمل الصحيح الذي تقومون به، وهذه شفاعة، أنتم تنادون هؤلاء وتستغيثون بهم من أجل أن يشفعوا لكم عند الله فرجعوا إلى الأمر نفسه ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] رجعوا إلى الأمر نفسه ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ولهذا لما جهل الناس هذه الخصلة من خصال الجاهلية وقع بعضهم وعددٌ منهم فيها من حيث يظنون أنهم على الحق وعلى الهدى.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله ﷺ، فأتى بالإخلاص وأخبر أنه دين الله الذي أرسل به جميع الرسل وأنه لا يقبل من الأعمال إلا الخالص، وأخبر أن من فعل ما استحسنوا فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار، وهذه هي المسألة التي تفرّق الناس لأجلها بين مسلم وكافر، وعندها وقعت العداوة، ولأجلها شُرع الجهاد كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[الأنفال: ٣٩]».

[الشرح]

قال رحمه الله منبّها على خطورة هذه المسألة: «**وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله ﷺ**» وهنا يتألم المسلم الناصح غاية الألم إذا وجد أن أعظم مسألةٍ خالف فيها الرسول ﷺ يوجد في المنتسبين للإسلام من يمارسها هي بعينها بنفس العمل الذي كان يمارسه أولئك.

قال: «**وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله ﷺ؛ فأتى بالإخلاص**» أي: أتى بالإخلاص بدل الشرك الذي كانوا عليه والتنديد الذي كانوا يمارسونه، والإخلاص: هو إفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة، لأن الإخلاص في اللغة: من الخالص وهو الصافي النقي؛ بمعنى أن تكون العبادة من دعاء واستغاثة ورجاء وذبح وغير ذلك لله رب العالمين لا شريك له، كما قال الله عز وجل: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾

[الأنعام: ١٦٢-١٦٣]؛ فبُعث ﷺ بالإخلاص، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، قال ﷻ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾[الزمر: ٣] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

«**وأخبر أنه دين الله الذي أرسل به جميع الرسل**» كما قال تعالى ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦]، وكما قال ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١] أي: كلهم على هذا الأصل: «ألا تعبدوا إلا الله»، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن نبينا ﷺ قال: «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ؛ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»(١)، أي: عقيدتنا واحده؛ عبادة الله ﷻ مخلصين له الدين، وأمهاتنا شتى: أي الأعمال والشرائع قد تختلف من نبي إلى آخر كما قال ﷻ ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾[المائدة: ٤٨].

قال: «**وأنه لا يقبل من الأعمال إلا الخالص**» أنه لا يقبل أي: الله ﷻ من الأعمال إلا الخالص؛ ولهذا قال في القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ

(١) رواه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

قال الإمام ابن حجر ﵀: «والعلات بفتح المهملة الضرائر، وأصله أن من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه عل منها، والعلل الشرب بعد الشرب وأولاد العلات الأخوة من الأب وأمهاتهم شتى»«فتح الباري»(٦/ ٤٨٩).

﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ولهذا قال ربنا ﷻ في الحديث القدسي: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1] أي: أيَّ عمل كان؛ دعاء، رجاء، ذبح، نذر، صلاة، صيام، حج «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً» عملاً هنا نكرة في هذا السياق فهي تعم كل عمل، «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي» أيضاً غيري هنا تشمل كل أحد سواه تبارك وتعالى «تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»؛ فمن عمل أي عمل من الأعمال أشرك مع الله فيه غيره أياً كان هذا الغير تركه الله ﷻ وشركه، وهذا يدل على أن الله ﷻ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه وابتغاء لمرضاته سبحانه وتعالى.

«**وأخبر أن من فعل ما استحسنوا فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار**»؛ «**وأخبر**» أي: النبي عليه الصلاة والسلام «**أن من فعل ما استحسنوا**» أي: ما استحسنه أهل الجاهلية من تلك العبادات الباطلة واتخاذ الأنداد من الصالحين والأولياء أو غيرهم «**فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار**»؛ وهذا دلّ عليه القرآن ودلت عليه السنة؛ ففي القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وفي السنة قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ»[2]، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

ثم قال رحمه الله: «**وهذه المسألة التي تفرّق الناس لأجلها بين مسلم وكافر**» المسلم هو المخلص، والكافر هو المتخذ للأنداد بأي صيغة كانت وبأي مبرر كان.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٩٧).

اتخاذ الأنداد شركٌ سواء سماه من مارسه «شفاعةً» أو سماه «قربةً» أو سماه «توسلاً» أو سماه بأي اسم كان الشرك يبقى شركًا وإن غُير مسماه، فتغيير المسميات لا يغير الحقائق (هذه قاعدة)؛ مثلاً لو أن شخصًا سمى الربا «فوائد بنكية» لا يشمله قول الله تعالى: ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ أو يشمله؟! أو شخصٌ سمى الرِشوة التي لعن النبي ﷺ فاعلها عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: «**لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ**»(١).

قال هذه يا أخي إكرامية، هل تسميتها إكرامية يلغي الحكم واللعن الذي ورد في الحديث؟! الجواب: لا. كذلك الخمر! فيقول هذه مشروبات روحية، فهل هذا الحكم أو هل هذه التسمية تلغي الحكم؟ الجواب: لا. فشخص يمد يديه إلى غير الله ويقول: أنا لائذٌ بك، أنا منكسرٌ عند بابك، أنا لائذٌ بجنابك أنقذني أدركني الحقني إلى آخره... وإذا قيل له ما هذا؟! قال: هذا توسل! هل يلغي الحكم لكونه سمى هذا الشرك توسلاً؟! الجواب: لا.

فتغيير الأسماء لا يغير الحقائق، الشرك شركٌ وإن غُيِّر اسمه، حتى وإن سماه صاحبه شفاعة أو توسلاً.

العبادة ومنها الدعاء حق لله، لا يدعى إلا الله في الحديث: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»(٢)، هذا أصل لا نزاع فيه وأمرٌ واضح بيّن، فمن

(١) رواه أبو داود (٣٥٨٠)، والترمذي (١٣٣٧)، وابن ماجه (٢٣١٣)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٨٧١).

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

دعا غير الله واستغاث بغير الله ولجأ إلى غير الله تبارك وتعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله جل وعلا فهذا اتخذ نداً مع الله تبارك وتعالى ولا يعفيه من تبعة ذلك كونه يسميه توسلاً أو يسميه شفاعةً أو يسميه قربة أو غير ذلك من الأسماء.

قال: «**وهذه المسألة التي تفرّق الناس لأجلها بين مسلم وكافر**»؛ المسلم هو المخلص، والكافر هو الذي اتخذ مع الله الأنداد والشركاء، ولهذا في تمام الآية الأولى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ قال في تمامها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ سمى عملهم هذا كفراً بالله تبارك وتعالى.

قال: «**وعندها وقعت العداوة**» عند هذه المسألة وقعت العداوة؛ بين من ومن؟ بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين، لأن النبي عليه الصلاة والسلام دعاهم ليخلصوا العبادة لله جل وعلا ويوحّدوا الله بالعبادة ويتركوا عبادة الأنداد من الصالحين والملائكة والأنبياء والأشجار والأحجار وغيرها وقال لهم: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»[1] داعياً لهم إلى التوحيد والإخلاص فماذا كان الجواب؟ قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: ٥] وأيضا تواصوا بينهم على البقاء على تلك العبادة الباطلة ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٦-٧] هذا افتراء: ما علمنا في الملة الآخرة، وسيأتي ذكر هذا الأمر من مسائل الجاهلية

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٠٢٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٢٨)، والدارقطني في «سننه» (١٨٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨١٧٥)، وانظر: «الإرواء» (٨٣٤).

يستدلون على الباطل الذي هم عليه بأنهم ما عرفوه في الملة الآخرة أي: ما عرفوه فيمن سبقهم، بعض الناس يُنكر عليه بعض الشرك أو بعض البدع ويقول: منذ نشأنا والآباء والأجداد ما نعرف هذا الذي تدعوا إليه؛ فيرفض التوحيد ويرفض السنة بحجة أنه ما عرفه فيمن قبله ومن سبقه، ويكون من سبقه على جاهلية أو على ضلال، وهذه مسألة سيأتي حديث المصنف ﵀ عنها.

قال: «**ولأجلها** -أي لأجل هذه المسألة- **شُرع الجهاد، كما قال الله تعالى:** ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ **[الأنفال: ٣٩]**» والفتنة كما فسرها بذلك ابن عباس ﵄ وغيره: هي الشرك بالله، «قاتلوا حتى لا يكون شِرك»[(١)]، قال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: حتى لا يكون في الناس شرك بالله ﷿ واتخاذٌ للأنداد، وهذه أعظم ذنب وأعظم معصية يقع الناس فيها ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾أي: يكون الناس موحدين مخلصين لله ﵎ بعيدين عن الشرك، ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ من أجل ماذا؟ من أجل ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: لا يكون شرك بالله ﷿ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.

الشاهد أن هذه هي المسألة الأولى، وهي أعظم المسائل وكبرى المسائل التي خالف النبي ﵊ أهل الجاهلية؛ والواجب على المسلم أن يعرف هذه المسألة معرفةً جيدة وأن يكون منها على حذر، وأن يسأل الله ﵎ العظيم رب العرش العظيم أن ينجيه من هذه الخصلة التي هي أشد وأخطر خصال أهل الجاهلية، وأن ينجيه من خصال أهل الجاهلية عمومـًا فإنه ﵎ الموفق والهادي

---

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٣١١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩٠٧٣).

لا شريك له. ومن الدعاء المأثور عنه صلوات الله وسلامه عليه في هذا الباب «**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**»[١] وكان أيضا يقول في دعائه صلوات الله وسلامه عليه كل صباح: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ**»[٢]، والأدعية المأثورة عنه في هذا المعنى كثيرة، ومن هذا القبيل أيضًا دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦].

✽ ✽ ✽ ✽ ✽

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٤٠٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٥٥١).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٩٠)، وحسنه الألباني في «تمام المنة» (ص ٢٣٢).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثانية من مسائل الجاهلية: أنهم متفرقون في دينهم كما قال تعالى:** ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، **وكذلك في دنياهم ويرون أن ذلك هو الصواب، فأتى بالاجتماع بالدين بقوله:** ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، **وقال تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، **ونهانا عن مشابهتهم بقوله** ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، **ونهانا عن التفرق في الدنيا بقوله:** ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]».

[الشرح]

هذه المسألة الثانية من مسائل الجاهلية التي خالفها النبي صلى الله عليه وسلم وكان رحمه الله بدأ أول ما بدأ بذكر كبرى المسائل؛ وهي الشرك بالله عز وجل الذي هو أظلم الظلم وأكبر الذنوب على الإطلاق، ثم بدأ رحمه الله بذكر المسألة الثانية مما كان عليه أهل الجاهلية ألا وهو: التفرق؛ فكان أهل الجاهلية متفرقين لأنه ليس هناك شيء يجمعهم، العقائد التي كانوا عليها عقائد باطلة، والأديان التي كانوا يدينون بها أديان باطلة، ومن المعلوم أن الباطل يفرق ولا يجمع، وإنما الذي يجمع هو

الحق والهدى، ولهذا قيل عن أهل الحق «أهل الجماعة» لأن الحق هو الذي يجمع، وقيل عن أهل الباطل «أهل الفرقة» لأن الباطل يفرِّق أهله ولابد.

فأهل الجاهلية كانوا متفرقين: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾[الحشر: ١٤]، العقائد التي يعتقدونها متفاوتة؛ عبدوا أربابًا متفرقين؛ فتفرقوا في أنفسهم واختلفوا، ونشبت بينهم العداوات، وأريقت فيهم الدماء، وكثرت فيهم الفتن، وذلك كله لإعراضهم عن الحق والهدى، ولهذا فإن الحق والهدى يؤلف بين القلوب المتنافرة ويجمع شتات الناس ويلم شعثهم ويوحِّد كلمتهم ويلم صفهم وتتحقق به سعادتهم، أما إذا كانوا على الباطل فإنهم يتفرقون شذر مذر.

إذًا من خصال الجاهلية التي كانوا عليها التفرق؛ والتفرق الذي كانوا عليه ليس تفرقًا في الدين فقط، بل هم متفرقون في الدين والدنيا؛ أما في الدين: فالكل له عقيدته وله مذهبه الذي أملاه عليه هواه أو ميوله أو رغبته أو نحو ذلك، والتفرق في الدين لأن بينهم أطماعٌ دنيوية لأحد لها يتقاتلون عليها وتراق دمائهم وتُنتهك الأعراض وتستلب الأموال في حروب طاحنة قد تمضي السنوات الطوال فكانوا متفرقين في الدين والدنيا؛ ولهذا قال ﵀: «**أنهم -أي أهل الجاهلية- متفرقين في دينهم كما قال الله تعالى: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾[الروم: ٣٢]**»؛ كل حزب أي: فئة منهم أو طائفة بما لديهم أي: من دينٍ أو عقيدة أو نِحلة أو مذهب فرحون؛ أي: كلٌّ منهم يرى أن الذي عنده هو الحق وأن الذي عند غيره هو الباطل، والحق وراء ذلك كله، بل هم متفرقون في الباطل والأهواء كُلٌّ فرح بما عنده وما عنده باطل لا خير فيه، ضلال لا هدى فيه.

قال: «**وكذلك في دنياهم أي متفرقين في الدنيا ويرون ذلك هو الصواب**»؛ وانتبه هنا إلى قول المصنف رحمه الله «**ويرون ذلك هو الصواب**» أي: يرون ما هم عليه من تفرقٍ واختلافٍ وعداواتٍ في الدين والدنيا يرون ذلك هو الصواب، وكل فئة من هؤلاء ترى أن العز والمَنَعَة والقوة بالانتصار للباطل التي هي عليه ومقاومة الآخرين، والآخرون كذلك، ثم القوي منهم يبطش بالضعيف، وأصبحت حياتهم بسبب هذا التفرق أشبه ما يكون تمامًا بحياة الحيوانات المفترسة في الغابات؛ ولهذا تسمى الشريعة التي هم عليها «شريعة الغاب»؛ لأنهم يمارسون تماما ما تمارسه الأسود والحيوانات المفترسة في الغاب، القوي منهم يأكل الضعيف ويتسلط عليه ويريق دمه وينتهك عرضه، إلى غير ذلك من الشرور العظيمة الكبيرة التي كانوا عليها وكانوا يعيشونها.

حتى قوله: «**ويرون أن ذلك هو الصواب**» كم عندهم من الأشعار التي يمدحون فيها هذا الباطل الذي هم عليه، ويمدحون الانتصارات التي يحققونها في قتل من يسمونهم الأعداء، وهم كلهم أعداء لدين الله وأعداءٌ للحق والهدى، لكنهم يتطاحنون ويتقاتلون على ضلال وباطل وضياع في الدنيا وفي الآخرة.

قال: «**فأتى بالاجتماع**»؛ أي: النبي عليه الصلاة والسلام أتى بالاجتماع، فمن أعظم ما دعا إليه عليه الصلاة والسلام الاجتماع وذم الفرقة.

قال: «**فأتى بالاجتماع في الدين**» ولا يمكن أن يكون اجتماع إلا في الدين؛ فأتى عليه الصلاة والسلام بالاجتماع في الدين: أي دعا الناس إلى أن يجتمعوا على دين واحد، على عقيدة واحدة، على عبادة رب واحد، على لزوم شرع واحد، على اتباع

نبي واحد خُتمت به الرسالات، على لزوم كتاب الله ﷻ ووحيه وتنزيله، دعا ﷺ إلى هذا الاجتماع: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[آل عمران: ١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾[الشورى: ١٣]؛ فدعاهم ﷺ إلى أن يجتمعوا على دينٍ واحد ألا وهو دين الله ﷻ دين الإسلام الذي رضيه الله ﷻ لعبادة دينا ولا يقبل دينًا سواه، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾[آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[المائدة: ٣]؛ فدعا ﷺ عموم الناس إلى أن يجتمعوا على هذا الدين دين الإسلام الذي يؤلف بين القلوب المختلفة والأنفس المتفرقة ويجمعهم على أحسن ما يكون من اجتماع وإتلاف(١).

قال: «**فأتى بالاجتماع بالدين بقوله** ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾[الشورى:١٣]»؛ الذي وصى به ﷻ هؤلاء الأنبياء، وخصوا بالذكر لأنهم أولي العزم من الأنبياء وعددهم خمسة الذي، الذي وصى به هؤلاء وغيرهم من أنبيائه ورسله عليهم صلوات الله وسلامه هو ما ذكره في تمام الآية بقوله:

---

(١) رحم الله العلامة محمد الأمين الشنقيطي لما قال: «الرابطة الحقيقية التي تجمع المفترق وتؤلف المختلف هي رابطة «لا إله إلا الله» ألا ترى أن هذه الرابطة التي تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد واحد، وتجعله كالبنيان يشد بعضه بعضاً»«أضواء البيان» (٣/ ٤٦).

﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: الذي شرع الله لكم وأمركم به وأنزل به كتبه وبعث به رسله، ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ بل احذروا من الفرقة ومن أسبابها وموجباتها وألزموا دين الله ﷻ واجتمعوا عليه.

قال: «**وقال تعالى** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [**الأنعام: ١٥٩**]»؛ وهذه الآية ساقها المصنف ﵀ هنا لأن فيها ذمًّا للفرقة وأهلها، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي: أحزابًا وطوائف لست منهم في شيء؛ وهذا فيه دعوة للنبي ﷺ أن يتبرأ ممن كانت هذه حاله، قال ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ أي: لست منهم وليسوا منك، ليسوا على نهجك ولست على نهجهم، أنت منهم براء، قال: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ لأن الذي كان عليه ﵊ اجتماع وأُلفة على الحق والهدى، وهؤلاء الذي هم عليه افتراقٌ واختلاف وفرقةٌ على الباطل والردى؛ فذم الله ﷻ سبيلهم وبرأ نبيه ﷺ منهم ومن حالهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾.

«**ونهانا عن مشابهتهم**» أي: في ما كانوا عليه من فرقة وضلال «**فقال سبحانه** ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[**آل عمران: ١٠٥**]» أي: احذروا أن تسلكوا سبيل هؤلاء الذين هم أهل فرقة وضلال وباطل، لا تكونوا مثلهم ولا تتشبهوا بهم.

ثم قال ﵀: «**ونهانا عن التفرق في الدنيا بقوله** ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[**آل عمران: ١٠٣**]» نهى ﵊ عن التفرق في الدنيا أي: من أجل الدنيا، ولا تساوي الدنيا شيئا بحيث إنها تكون سببا لفرقةٍ بين المؤمنين أو عداواتٍ

بين المسلمين، فالإسلام الذي هم عليه هو المعيار الذي تجتمع عليه القلوب وتأتلف النفوس، ولا يجوز لأهل الإسلام أن تنشب بينهم فرقة وعداوات من أجل الدنيا التي سيفارقونها أجمعين ولا يبقون فيها، فالدنيا لا تساوي أن تنشب بين أهل الإسلام عداوات لأجلها؛ فنهى النبي ﷺ عن الفرقة لأجل الدنيا، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام أحاديث عديدة في ذم التهاجر فوق ثلاث بسبب الأمور الدنيوية[١]، لأنه قد يقع نزاعات وخلافات في أمور دنيوية فنهى النبي ﷺ أن يهجر أخاه فوق ثلاث أيام أو ثلاث ليال بسبب الأمور والمصالح الدنيوية، فنهى عليه السلام عن التفرق في الدنيا.

وأورد المصنف رحمه الله دليلًا على ذلك وهو قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾، ووجه الدلالة من هذه الآية: ما ذكره جماعة من المفسرين في معنى الآية أنها جاءت في سياق الامتنان على الأوس والخزرج الذين كانت قد نشبت بينهم حروب طاحنة قبل الإسلام وقتالٌ طويل ودماءٌ أريقت وأنفس أزهقت، فجاءت هذه الآية في سياق الامتنان عليهم بمنة الإسلام الذي أذهب عنهم جاهلية الفرقة والقتال وإراقة الدماء والعداوات التي مبنية على ضلال وباطل، فجاءت الآية في سياق الامتنان عليهم بمنة الله عز وجل بالاجتماع على الدين والحذر من الفرقة في الدنيا التي كان عليها أولئك، قال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾؛ فهي

---

(١) عن أبي أيوب رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لا يَحِلُّ لمسلمٍ أنْ يهجرَ أخاه فوق ثلاثٍ، يلتقيان، فيصدُّ هذا، ويصدُّ هذا، وخيرُهما الَّذي يَبدأ بالسَّلام**» رواه البخاري (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠).

جاءت في سياق الامتنان على هؤلاء الذين كانوا أعداء متفرقين لأجل الدنيا متحاربين عليهم متعادين متباغضين، فجاءت هذه الآية تدعوهم إلى الاجتماع والاعتصام والألفة في سياق الامتنان عليهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم بالإسلام من الجاهلية والتفرق والقتال والعداوات العظيمة التي نشبت بينهم سنوات طوال وعمرٍ مديد، إذًا هذه من الخصال العظيمة التي جاء بها النبي ﷺ ألا وهي الاجتماع مخالفًا بذلك الفرقة التي كان عليها أهل الجاهلية.

وأنتبه هنا إلى أن نبينا ﷺ مع تحذيره أمته من الاختلاف في الدين والاختلاف في الدنيا أيضًا أخبر في الوقت نفسه أن الاختلاف سيوجد، وأخبر بذلك محذرا منه ومن أسبابه، ولهذا جاء عنه ﷺ أحاديث عديدة في هذا المعنى كقوله ﷺ: **«وإنَّه من يَعِشْ مِنْكُم بعدي فَسَيرى اختلافـًا كَثيراً، فَعَلَيكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلفاء الرَّاشدينَ المهديِّينَ، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكُم ومُحْدَثاتِ الأمور، فإنَّ كُلَّ بِدعَةٍ ضَلالةٌ»**[1].

الشاهد من الحديث قوله ﷺ: **«إنَّه من يَعِشْ مِنْكُم بعدي فَسَيرى اختلافـًا كَثيراً»** وقال ﷺ ذلك على وجه التحذير للأمة، ولهذا أرشد ﷺ في السياق نفسه دون أن يُسأل عن موجبات الاجتماع والسلامة من الفرقة فقال: **«فَعَلَيكُمْ بِسُنَّتِي»** ثم قال: **«وإيَّاكُم ومُحْدَثاتِ الأمور»**.

أيضا صح عنه ﷺ أنه قال: **«افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَوَاحِدَةٌ**

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّرغيب» (٣٧).

فِي الْجَنَّةِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ»[١]، قال ذلك ﷺ محذرا من الافتراق ومبينًا خطر الافتراق وأنه لا يجلب على الناس خيرًا، بل يجلب عليهم شرورا كثيرة وأضرار عظيمة، ولهذا ينبغي على كل مسلم أن يحذر من جاهلية الافتراق التي كان عليها أهل الجاهلية وجاء الإسلام بذمها والتحذير منها، والواجب على كل مسلم في هذا الباب أن يبحث عن أسباب الاجتماع والألفة والوحدة بين أمة الإسلام فيسعى في تحقيقها، وأن يعرف أيضا أسباب الافتراق ليحذر منها ويبتعد عنها.

ويجب أن نعلم هنا أن أعظم أسباب الافتراق وجود مخالفات الدين من الشرك والعياذ بالله والبدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، فإن مثل هذه الأمور إذا وُجدت بين الناس فرَّقت صفهم، وكما قلنا فيما سبق كما أن الحق يجمع فإن الباطل يفرق، ولهذا الشرك إذا وُجد والبدعة إذا وجدت والضلالات إذا وجدت فرقت الناس، ولا يمكن أن يجتمع الناس إلا على حبل الله، لا يمكن أن يجتمعوا على البدع والأهواء والضلالات، بل لا يمكن أن يجتمعوا إلا على حبل الله المتين ودينه القويم الذي بعث الله ﷻ به أنبيائه ورسله عليهم صلوات الله وسلامه[٢].

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٩٨٢)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٢٢٦).

(٢) ولشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله رسالة قيمة بعنوان: «منهج أهل السنة في توحيد الأمة» وهي ضمن «الجامع للمؤلفات والرسائل» (٨/ ٢٤٩).

فالواجب على كل مسلم أن يجاهد نفسه على تحقيق الاجتماع والألفة؛ وذلك بحفظ الدين الذي يجمع، وأن يحذر أشد الحذر من الفرقة؛ وذلك بالبعد عن الأهواء التي تفرق، ولهذا ما أجملها من كلمة تداولها السلف وأهل السنة قديما وحديثا حيث يقولون: «أهل السنة والجماعة، وأهل البدعة والفرقة» كلمة عظيمة جدا، «أهل السنة والجماعة» لأن السنة تجمع، والبدعة ماذا تصنع؟ تفرق، البدعة إذا وجدت بين الناس فرقتهم، والسنة إذا وجدت بين الناس جمعتهم، ولهذا لاحظ ملاحظة عجيبة جدًا؛ أن نبينا ﷺ عندما قال: «**وإنَّه من يَعِشْ مِنْكُم بعدي فَسَيرى اختلافًا كثيراً**»[1]، ونبَّه ﷺ في الوقت نفسه وفي الحديث نفسه إلى ما يحقق الاجتماع ودعاء إليه وإلى ما يوجب الفرقة وحذر منه، فقال: «**عَلَيْكُم بِسُنَّتِي**»، ونبه في الوقت نفسه على ما يسبب الفرقة وحذر منه فقال: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُور**»؛ فمحدثات الأمور تفرق الناس، وسنته ﷺ تجمع الناس وتؤلف بينهم، ولهذا من أراد لنفسه ولأمة الإسلام أن تجتمع فليكن داعيةً إلى السنة محذرا من البدعة، لأن السنة هي التي تجمع الناس، والبدع هي التي تفرق الناس، وإذا أردت شاهد ذلك ودليله فانظر حال الناس قبل مبعثه وحالهم بعد مبعثه ما لذي جمعهم؟ لم يجمعهم إلا الحق والهدى الذي بُعث به ﷺ ودعاء الناس إليه من إقامة التوحيد وإخلاص الدين لله تبارك وتعالى

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّرغيب» (٣٧).

واتباع نبيه ﷺ ولزوم ما جاء به والحذر من الضلالات والأهواء والجاهليات والأباطيل؛ هذا الذي اجتمع عليه الناس واتحدت كلمتهم بمبعثه صلوات الله وسلامه عليه.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثالثة: أن مخالفة ولي الأمر وعدم الانقياد له فضيلة والسمع والطاعة له ذل ومهانة؛ فخالفهم رسول الله ﷺ وأمر بالصبر على جور الولاة، وأمر بالسمع والطاعة لهم والنصيحة، وغلظ في ذلك وأبدأ فيه وأعاد، وهذه الثلاث هي التي جمع بينها فيما صح عنه ﷺ في الصحيح أنه قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»، ولم يقع خلل في دين الناس ودنياهم إلا بسبب الإخلال بهذه الثلاث أو بعضها**».

[الشرح]

ثم ذكر رحمه الله المسألة الثالثة قال: «**إن مخالفة ولي الأمر**» أي: من ولي أمر الناس- **إن مخالفة ولي الأمر وعدم الانقياد له فضيلة والسمع والطاعة له ذل ومهانة**» هذه جاهلية كان عليها أهل الجاهلية قبل الإسلام ومبعث النبي الكريم عليه السلام؛ كانوا يرون أن مخالفة ولي الأمر يعني إذا كان وليهم أميرا أو تولى عليهم والٍ يرون أن مخالفته وعدم الانقياد له فضيلة، ويعدون هذا نوع من الرجولة ونوع من الجدارة ونوع من الشهامة ونوع من العزة ألا يسمع ولا يطيع، وتجد الواحد منهم يقول في نفسه أنا أكبر من أن أسمع وأطيع، هذه جاهلية كانوا عليها، وعند أدنى مبرر يأنف من السمع والطاعة؛ انظر شاهد ذلك في أهل الكتاب ماذا

قالـوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾[البقرة: ٢٤٧] عند أدنى مبرر تجده تأتيه أنفه وتعال وكبرياء ويشق عصا الطاعة؛ هذه جاهلية كانوا عليها، ويرونها فضيلة ويتفاخرون بها أنه لا يسمع ولا يطيع وأن هذا نوع من الرجولة التي يتميزون بها والشهامة التي يتميزون بها والفضائل التي يختصون بها أنه لا يسمع ولا يطيع، «أنا أسمع وأطيع!!» يقول: «أسمع لفلان وأطيع لفلان!! لا ما أسمع له ولا أطيع ولاكرامة..» إلى آخره، ثم يتفاخرون في أشعارهم ويمتدحون أنفسهم أنه لا يسمع ولا يطيع.

فكانوا يعدون مخالفة ولي الأمر وعدم الانقياد له فضيلة والسمع والطاعة له ذل ومهانة؛ أن سمعه وطاعته لولي الأمر ذل ومهانة له يقول: (كيف أبقى ذليلا!! هذا ملك علي أو هذا وال علي أو هذا أمير علي!! أنا أمير نفسي، أنا ليس لي أمير ولا يمكن أقبل إمارة لأحد على نفسي) هذه الجاهلية التي كانوا عليها هي التي جعلت أمورهم كلها فوضى ودائما في انشقاقات وفي تصدع وفي قتال وفي خلافات إلى آخره؛ لأن أمر الناس لا يتحقق إلا باجتماع، ولا اجتماع إلا بأمير، ولا أمير إلا بسمع وطاعة منتظمة.

أمور الناس ومصالح الناس لا يمكن أن تتحقق إلا بأمير - وتفكر في هذا الأمر قليلا-؛ فعندما يكون أناس في مجتمع وليس عليهم وال يسوس الناس فكيف يصبح حالهم؟ والله تكون حالهم أقبح من حال الوحوش في الغابات(١)، إلا إذا كان عليهم أمير وينظِّم أمرهم ويسوسهم ولهذا قيل:

---

(١) لذا قال الإمام ابن رجب ﵀: «وأمَّا السمعُ والطاعةُ لوُلاة أمور المسلمين، ففيها سعادةُ

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سُرَاةَ لَهُمْ ... وَلَا سُرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُم سَادُوا

فالناس ما يصلحون فوضى بدون أمير، إذًا لا تتحقق المصالح إلا باجتماع، ولا اجتماع إلا بأمير، ولا أمير إلا بسمع وطاعة؛ إذا وجد الأمير والناس الذين من تحته كل واحد منهم يقول أنا أكبر من أن أسمع لهذا وأطيع، أو آخر يقول: أنَّى يكونوا له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، يقول «أنا أولى بالملك من فلان، أنا فلان ابن فلان ابن فلان أنا أولى من هذا وأجدر منه بالملك، وأنا عندي أموال كثيرة وأنا كذا وأنا كذا»؛ فيأنف عن السمع والطاعة ويتعالى ويتكبر على ذلك، فهذه الجاهلية التي كانوا بها هي التي فرقتهم؛ فجاء الإسلام بالاجتماع، وجاء أيضا بوجوب تنصيب الوالي والسمع والطاعة له، وجاء في هذا الباب أحاديث كثيرة جدًا حتى إن من اهتمام النبي ﷺ بمسألة السمع والطاعة لولي الأمر جعلها مضمومة إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ومباني الإسلام الموجبة لدخول الجنة، وقد قال ذلك وهو «يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ: **«اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ»**[1]، فذكر طاعة ولي الأمر، والسمع والطاعة لولي

الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معايشِهم، وبها يستعينون على إظهار طاعة ربِّهم» «جامع العلوم والحكم» (ص٢٦٢).

(١) رواه الترمذي (٦١٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٦٧).

الأمر مع إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان ضمها إلى مباني الإسلام قال: «**تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ**».

ومن الناس الذين دخلت عليهم هذه الجاهلية -جاهلية عدم السمع والطاعة لولي الأمر- تجده إذا قرأت عليه الأحاديث التي في الأمر بالصلاة يقبلها، وأحاديث في إيتاء الزكاة يقبلها ونفسه تنشرح لها، وتقرأ عليه أحاديث في الصيام تنشرح نفسه لها، ولكن تقرأ عليه أحاديث في الإمارة والسمع والطاعة تنقبض نفسه وتنكمش وينفر منها! لماذا؟ إلا لكون هذه الجاهلية دخلت عليه جاهلية أهل الضلال والباطل، فتجده تنقبض نفسه من هذه الأحاديث ويأنف من سماعها وقبولها والله في القرآن الكريم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[النساء: ٥٩] فأمر ﷻ بطاعة ولي الأمر، قال أبو هريرة رضي الله عنه: ولي الأمر: «هم الأمراء»[(١)]، والنبي ﷺ قال: «**وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي**»[(٢)]، وجاء عنه في هذا الباب أحاديث كثيرة جدا.

قال: «**فخالفهم رسول الله** ﷺ» خالفهم؛ أي: في هذه الجاهلية جاهلية عدم السمع والطاعة والانقياد لولي الأمر.

قال: «**فخالفهم رسول الله ﷺ وأمر بالصبر على جور الولاة**» لاحظ هنا ملاحظة أن النبي عليه الصلاة والسلام أمر بالسمع والطاعة حتى للأمير الجائر، أمر أن يُسمع له ويطاع حتى ولو كان أميرا جائرا ظالما لأن مصلحة المجتمع الإسلامي لا يمكن

---

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٩٨٥٦).

(٢) رواه البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥).

أن تتحقق إلا بالانتظام، وساعة يعيشها الناس مع أمير جورٍ خير من سنوات بلا أمير، لأنهم بلا أمير تصبح أمورهم فوضى لا حد لها، أما إذا كان الأمير جائرا فقد يتضررون في بعض الجوانب لكن في الجملة أمرهم منتظم والأمن فيهم متحقق ومصالحهم ماضية ومثل هذه الأمور الكبار متحققة؛ فأمر ﷺ بالسمع والطاعة حتى وإن جار الأمير وأمر بالصبر، ولهذا قال: «**وأمر بالصبر على جور الولاة**»؛ جاء في الحديث الصحيح «المتفق عليه» أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ**»(١) وهذا قول المصنف «**أمر بالصبر**»، قال: «**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا، فَمَاتَ، فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ**»(٢)، قال الإمام النووي رحمه الله في شرح هذا الحديث في معنى قوله: «**فَمَاتَ، فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ**» قال: «أي: على صفة موتهم من حيث هم فوضى لا إمام لهم»(٣)، الجاهلية هذه كانت حالهم فوضى لا إمام لهم، فمن مات مفارقا الجماعة منشقا عن السمع والطاعة نازعًا يد الطاعة للأمير ومات على هذه الحال يكون مات ميتة الجاهلية، لأن الجاهلية كانت أمورهم فوضى لا إمام لهم، وإذا وجد إمام لا يسمعون له ولا يطيعون.

كذلك جاء عنه عليه الصلاة والسلام في «صحيح مسلم» أنه قال: «**مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، لَقِيَ**

---

(١) رواه البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩).

(٢) رواه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩).

(٣) «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤٨٢).

الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»(١) أي: مات على الحال التي يموت عليها أهل الجاهلية من أنهم كانوا يعيشون فوضى لا إمام لهم ولا أمير، فالإسلام جاء بمحاربة ذلك.

ثم قال رحمه الله: «**وأمر بالسمع والطاعة**» وهذا جاء في أحاديث كثيرة، منها حديث العرباض بن سارية المشهور قال: «وَعَظَنا رسولُ الله ﷺ موعِظَةً، وَجِلَتْ مِنْها القُلوبُ، وذَرَفَتْ منها العُيونُ، فَقُلْنا: يا رَسول الله، كَأنَّها موعِظَةُ مُودِّعٍ، فأوْصِنا، قال: «**أوصيكُمْ بتقوى الله، والسَّمْعِ والطَّاعةِ**(٢)**، وإنْ تَأَمَّرَ عَليكُم عَبْدٌ**...»(٣).

«**والسَّمْعِ والطَّاعةِ**» أي: أن تسمع لقوله وتطيع لأمره، «**والنصيحة**» وهذا في حديث عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»(٤).

---

(١) رواه مسلم (١٨٥١).

(٢) قال شيحنا العلامة عبد المحسن بن حمد العباد البدر حفظه الله في شرحه لهذا الحديث: «وهي وصيَّة بالسمع والطاعة لولاة الأمور في غير معصية الله، ولو كان الأمير عبداً، وقد أجمع العلماء على أنَّ العبدَ ليس أهلاً للخلافة، ويُحمل ما جاء في هذا الحديث وغيره من الأحاديث في معناه على المبالغة في لزوم السمع والطاعة للعبد إذا كان خليفة، وإن كان ذلك لا يقع، أو أنَّ ذلك يحمل على تولية الخليفة عبداً على قرية أو جماعة، أو أنَّه كان عند التولية حرًّا، وأُطلق عليه عبد باعتبار ما كان، أو على أنَّ العبدَ تغلَّب على الناس بشوكته واستقرَّت الأمور واستتبَّ الأمن؛ لِمَا في منازعته من حصول ما هو أنكر من ولايته»«فتح القوي المتين» (ص٨٤).

(٣) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّرغيب» (٣٧).

(٤) رواه مسلم (٥٥).

فالنصيحة لولي الأمر مطلوبة، وما هي النصيحة؟ قال أهل العلم في معناها: هي إرادة الخير للغير، النصح لولي الأمر أن تريد له الخير، وتحب له ذلك من قلبك، فتحب أن يكون صالحا، وتحب أن يكون تقيا، وتحب أن يكون محكما لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وتحب أن يكون بعيدا عن الأهواء والضلالات، وتدعو له بالخير والصلاح، تدعو له أن يصلحه الله ويصلح به البلاد وأن يذهب عنه البطانة الفاسدة وبطانة السوء، تدعو لهم بذلك، وإذا رأيت منه شيء تكرهه تنصحه بينك وبينه كما جاء عن نبينا عليه الصلاة والسلام **«من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يبده علانية، ولكن يأخذ بيده فيخلوا به، فإن قبل منه فذاك، وإلا كان قد أدى الذي عليه»**[1] إذا كنت قادرًا على ذلك، وإذا كنت لست قادرًا بلِّغ من أهل العلم وأهل الفضل من يستطيعون ذلك تبرأ ذمتك ذلك، وتبقى داعيا له بأن يصلحه الله وأن يهديه الله وأن يوفقه الله وأن يبعده عن الظلم وعن إيذاء الناس إلى غير ذلك، تدعو له فهذه النصيحة؛ ولهذا قال العلماء رحمهم الله: «إذا رأيت الرجل يدعو للسلطان فاعلم أنه صاحب سنة، وإذا رأيته يدعو عليه فاعلم أنه صاحب بدعة» لأن الإسلام جاء بالنصيحة لولي الأمر، ومن النصح لولي الأمر أن تدعوا له بالصلاح، ليس معنى أن تدعو له: أنه إذا ظلمك وظلم الآخرين تقول جزاه الله خيرا، وإنما تدعو له أن يهديه نسأل الله أن يهديه، نسأل الله أن يصلحه، نسأل الله أن يبعده عن هذا الظلم، نسأل الله عز وجل أن يجعله خيرا على البلاد وعلى العباد؛

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٣٣٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٩٦)، والحاكم في «مستدركه» (٥٢٦٩)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (١٠٩٦).

انظر: «اعتقاد أهل السنة» (١/ ١٧٦)، و«شرح السنة» (١٠٧).

هذا مقتضى النصيحة أن تدعو له بالخير والصلاح بالعافية بالهداية، حتى أن الفضيل بن عياض رحمه الله وهو من أئمة السلف قال كلمة عجيبة قال: «لو كانت لي دعوة مستجابة لم أجعلها إلا في إمام لأنه إذا صلح الإمام أمن البلاد والعباد»[١] لأن صلاح السلطان له وللناس، وهذا من فقه السلف رحمهم الله في هذا الباب.

قال: «**وغلَّظ في ذلك وأبدأ وأعاد فيه**» أي: تكرر عنه في هذا المعنى أحاديث كثيرة جدا ثبتت عنه عليه الصلاة والسلام، ومن يقرأ في «صحيح مسلم» «كتاب الإمارة» يجد عددا كبيرا من الأحاديث عنه صلوات الله وسلامه عليه كلها في التأكيد على هذا المعنى.

قال رحمه الله: «**وهذه الثلاث** -أي الخصال- **هي التي جمع بينها في ما صح عنه** صلى الله عليه وسلم **في الصحيحين**» هذه الثلاث أي: مخالفة المشركين في ما كانوا عليه من الشرك هذا الأول، وما كانوا عليه من التفرق هذا الثاني، وما كانوا عليه من عدم السمع والطاعة للأمير وهذا الثالث.

يقول المصنف: «**هذه الثلاث جمعها النبي** صلى الله عليه وسلم **في حديثه الثابت عنه في«الصحيح» أنه قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثا: ألا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه أمركم»**» جمع هذه الثلاث في حديث واحد، ولاحظ يا أخي الكريم أن هذه الأمور الثلاث بينها ارتباط وثيق.

الخصلة الأولى قال: «**أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»، وعندما يريد الناس

---

(١)

أن يعبدوا الله ﷻ في مجتمعات بأمن وإيمان وطمأنينة أيمكن أن تتحقق لهم هذه العبادة بدون اجتماع؟ أو لابد من الاجتماع حتى يأمنون على الدماء وعلى الأعراض فيتهيأ لهم الجلوس لطلب العلم والذهاب إلى أماكن العبادة والأمن على الأموال والأعراض إلى آخره، فهل يمكن أن ينتظم أمر العبادة بدون اجتماع؟! ولهذا قال: «**أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**».

ثم ذكر أمر مرتبط بذلك قال: «**وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**» لأنه إذا تفرق الناس وكثرت فيهم الفتن وعظم فيهم الهرج والقتل غفلوا عن العبادة ولم تتحقق لهم العبادة على وجهها وتمامها، لأن القلوب شُغلت بالفتن والقتال إلى آخره، ولهذا قال: «**وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**».

ثم ذكر الأمر الثالث مرتبط بما سبق قال: «**وأن تناصحوا من ولاه أمركم**» تناصحوا؛ أي: تكونوا ناصحين لمن ولاه الله أمركم، والنصيحة لولي الأمر: بالدعاء له، محبة الخير له، السمع والطاعة له، عدم نزع اليد من الطاعة، عدم شق الصف، عدم الخروج إلى آخره؛ فهذه أمور كلها منتظمة لا يمكن أن ينتظم أمر المسلمين إلا بها.

ولهذا صح عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْخَيْفِ مِنْ مِنًى فَقَالَ: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**»(١).

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣١)، وقال الألباني (صحيح لغيره) في «صحيح

فذكر هذه الأمور الثلاثة: الإخلاص لله، ولزوم الجماعة، ومناصحة من ولاه الله ﷻ أمر المسلمين.

ولاحظ قوله هنا: «**ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ**»؛ وهذا تنبيه لمفارقة المسلمين ما عليه أهل الجاهلية، «**لَا يُغِلُّ**» أي: لا يحمل غلًا بل يخلص لله وقلبه مرتاح لذلك مطمئن به، ويحافظ على الجماعة وهو مغتبط بها سعيد بها فرح بتحققِها، وأيضا يسمع ويطيع لولي الأمر بدون أَنَفَة وبدون كِبر مما كان عليه أهل الجاهلية، ولهذا قال: «**ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ**» أي: لا يحمل المسلم عليها غل بل نفسه لينه بها مطاوعة ممتثلة لأن بها سعادة المسلمين في دنياهم وآخراهم.

قال ﷺ منبهًا على أهمية هذه المسائل الثلاث المجتمعة في هذا الحديث: «**ولم يقع خلل في دين الناس ودنياهم إلا بسبب الإخلال بهذه الثلاث أو ببعضها**» عندما يُخل الناس بهذه الخصال الثلاث أو ببعضها فإنه يقع عليهم الخلل في دينهم ودنياهم، أما إذا حققوا العبودية لله والإخلاص له سبحانه واجتمعت كلمتهم وسمعوا وأطاعوا لولي أمرهم فإن مصالحهم الدينية والدنيوية تتحقق، وأما إذا أخلوا بهذه الثلاث أو ببعضها فإن مصالحهم الدينية والدنيوية تضيع، وإذا ضاعت مصلحة الدين تبعها ضياع مصلحة الدنيا.

التَّرغيب» (٤).

ولشيخنا العلَّامة عبد المحسن بن حمد العبَّاد البدر حفظه الله بحث قيِّم حول هذا الحديث بعنوان: «دراسة حديث نضَّر الله امرءا سمع مقالتي.. رواية ودراية» وهو ضمن «كتب ورسائل عبد المحسن بن حمد العبَّاد البدر»(٣/ ٢٩٧).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الرابعة: أن دينهم مبني على أصول أعظمها التقليد؛ فهو القاعدة الكبرى لجميع الكفار أولهم وآخرهم، كما قال تعالى:** ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ **[الزخرف: ٢٣]، وقال تعالى:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ **[لقمان: ٢١]، فأتاهم بقوله:** ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ **[سبأ٤٦]، وقوله** ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ **[الأعراف: ٣]».**

[الشرح]

ثم ذكر رحمه الله الخصلة الرابعة من خصال الجاهلية «**أن دينهم مبني على أصول أعظمها التقليد**» انتبه هنا أن دينهم أي: العقائد التي هم عليها والأديان التي يمارسونها ويعتنقونها مبنية على أصول أعظمها التقليد.

قوله رحمه الله: «**على أصول**» سيأتي ذكر بعضها، وبدأ بالتقليد لأنه أعظم أصل عندهم يبنون عليه أديانهم، والمراد بالتقليد: أي أخذ قول الغير بغير دليل؛ يأخذ القول على عواهنه بدون دليل وبدون معرفة حجة له ولا برهان، وإنما يأخذ قول الغير لأن الغير معظم عنده، إما معظم من جهة النسب كالوالد أو الجد أو نحو ذلك، أو معظم من جهة المكانة والمنزلة في المجتمع، فتجده يقلد الآباء

والأجداد ويقلد الأشياخ بدون معرفة الدليل، وإنما الذي يقولونه هو الحق ولا يبحث في دليله ولا ينظر فيه.

فأعظم أصل كانوا يبنون عليه أديانهم وعقائدهم هو التقليد، ولهذا اجتمعت كلمة المشركين من أول الزمان إلى آخره على الاحتجاج بهذا الأصل وتقديمه في باب الاحتجاج، ولهذا بدأ المصنف رحمه الله بهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ قوله تعالى: ﴿فِى قَرْيَةٍ﴾ نكرة، وقوله ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ أيضا نكرة؛ وهذا يُشعر بأنه عام لكل من كانوا قبلنا من أهل الشرك قبل مبعث نبينا عليه الصلاة والسلام كلهم كانوا على هذا السنن وعلى هذه الطريقة؛ إذا جاءهم نذير في مكانهم وفي قريتهم يدعوهم للحق والهدى لا يقبلون دعوته بحجة ماذا؟ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] هكذا يستدلون، استدلالهم تقليد الآباء كيف ما اتفق وعلى أي حال كانوا، ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي: على طريقة وعلى ملة وعلى ديانة، ونحن على طريقتهم لا نحيد عنها قيد أنملة ولا ننظر في كلامك ولا نلتفت إليه ولا نتفكر فيه ولا نسمع لك، فنحن وجدنا آباءنا على أمة ونحن ماضون على ما كان عليه الآباء؛ تقليد أعمى، أصبح الواحد منهم وقد أسلم عنقه ورقبته إلى هؤلاء يقودونه إلى ما هم عليه من ضلال، ولا يتفكر ولا يتدبر بل ولا يجرؤ أي الواحد منهم أن يقول للكبراء الذين عنده: ما الدليل؟ أو ما الحجة على العقيدة التي تعتقدونها؟

وهذه الجاهلية مكَّن لها بعض دعاة الباطل، ونحن عرفنا فيما سبق ما من

خصلة من خصال الجاهلية إلا وسيوجد في الأمة من يفعلها، مكَّن بعض دعاة الباطل وأئمة الضلال لهذه الخصلة التي هي التقليد الأعمى في نفوس العوام، ولهذا بعضهم يقولون -وانظر إلى هذه الجاهلية- «يجب أن تكون مع الشيخ كالميت مع المغسل» الميت الآن مع المغسل يقلِّبه تحت فوق إلى آخره ولا يفعل شيئا الميت، يقول أنت تكون مع الشيخ كالميت مع المغسل، صل شرق يصلي، غرب يصلي أي شيء يقول يفعل، وأيضا يعطونهم قاعدة في الباب يقول «لا تعترض فتنطرد» «لا تعترض على أي شيء يقوله الشيخ ولكن اسمع وأطع، وإياك أن تقول للشيخ لماذا أنتم تعتقدون كذا؟ ولماذا تفعلون كذا؟؛ هذه جاهلية تُغرس في نفوس الجهال والعوام ولهذا لا يتفكرون في حق ولا يتدبرون.

ولهذا بدأ المصنف ﵀ بالتنبيه على هذه الجاهلية حتى يحذر المسلم ألا يكون على هذه الجاهلية التي كان عليها أهل الباطل، بل ينبغي أن يتبين الحق وأن يتبصر، والحق أحق أن يُتبع، حتى لو مضيت على الباطل ستين سنة سبعين سنة ثم تبين لي الحق لا غضاضة، الرجوع إلى الحق خيرٌ من التمادي في الباطل.

قال ﵀: «**أن دينهم مبني على أصول أعظمها التقليد فهو القاعدة الكبرى لجميع الكفار أولهم وآخرهم**» وانتبه لقوله «**القاعدة الكبرى**» أي: التي يبنون عليها أديانهم.

ذكر أيضا قول الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: المشركين الكفار ﴿اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بماذا يحتجون؟ وبأي شيء يستدلون على عدم قبولهم ما أنزل الله؟ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾، ثم يذكر ما

يدل على بطلان ذلك يقول: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: لو كان الشيطان يدعو آبائكم إلى ما يؤدي بهم إلى السعير وإلى النار أيضا تمشون؟! أرأيتم شخصا لو كان أباه يمشي أمامه إلى حفرة سحيقة هل يغمض عينيه ويمشي وراءه ويلقي نفسه في الحفرة؟ أم يقول لأبيه إذا كان أمامه «انتبه هذه حفرة تهلكك لا تمضي فيها» يمنع والده أما هو في نفسه ممتنع، لكن هؤلاء والعياذ بالله تقليد أعمى وعندهم أنفة من أن يخرج الواحد منهم عن دين آبائه، حتى أن بعضهم قد عرف أن دين محمد ﷺ هو الدين الصحيح ولكنه لم يفارقه لأجل هذا التقليد الأعمى.

واعتبروا هنا بقصة أبي طالب عم النبي ﷺ، لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: «**أَيْ عَمِّ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**».

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَالاَ يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ**».

فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ وَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1].

«عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» نص على كلمة على ملة عبدالمطلب؛ لأن هذا أصل

(١) رواه البخاري (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤).

كبير متمكن في النفوس، مثل ما «قال الله تعالى» تماما، إذا قلت للمسلم: «قال الله تعالى» يعظم القرآن تعظيما بليغا يقول ليس لي كلمة مع قال الله تعالى، هذا أصل كبير يعتبر عندهم ولهذا ذكَّره بهذا الأصل الكبير دون غيره، قال: «عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» يعني على التقليد الذي نحن عليه للآباء والأجداد ما نتحرك عنه قيد أنملة، «**أَيْ عَمِّ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**».

فقالوا له: «تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟»، فمات والعياذ بالله وهو يقول: «عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، وحزن النبي ﷺ وقال: «**لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ**»، فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ [التوبة: ١١٣] وأنزل الله تسليةً لنبيه قوله سبحانه ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[القصص: ٥٦]، فهذه حجة مضى عليها أهل الشرك وهي كبرى حججهم وأعظم أصولهم التي يبنون عليها أديانهم وعقائدهم.

قال المصنف رحمه الله: «**فأتاهم** -أي النبي عليه الصلاة والسلام- **بقوله** ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾[سبأ٤٦]»

لأنهم قالوا فيما قالوا في شأن النبي عليه الصلاة والسلام إنه لمجنون، وقالوا كاهن، وقالوا ساحر، إلى آخر ذلك؛ فالنبي عليه الصلاة والسلام طلب منهم أن لا يستمعوا لهذه الكلمات هكذا بل يتفكروا.

ما وجه الشاهد من الآية لذم التقليد؟ المقلِّد يأخذ قول الآخر بدون دليل وبدون تفكر وبدون تدبر، أما الذي يتفكر ويتدبر وينظر في حقيقة الأمر تنكشف

له حقائق غير الذي قيلت له، أضرب مثلا جميلا؛ بل من أجمل ما يكون في هذا الباب؛ في «صحيح مسلم» حديث ابن عباس رضي الله عنه في قصة ضِماد الأزدي رضي الله عنه:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ ضِمَادًا، قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ، قَالَ فَلَقِيَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ**» قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَبَايَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَعَلَى قَوْمِكَ**»، قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي، قَالَ: فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً، فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ، فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئًا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً، فَقَالَ: رُدُّوهَا، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمُ ضِمَادٍ»[١].

فضماد الأزدي جاء إلى مكة في أول مبعث النبي عليه السلام فكان إذا مشى في طرقات مكة يسمعهم يقولون: «إن محمدا مجنون»، انتبه معي للآية ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾، وهم بينهم يروِّجون في الناس «محمد مجنون»، وكلما جاء شخص

---

(١) رواه مسلم (٨٦٨).

إلى مكة من الغرباء قالوا له: انتبه عندنا واحد اسمه محمد مجنون لا تقربه ولا تقترب منه، عقله مختل لا تأتي عنده ولا تسمع منه، فإذا أخذ قولهم هكذا كما قالوه قبله بدون دليل وبدون تفكر لن يقرب من محمد ﷺ أبدا ولا يسمع له، من الذي يريد أن يجالس مجنونا!! ومن الذي عنده وقت يذهب ويجالس مجنونا أو يسمع لمجنون!! فكانوا يضعون هذه الكلمات للصد، لكنه دخل مكة فكان يسمع الناس في الشوارع يقولون: «محمد مجنون» الكلمة فاشيه في مكة، الله أكبر! الآن في مكة تتردد «محمد رسول الله ﷺ»، وفي ذاك الوقت كان مكة يتردد فيها وفي أرجائها وفي شوارعها وبين الناس: «محمد مجنون» هذا الذي كان يتردد في طرقات مكة وفي شوارع مكة، وكل ما دخل واحد لا يسمع من الناس إلا هذه الكلمة، قال: «إِنِّي أَرْقِي» فكان يرقي؛ وبعض أهل الجاهلية كان عندهم الرقية، وفي الحديث الصحيح قال النبي ﷺ: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**»[1]، قال: «لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ» لسان حاله: لئن لقيت محمدًا لأقرأن عليه لعل الله يشفيه على يدي، فلما لقي النبي ﷺ عرض عليه أن يرقيه قال له: «يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟» يعني تريد أقرأ عليك لعل الله يشفيك من هذا الذي أنت فيه؟ فقال النبي ﷺ: «**إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**» فقال الرجل: أعد علي

---

(١) رواه مسلم (٢٢٠٠).

كلامك هذا، كلام عظيم جدا، كلام من أعظم الكلام وأفخمه وأجمله، هذه الكلمات جمعت الدين كله وجمعت الجمال كله، من أجمل الكلام وأبدعه، كلام من أقوى ما يكون، شيء آخر غير الدعايات التي تروَّج والتي تُبث، أعجبه الكلام غاية الإعجاب وشدَّه قال: «أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ» فأعاده النبي ﷺ فماذا قال ضماد؟ قال: «لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ.. هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الْإِسْلَامِ» فقال النبي ﷺ: «**وَعَلَى قَوْمِكَ**»، قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي كان سيدًا في قومه، فبايع النبي ﷺ على الإسلام عنه وعن قومه، أسلم هو وقومه.

الله ﷻ هنا يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أعمِل عقلك وفكر وانظر فيما يقال لك، أما أن يقول لك كلام هكذا بدون دليل وبدون حجة وبدون برهان تصدق كلمة!! أنا سأضرب مثالا لابد أن أضربه في هذا المقام، من باب الإنصاف والأمانة التي نبرئ بها الذمة أمام الله ﷻ.

أذكر مرة كنت في إحدى الدول فجمعني مجلس في سيارة مع رجل جميل في هندامه وفي هيئته ومظهره، ونحن في السيارة وأنا إلى جنبه التفت إلي وقال: أنت من أي البلاد؟ فعرفته بنفسي، فقال: في ضمن كلام له قال: «عندكم محمد بن عبد الوهاب هذا رجل يكره النبي ﷺ ويكره آل البيت» قلت: سبحان الله يكره النبي ويكره آل البيت!! قال: نعم، قلت: هذا كفر بالله ﷻ، أين وجدت هذا الكلام نسأل الله العافية، في أي كتاب من كتبه وجدت أنه يكره النبي ﷺ؟،

قلت له: محمد بن عبد الوهاب كما تعرف -ولا أدري هل يعرف ذلك أو لا- مات أكثر من مئة سنة وله كتب، في أي كتاب من كتبه وجدته يعلن كراهيته للنبي ﷺ ويعلن كراهيته لآل البيت؟ قال: موجود، قلت: أعطني الموجود... هذه كتبه موجودة حتى هنا عندكم، إذا تحب نجلس أنا وإياك نذهب ونقرأ في كتبه أرني هذا حتى أنا أرجع نذيرا للناس أحذرهم من هذا الرجل الذي يكره النبي ﷺ، «يا أخي وين هذا الكلام؟» بهذه الصفة أنا كنت أتحدث معه، قلت: أنا سأزيدك من الأمر، إذا أعطيتني من كتبه هذا الذي تذكره عنه أنا سأعطيك لقاء أتعابك وجهدك وتعاونك معي سأعطيك مبلغا كبيرا من المال، وكان معنا سائق السيارة وشخص آخر راكب كانا يسمعا الحوار الذي بيني وبينه، فالتفت إلينا سائق السيارة متفاعلا مع الحديث وقال: (اذهب معه واستخرج الكلام ويعطيك المبلغ)، قلت: له أعطني الشيء الذي تقوله من كتبه، فهل ترضى أني أنسب لك شيئا الآن وأنا ما رأيت وما عندي دليل عليه؟ قال: لا ما أرضى. قلت: كيف ترضى لهذا العالم والإمام أن تنسب له الكفر بالله ﷻ وأنت ما عندك دليل ولا برهان!! قلت: له يا أخي الشيخ محمد بن عبد الوهاب له ستة أولاد تدري ما أسماؤهم؟ قال: لا قلت: واحد اسمه الحسن، وواحد الحسين وعلي وإبراهيم وعبد الله وفاطمة كلهم بأسماء آل البيت، وواحد اسمه عبد العزيز ليس اسمًا من أسماء آل البيت[1]، والآن أنا سأنهي معك الحديث بكلمة

(١) قال شيخنا العلامة عبد المحسن العباد البدر حفظه الله: «ومن محاسن أهل السنَّة والجماعة محبَّتهم للصحابة والقرابة وتولِّيهم إيَّاهم والدعاء لهم، ومن محبَّتهم للصحابة والقرابة أنَّهم

واحدة، أنت ستقف أمام الله ﷻ بكلماتك هذه إذا لم تتب منها وستلقى الله ﷻ يوم القيامة ويكون خصمك هذا الرجل الذي تفتري عليه وتتقول عليه ما هو منه براء، وما يبرأ منه أقل مسلم فضلا عن إمام جليل من أئمة المسلمين، وأنا أزيدك من الأمر أنا ملتزم لك أن أُطلِعك في كتبه كلها تعظيم النبي ﷺ وتوقيره والذب عنه واحترامه ﷺ والذب عن سنته والذب عن آل بيته وبيان مكانة آل البيت وفضلهم إلى غير ذلك، هذا كله موجود في كتب الشيخ، فقال: عجيب!

فالشاهد أن بعض الناس عندهم تقليد أعمى، والتقليد الأعمى: هو قبول قول الغير بلا دليل، ويمشي في مثل هذا التقليد الأعمى والعياذ بالله ويمضي عليه ثم يموت والعياذ بالله وهو عدو للدين وعدو لأولياء الله ﷻ وعدو للصالحين من عباده.

الشاهد أن المصنف هنا قال: «**فأتاهم الله بقوله:** ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ

يُسمُّون بأسمائهم، وقد ذُكِر عن الحسن بن عرفة وابن دقيق العيد التسمية بأسماء العشرة المبشَّرين بالجنة، ذكر ذلك الحافظ أبو الحجاج المزي في تهذيب الكمال في ترجمة الحسن بن عرفة، وذكره محمد بن شاكر الكتبي في كتاب فوات الوفيات في ترجمة ابن دقيق العيد (٣/ ٤٤٣)، وللشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ستة من البنين وبنت واحدة، أسماؤهم: عبد الله، وإبراهيم، وعبد العزيز، وعلي، وحسن، وحسين، وفاطمة، وكلها من أسماء أهل بيته، إلاَّ عبد العزيز، فعبد الله وإبراهيم وفاطمة من أولاده ﷺ، وعلي ابن عمِّه وصهره، والحسن والحسين سبطاه.

وقد رزقني الله بنين وبنات، سمَّيتُ منهم بأسماء الخلفاء الراشدين الأربعة، وعبد الرحمن، وهم من العشرة المبشَّرين بالجنة، وباسم فاطمة والحسن والحسين، وبأسماء سبع من أمهّات المؤمنين» «أَغلُوٌّ في بعض القرابة وجفاء في الأنبياء والصحابة؟» (ص٢٢).

﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾»، فالشاهد من هذه الآية: أن الله دعاهم للتفكر، والتفكر أمر لا يقوم به المقلد التقليد الأعمى.

قال: «**وقوله**: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [**الأعراف: ٣**]»، الشاهد من هذه الآية: أن الله ﷻ أمر بإتباع المنزَّل منه ﷻ، وحذَّر من اتباع الأولياء من دونه الذين يدعون الناس إلى تقليدهم والأخذ عنهم بلا حجة ولا برهان.

هذه المسألة الرابعة من المسائل التي خالف النبي ﷺ فيها أهل الجاهلية، ومن نجاه الله ﷻ من مثل هذا التقليد الأعمى ولاسيما في مثل هذا الزمان لشيوخ الباطل وأئمة الضلال يوفقه الله ﷻ لكل خير.

ولعلي أختم الحديث بقصة أخرى مفيدة في بابنا ذكرها لي رجل من الجمهوريات الإسلامية التي أنحلت وخلصها الله ﷻ مما كان يسمى بالاتحاد السوفياتي؛ رأيت رجلا في تلك المناطق قال لي قصة عجيبة، قال: أول رجل عربي زارنا بعد الانفتاح رجل من بلاد كذا، سمى لي بلده ولا حاجة لي بذكر بلده، فألقى كلمة عندنا فالمسجد فألححتُ عليه أن يأتي عندنا بالبيت، يقول وكان قبل مجيئه كان وصلني كتاب جميل جدا للشيخ محمد بن عبد الوهاب كله آيات وأحاديث قرأته وأعجبني؛ آيات وأحاديث قال الله، قال رسوله ﷺ، يقول أعجبني الكتاب وقرأته كثيرا، يقول فجاء الرجل وجلس عندي وكان الكتاب بجنبه فلما رآه وقرأ اسم الشيخ رمى الكتاب بقوة في الأرض وقال كيف تدخل مثل هذا الكتاب؟ وذكر ألفاظ قبيحة له يقول: أنا هالني الأمر مع أني

قرأت الكتاب أكثر من مرة لم أر فيه إلا آيات وأحاديث، وتفكرت في الأمر قلت إذا كان هذا الكتاب في باطل فالباطل في الآيات والأحاديث لأن الكتاب ليس فيه إلا آيات وأحاديث، هكذا تفكرت في الأمر، ثم ذهبت إلى الكتاب وحملته برفق وأدب مع الكتاب مع كلام الله وكلام رسوله ﷺ ورجعت إلى الشيخ مرة ثانية وجلست بجنبه وقلت: أنا رجل ما عندي علم وأنت رجل عالم هذا الكتاب تفضل أقرأ الكتاب وأطلعني على بعض الباطل الذي فيه، أنت الآن تقول فيه باطل أطلعني حتى أستفيد وأحذر من الكتاب، يقول: أنا في قراره نفسي مطمئن لأنه لا يوجد فيه شيء مخالف لأنها آيات وأحاديث جمعها الشيخ ورتبها رحمه الله، وأنا مطمئن ما فيه خطأ، فمسك الرجل الكتاب وقلَّبه ينظر فيه من أوله إلى أن وصل صفحة الغلاف، ولما وصل إلى الغلاف قال الأمر يحتاج إلى دراسة الآن ما عندنا وقت، عرفت أن ما فيه، تفكر الرجل أما الذي يأخذ الكلام هكذا على عواهنه يضله أئمة الضلال الذين قال النبي ﷺ عنهم: «**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**»(١).

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٤)، والترمذي (٢٢٢٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٢).

[المتن]

قال المؤلف ﷺ:

«**المسألة الخامسة: أن من أكبر قواعدهم الاغترار بالأكثر، ويحتجون به على صحة الشيء، ويستدلون على بطلان الشيء بغربته وقلة أهله؛ فأتاهم بضد ذلك، وأوضحه في غير موضع من القرآن**».

[الشرح]

قال المصنف ﷺ: «**أن من أكبر قواعدهم الاغترار بالأكثر**»؛ هذه قاعدة تدل على جاهلية أولئك وعدم تفكرهم في الأمور وتبصرهم فيها وبحثهم عن الحق والهدى، وإنما يقيسون الأمور بمثل هذه الأقيسة الفاسدة التي يبنون عليها صحة الأمر الذي هم عليه.

فكانوا يبنون الباطل الذي هم عليه على التقليد الأعمى وأخذ قول الغير بغير دليل، وهنا يجعلون حجتهم ومستندهم على الباطل الذي هم عليه كثرة عددهم، ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] أي: من دلائل أننا على الحق وشواهد صحة ديننا وسلامة عقيدتنا أنّا أهل كثرة في المال والأولاد؛ قالوا كثرة أولادنا وكثرة أموالنا هذا دليل على أننا لا نعذب.

وهذا يكثر في احتجاج هؤلاء على باطلهم بكونهم أكثر عدداً أو أكثر مالاً أو أكثر ولداً أو نحو ذلك، ثم في الوقت نفسه يُعملون الدليل من جهة أخرى يقولون: إن الدليل على بطلان ما جاء به الأنبياء أن أعدادهم قلة وأن أتباعهم شرذمة قليلون، فقلة عدد من مع الأنبياء من الأتباع وكثرة عددهم هم يقولون

هذا دليل على أننا نحن على حق وليس الأنبياء ومن اتبعهم، قد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ**»[(١)] الذي هو دون العشرة، فقلة العدد عند الأنبياء وقلة الأتباع وكثرة عددهم هم جعلوا ذلك دليلا على صحة ما هم عليه ودليلاً على بطلان ما جاء به الأنبياء.

فهذا قياس باطل وجاهلية جهلاء كان عليها هؤلاء القوم؛ ولهذا قال المصنف رحمه الله مبيناً هذه الجاهلية قال: «**أن من أكبر قواعدهم**» منبهاً بذلك إلى أن هذه قاعدة كبيرة جداً عند القوم «**الاغترار بالكثرة**» يغترون بكثرة عددهم.

«**أن من أكبر قواعدهم الاغترار بالكثرة، ويحتجون به على صحة الشيء**»

وانتبه هنا إلى قوله رحمه الله: «**ويحتجون به على صحة الشيء**»، فمثلاً إذا قيل لهم: ما الدليل على صحة عبادتكم للأصنام؟ وعلى بطلان التوحيد الذي تدعو إليه الأنبياء؟ يقولون: أكثر الناس على هذا الشيء الذي نحن عليه، وأكثر الناس على هذا الأمر، وأقل الناس هم الذين اتبعوا الأنبياء؛ فيجعلون دليل صحة ما هم عليه كثرة الناس!! أرأيتم لو كانت كثرة الناس اجتمعت على انتهاب أموال الناس بالباطل، على الفواحش، على الرذائل إلى آخر ذلك.. أيكون ذلك دليلاً على صحة هذه الأشياء؛ لولا فساد القوم وفساد عقولهم؟! يجعلون مقياس صحة الأمر وسلامته واستقامته كثرة من عليه.

وهذا الأمر جاهلية، ولا تزال توجد كما أخبرنا النبي عليه الصلاة والسلام: «**لتتَّبعنَّ سَنَنَ من كان**

(١) رواه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠).

قبلكم»، الآن يستدل بعض الناس على صحة مثلاً جماعته أو حزبه أو نحو ذلك بكثرة الأصوات وكثرة الناخبين فيقول: هذا دليل على صحة ما نحن عليه وأننا نحن الأحق والأولى والأجدر، أو يقال مثلا: الرأي العام يدل على كذا، الرأي العام قد يكون أصحاب الرأي أو الغلبة جهلاء وسفهاء ولا يعرفون الحق ولا الهدى، فكيف يُجعل كثرة العدد دليلًا على صحة الأمر واستقامته وسلامته؟! وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]؛ فهل هذا دليل على أن الأكثر وهم الكفور لله تبارك وتعالى هم الذين على الحق؟! في ﴿سورة الشعراء﴾ ذكر الله سبحانه وتعالى قَصَصَ عدد من الأنبياء وكان يذكر في خاتمة كل قصة في ثمانية مواضع تقريبا يذكر جل وعلا قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨] أي: أكثرهم كافرين مشركين بالله، وقال جل وعلا في ﴿سورة يوسف﴾: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، وقال: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة، فالكثرة ولو كانت متكاثرة جداً وعدداً عظيما ليست دليلاً على صحة الإنسان أو صحة عقيدته أو صحة مذهبه أو صحة وجهته، هذه ليست مقياسًا، والأصوات أيضًا ليست مقياسًا، قد يكون أكثر المصوِّتين سفهاء وجهلاء ولا يتبصرون في حقائق الأمور ولا يعون، فالكثرة ليست مقياسًا على صحة الأمر وسلامته واستقامته.

قال: «**ويستدلون على بطلان الشيء بغربته وقلة أهله**» يجعلون هذا دليلا على بطلان الشيء، يقولون: من الأدلة بطلان ما جاء به الأنبياء أنه أشياء غريبة

ليست موجودة، أو أعداد أتباع الأنبياء قليلون فهذا دليل على أن الأمر الذي عليه الأنبياء أمر باطل، قد قال ﷺ: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»(١)، وانتبه هنا إذا عاد الإسلام غريباً كيف تتحول حال كثير من الناس بسبب غلبة الجهل عليهم وقلة العلم إلى تعظيم ما يخالف دين الأنبياء وما يدعو إليه الأنبياء بحجة أن أكثر الناس على ذلك؛ وهذا نوع من غربة الدين ونوع من مشابهة أهل الجاهلية في هذه الخَصلة التي نبهه عليها المصنف رحمه الله.

قال: «**فأتاهم بضدِّ ذلك وأوضحه في غير موضع من القرآن**» يشير رحمه الله إلى الآيات الكثيرة التي فيها بيان الله سبحانه وتعالى إلى أن أكثر الناس على الباطل، وأقلهم هم الذين على الحق وعلى الشكر لله عز وجل وعلى الإقامة لتوحيده جل وعلا؛ مما يدل دلالةً واضحة إلى أن الكثرة ليست مقياساً لصحة الأمر الذي يعتقده الإنسان.

(١) رواه مسلم (١٤٥).

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة السادسة: الاحتجاج بالمتقدمين؛ كقوله** ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]، **وقوله** ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]».

[الشرح]

السادسة من مسائل الجاهلية: «**الاحتجاج بالمتقدمين**»؛ أي: يحتجون على ما هم عليه من باطل، أو يحتجون أيضا على إبطال ما جاء به الأنبياء بالمتقدمين، كأن يقولوا مثلاً هذا الذي دعوتَ عليه لا نعرفه نحن ولا يعرفه آبائنا ولا أجدادنا، فيحتجون بالمتقدمين، أو يحتجون أيضا بالمتقدمين على الممارسات الخاطئة التي هم عليها يقولون: هذا الذي نعمله نحن فعَلَه آباؤنا من قبل وفعله آباؤهم وآباء آبائهم، كلهم كانوا يفعلون ذلك فمعنى ذلك كلنا على باطل وأنت وحدك على حق؟! والنفر الثلاثة أو الأربعة الذين معك أنتم الذين على حق؟! ونحن وآباؤنا وأجدادنا كل هؤلاء على باطل!! كل هذه الأمم على باطل وأنت وحدك على حق!! فيحتجون على باطلهم بالمتقدمين.

وهذا يكثر في احتجاج مشركين أهل الباطل في قديم الزمان وحديثه؛ ولهذا أورد رحمه الله ما ذكره الله سبحانه وتعالى عن فرعون في محاجته لموسى عليه السلام، لما ذكر له موسى الآيات البينات والشواهد الواضحات على وجوب عبادة الله عز وجل وإخلاص الدين له وبطلان الشرك الذي عليه هؤلاء؛ قال له فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ

ﭐلۡأُولَىٰ ﴾ [طه: ٥١] أي: فما شأن القرون الأولى الماضية؟ كلهم مضوا على ما نحن عليه، فهل هذا الذي عليه هؤلاء القرون الأولى باطل، والذي أنت عليه وحدك هو الحق؟! ما بال القرون الأولى؟! هكذا أورد فرعون هذا الكلام في سياق المحاجة بينه وبين موسى ﵇ محتجاً بالقرون الأولى، ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾.

وأورد أيضا ﵀ قول أهل الشرك والباطل: ﴿ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٤]؛ يعني هذا الذي تدعونا إليه ما سبق أن سمعناه لا من الآباء ولا من الأجداد ولا من الأولين فينا ما سمعنا هذا؛ مستدلين بذلك على بطلان الأمر.

وهذه الجاهلية موجودة في بعض الناس، بعض الناس يذكر له سنة صحيحة ثابتة وعقيدة واضحة عليها الدليل البين فيرفضها لا يقبلها، وإذا قيل له لماذا؟ قال: ما سمعنا بهذا لا في آبائنا ولا في أجدادنا ولا..؛ فيجعل عدم سماعه في ذلك أو عدم وجود لهذا الأمر دليلاً على بطلانه، فهذه جاهلية، يجب على المسلم أن يتفكر وأن يتدبر وأن يتبع الحق أينما وجده وأن يأخذ به إذا ظفر به.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة السابعة: الاستدلال بقوم أعطوا قوى في الأفهام والأعمال وفي الملك والمال والجاه؛ فرد الله ذلك بقوله:** ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، **وقوله:** ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، **وقوله:** ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]».

[الشرح]

ثم ذكر هذه المسألة السابعة من مسائل الجاهلية: «**الاستدلال بقوم أُعطوا قوى في الأفهام والأعمال وفي الملك والمال والجاه**» يستدلون -أي على صحة ما هم عليه- بقوم أعطوا قوى في الأفهام والأعمال أو في الملك والمال والجاه، إذا قيل لأحد ما الدليل على صحة هذه العقيدة التي أنت عليها؟ قال فلان ويشير إلى أحد البارزين في الفهم مثلاً وفي الذكاء، أو أحد أصحاب الأموال الطائلة أو أصحاب الرئاسات والزعامات؛ يقول معنا فلان، بعضهم يقول في مقام الاستدلال: لو لم يكن معنا إلا فلان لكفى؛ هذا حجة قاسمة لو لم يكن معنا إلا فلان هذا واحد وهو كاف فكيف ومعنا فلان وفلان وفلان!! فهذا دليل واضح قاطع حاسم أن الذي نحن عليه هو الحق، ويشير إلى أحد أصحاب الأموال الطائلة مثلاً أو أصحاب الرئاسات، أو أصحاب الذكاء ممن لهم خبرة ودراية بأمور الدنيا، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]، فيشير مثلاً إلى

أحد أهل الفهم والذكاء في أمور الدنيا يقول نحن معنا فلان يقول هل تشك في ذكائه؟ هل تشك في فهم فلان؟ هل تشك في رجاحة عقله؟! معنا هو فيجعلون هذا دليل على صحة الأمر الذي هم عليه، وهذا نوع من الجاهلية التي كان عليها أولئك.

قال: «**الاستدلال بقوم أُعطوا قوى في الأفهام والأعمال وفي الملك والمال والجاه؛ فردَّ الله ذلك**» أي: رد الله عليهم هذا الاستدلال وهذا الاحتجاج بأن الذكاء والفطنة والرئاسة والمال وكثرة الأموال والأولاد هذا ليس دليلاً على صحة الأمر، ومن ذلكم قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦] عندهم سمع، وعندهم بصر، وعندهم أفئدة، وكانوا أذكياء في أمور الدنيا وعلى معرفة وخبرة ودراية بهذه الأمور، وأيضًا أعطاهم الله ﷻ تمكين، مكَّن لهم، لكن ما أغنت عنهم، قوله تعالى ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فهذا فيه إبطال لمن يستدل على صحة ما هو عليه بقومٍ لهم أفهام أو لهم أعمال -يعني مثلاً منتجات أو خبرات أو أشياء تتعلق بمصالح الدنيا- أو أيضًا لهم ملك أو مال أو جاه، فبين الله ﷻ بهذا السياق أن وجود هذه الأشياء ليست دليلاً ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

قال: «**وقوله تعالى:** ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾[البقرة: ٨٩] **وقوله تعالى:** ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ

﴿أَبۡنَآءَهُمۡ﴾[البقرة: ١٤٦]»؛ الآية الأولى ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ﴾[الأحقاف: ٢٦] هذه تتعلق بالمشركين والآيتين الأخريين تتعلق بأهل الكتاب، وأنتم تعلمون أن المصنف يسوق الجاهليات الموجودة عند المشركين وعند أهل الكتاب.

فالشاهد هنا أنَّ الآية: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾، وقوله: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾هذا دليل على أن أهل الكتاب كان عندهم علم، ومن العلم الذي كان عندهم -وانتبهوا هنا- معرفتهم بصحة الرسول ﷺ وصحة ما جاء به، حتى قبل مبعثه كانوا على علم أنه سيبعث وأنه على حق؛ هذا العلم الذي كان عندهم والمعرفة التي وجدت عندهم قبل مبعثه، حتى إن درجة علمهم بصحة ما هو عليه بلغت هذا المبلغ الذي ذكره الله قال: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾، مثل ما يعرف الرجل ابنه يعرفونه؛ إذاً العلم موجود، الفهم موجود، الذكاء موجود، لكن هل استجابوا له؟ لم يستجيبوا إلا من منَّ الله عليه بالهداية منهم، وإلا لم يستجيبوا مع وجود هذا المعرفة.

فإذاً وجود الذكاء أو المعرفة أو الدراية بالأمور، أو التمكين أو المال أو الجاه أو نحو ذلك هذا ليس دليلاً على صحة حال الإنسان ومذهبه؛ فهؤلاء اليهود كانوا على معرفة بمبعث النبي ﷺ، وكانوا يستفتحون به ﷺ على الذين كفروا أي: على المشركين قبل أن يبعث يقولون سيبعث رجل اسمه كذا، صفته كذا، يستفتحون به ﷺ على الذين كفروا، ولما بُعث كانوا يعرفونه معرفة جيدة كما يعرفون أبنائهم، لكن هذه المعرفة لم يستفيدوا منها بالإيمان به وتصديق ما

جاء به صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا من الناس كما قيل: (من يؤتى ذكاءً ولا يؤتى زكاءً)، و(يؤتى فهمًا ولا يؤتى علمًا)، يكون عنده فهم وعنده ذكاء لكن لا يؤتى زكاء، ولا يؤتى الزكاء إلا من منَّ الله ﷻ عليه بذلك ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾[النور: ٢١].

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثامنة: الاستدلال على بطلان الشيء بأنه لم يتبعه إلا الضعفاء، كقوله:** ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، **وقوله:** ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾[الأنعام: ٥٣]؛ **فرد الله بقوله:** ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]».

[الشرح]

هذه أيضًا من مسائل الجاهلية: «**الاستدلال على بطلان الشيء بأنه لم يتّبعه إلا الضعفاء**» أي: الضعفاء من الناس في الأجسام وفي الأموال؛ يقولونك هذا دليل على بطلان ما يدعو إليه: أن أتباعه ضعفاء، وأنهم عدد من الضعفاء وقلة من الضعفاء وشرذمة من الضعفاء هذا دليل على بطلان ما يدعو إليه.

قال: «**كقوله** ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ لا يمكن! لم يتّبعك إلا الأرذلون من الناس؛ أنتّبعك والحالة هذه؟! فجعلوا كونَ أتباعه الأرذلون أي: قلة من الضعفاء دليلاً على بطلان ما يدعو إليه، وجعلوه مانعًا لهم من قبول ما يدعوا إليه، قالوا:: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾.

«**وقوله:** ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾» أي: ونحن الكثرة الكاثرة وهؤلاء القلة منَّ الله عليهم؟! أي: هداهم للحق وبصَّرهم به وصرفنا عنه.

قال: «**فرد الله عليهم بقوله** ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾»؛ فالله جل وعلا بصير

وحكيم وعليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يختص برحمته من يشاء ويمنُّ جَلَّ وَعَلَا بفضله على من يشاء، وهو حكيمٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يفعل شيئا إلا لحكمة، فردَّ الله سبحانه عليهم باطلهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة التاسعة: الاقتداء بفسقة العلماء والعباد؛ فأتى بقوله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[**التوبة: ٣٤**]، **وبقوله:** ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [**المائدة: ٧٧**]».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**التاسعة: الاقتداء بفسقة العلماء والعُبَّاد**»؛ أي: من فسق من العلماء والعباد، أُشتُهر بعلم أو أُشتُهر أيضًا بعبادة ثم وقع في فسق قلَّ أو كثر؛ فمن الجاهلية الاستدلال بمن فسق من العلماء والعُبَّاد يستدلون بفعله على صحة الأمر، وهذا كثير في الناس في قديم الزمان وحديثه؛ يستدلون على صحة الأمر بمن فسق من العلماء والعباد، والله جل وعلا رد هذا الاستدلال.

قال: «**فأتى بقوله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾» فليس دليلًا احتجاج الإنسان على معصية من المعاصي أو إثم من الآثام أو منكرٍ من المنكرات بِكون العالم الفلاني يفعله أو بِكون العابد الفلاني يمارسه؛ هذا لا يعدُّ دليلًا، ومَن الذي قال إن العالم معصوم أو العابد معصوما؟، فليس مسوِّغًا كون

العابد أو العالم يقع بخطأٍ من الأخطاء أو تجرُّه نفسه أو يضعف فيقع في خطأٍ من الأخطاء أو زلة من الزلات فيُجعل ذلك دليلاً على صحة ذلك الأمر.

قال: «**وبقوله**: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾»؛ الشاهد من ذلك: أن الاحتجاج بالعلماء أو العُبَّاد من فسق منهم ووقع في المعاصي والمنكرات وجعلُ ذلك دليلاً على صحة هذه المعصية بكون العالم الفلاني يفعلها أو العابد الفلاني يفعلها هذا من الجاهلية، العالم قد يذنب وأيضًا العابد قد يذنب، وإذا أذنب لا يُجعل وقوعه في الذنب دليلا على صحة الأمر.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة العاشرة: الاستدلال على بطلان الدين بقلة أفهام أهله وعدم حفظهم، كقولهم** ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧]».

[الشرح]

هذه المسألة العاشرة وهي: «**الاستدلال على بطلان الدين**» أي: الدين الصحيح الذي بعث به الأنبياء «**بقلة أفهام أهله وعدم حفظهم**» يقولون: هؤلاء عقولهم ساذجة، أفهامهم قاصرة، رأيهم هو الرأي الذي يبدو لأول الأمر، ليس عندهم عمق في الرأي وتبصُّر في الأمور وإنما يأخذون بالشيء الذي يلوح من أول مرة دون أن يتبصروا بالأمور ويتحققوا من الأشياء؛ فيجعلون هذا دليلاً على بطلان الحق بأن أفهام أهله ضعيفة وحفظهم ضعيف وقليل، ويقولون هذا دليل على بطلان الحق الذي يدعو إليه الأنبياء، وهذا كله أشياء يقولها هؤلاء يردون بها الحق ويسوغون بها الباطل.

وعندما يتحدثون هنا عن الأفهام يتحدثون عن أفهام بلغوا بها مبالغ من أمور الدنيا كما نبهه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]، وهؤلاء عندما يتحدثون عن الأفهام لا ينصرف حديثهم إلا عن الفهم في أمور الدنيا، فإذا منَّ الله عز وجل على رجل ضعيف في أمور الدنيا ولا يضبطها ولا يعتني

بها ولم تأخذ اهتمامه ثم أكرمه الله ﷻ وهداه إلى الدين الصحيح يجعل أولئك مثل هذا دليلا على بطلان ما جاء به الأنبياء؛ وأن أتباع الأنبياء أصحاب الرأي القاصر الذي يؤخذ عندما يلوح أول مرة فيجعلون ذلك دليلاً لهم يستدلون به على بطلان الدين الصحيح.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الحادية عشرة: الاستدلال بالقياس الفاسد كقولهم:** ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]».

[الشرح]

أيضا من الأدلة التي يستعملونها وهي تدل على جاهليتهم: «**الاستلال بالقياس الفاسد**»؛ يأتون بأقيسة فاسدة يردون بها الحق، ومثَّل لذلك المصنف بقولهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ أي: مثلنا لكم اليد والسمع والبصر، نحن وإياكم سواء فما الذي ميَّزكم؟! ما الذي جعلكم أنبياء ونحن لسنا أنبياء؟! أو جعلكم أهل الحق ونحن لسنا بأهل الحق؟! فهذا قياس فاسد، لأن الأنبياء بشر ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ لكن الله عز وجل أكرمهم ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] أكرمهم الله بالوحي، والله سبحانه وتعالى يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، فهم بشر مثل البشر لكن الله عز وجل أكرمهم ومنَّ عليهم بالرسالة وتمام العبودية لله جل وعلا.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثانية عشرة: إنكارُ القياسِ الصحيح، والجامع لهذا وما قبله عدم فهم الجامع والفارق**».

[الشرح]

قال رحمه الله: «إنكار القياس الصحيح» أي: من ضمن جاهلية هؤلاء أنهم ينكرون الأقيسة الصحيحة؛ وهي البراهين والحجج الواضحات التي تدل على كمال الحق وصحته وسلامته يردُّونها ولا يقبلونها، وبالمقابل يستخدمون أقيسة فاسدة يحتجون بها ويردون بها الحق، فمثلا: الآن عندما استعملوا القياس الفاسد الماضي بعدم صحة ما جاء به الأنبياء قالوا ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، لو جئت إلى هذا القياس وعكسته عليهم في أمور يسلِّمون بها، مثل تميّز شخص عليهم بكثرة الأولاد مثلاً أو تميّز شخص عليهم بملكٍ أو جاهٍ، فيقال: أتُقرُّون لفلان بكثرة الأولاد وتقرون له بجاهه ومكانته ومنزلته في الناس؟ يقولون: نعم، يقال: لم تقرُّون له بهذه الأمور التي خُصَّ بها ومُيِّز بها وأنتم بشر مثله؟! ما الذي ميّزه عليكم؟! فيُقلب عليهم نفس القياس الذي استدلوا به؛ فكونهم بشر لا يعني أنهم متساوون وليس بينهم تمايز، البشر كلٌّ يدرك تمايزهم وتفاضلهم، والله عز وجل يمنّ على من يشاء بالعقل والفهم والذكاء والزكاء والصلاح والاستقامة؛ هي منن الله عز وجل وهباته وعطياته، ومن ذلك منَّته على من يشاء من عباده بالنبوة والرسالة

يجتبي من يشاء ويصطفي من يشاء ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾[القصص: ٦٨] له ﷻ الأمر من قبل ومن بعد.

قال: «**إنكار القياس الصحيح، والجامع لهذا وما قبله عدم فهم الجامع والفارق**» يعني سبب الخلل في الأمرين أي: في استعمال القياس الفاسد أو إنكار القياس الصحيح عدم فهم الجامع والفارق، لاحظ الآن في مسألتنا هذه وقد ذكرت لكم الدليل السابق لهم أو القياس الفاسد لهم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ وعكسه، أردت بذكر عكسه حتى ننتبه للمسألة التي يشير إليها الشيخ «**عدم فهم الجامع والفارق**» الجامع: البشرية، الفارق: أمور كثيرة، فيجعلون الجامع وهو البشرية دليلاً على إنكار النبوة، إذا كنتم تجعلون كون الجامع البشرية دليلاً على إنكار النبوة من لازم ذلك أن تنكروا أمور كثيرة أنتم تسلّمون بها فيها تمايز بين الناس، من ضمن ذلك ما أشرت إليه: كثرة الأولاد مثلا، أو مثلا كثرة الأموال الملك أو الرئاسات أو غير ذلك، الجامع في هؤلاء البشرية فما الذي ميزهم؟ يقال لهم، إذًا كون هؤلاء يُعملون الأقيسة الفاسدة وينكرون الأقيسة الصحيحة السبب في ذلك كما يقول المصنف: «الجامع لهذا» أي: إنكار الصحيح «وما قبله» استعمال القياس الفاسد «عدم فهم الجامع والفارق» ومن هنا وجد في القوم الخلل.

[المتن]

قال المؤلف ﵀:

«المسألة الثالثة عشرة: الغلو في العلماء والصالحين كقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾[النساء: ١٧١]».

[الشرح]

هذه المسألة الثالثة عشرة من مسائل الجاهلية التي جاء الاسلام بمخالفتها والتحذير منها؛ الغلو في العلماء والصالحين.

الغلو: هو تجاوز الحد وتعديه في حق أهل العلم وفي حق أهل الصلاح من العبَّاد، وتجاوز الحد بهؤلاء بأن يعطَوا من الخصائص والصفات ما ليس للعباد، وأن يُنزل العبد فوق منزلته، ولهذا صح في الحديث عن نبينا ﷺ أنه قال: «وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ ﷻ»[١]، فالعبد إذا رُفع فوق منزلته وأُعطي من خصائص الرب وصفاته فهذا غلوٌ باطل مهلكٌ لصاحبه، كما قال ﵊: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ»[٢].

والغلو في العلماء والصالحين: يكون من جهة إعطائهم البعض من خصائص الله تبارك تعالى؛ كالتصرف والتدبير ونحو ذلك، أو إعطائهم البعض من صفات

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٢٥٥١)، وصحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٠٩٧).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٠٢٩)، والنسائي (٣٠٥٧)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٤٥٥).

الله ﷻ؛ كالعلم بما كان وما سيكون والاطلاع على ما في الصدور، أو بصرف شيء من العبادة لهم؛ كدعائهم والاستغاثة بهم والتوكل عليهم ونحو ذلك من العبادات، فهذا كله غلو باطل. و يدخل أيضًا في الغلو: الإطراء والزيادة في المدح، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه سَمِعَ عُمَرَ رضي الله عنه يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»[(١)].

فحذَّر رحمه الله تبارك وتعالى من هذه الخصلة التي كانت فيمن قبلنا وأخبر نبينا عليه الصلاة والسلام أنها كانت سبب هلكتهم، وساق رحمه الله آية واحدة من كتاب الله ﷻ في التحذير من الغلو وهي قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾[النساء: ١٧١]، والشاهد من الآية: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾؛ وهذا عام يتناول كل صورة من صور الغلو في الدين، ومن ذلكم الغلو في العلماء والعبَّاد.

وهذا الأمر الذي حذَّر منه ربنا ﷻ في القرآن الكريم وحذَّر منه النبي ﷺ في سنته الصحيحة وُجد في أمة محمد ﷺ من فعله؛ تحقيقًا لما ورد في قوله عليه الصلاة والسلام: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**»[(٢)]، وُجد من حصل منه الغلو سواء في العلماء أو في العبَّاد والأولياء والصالحين من عباد الله، وأصبح يُعتقد في هؤلاء ويُعطون من الصفات

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥).

(٢) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

والخصائص ما لا يكون إلا لله ﷻ، ومن يطالع كتب المبتلين بالقبورية والضلال يراها طافحة بهذا الذي حذَّر منه النبي صلوات الله وسلامه عليه.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الرابعة عشرة: أن كل ما تقدم مبنيٌ على قاعدة وهي: النفي والإثبات؛ فيتبعون الهوى والظن ويعرضون عن ما جاءت به الرسل**».

[الشرح]

ثم ذكر رحمه الله المسالة الرابعة عشرة وهي: أن كل ما تقدم أي: من أنواع الاستدلالات التي كان عليها هؤلاء وأنواع العقائد والمذاهب التي كانوا عليها، يقول: «**كل ما تقدم مبني على قاعدة وهي النفي والإثبات**»؛ والمراد بالنفي: أي نفي الحق وردُّه كيفما اتفق بأي طريقةٍ كانت، والإثبات: إثبات الباطل بأوهى الحجج وبما لا حجة فيه ولا برهان، فكل ما تقدم مبني على النفي والإثبات، أي: أن القوم ماضون على عقائد باطلة وأديان فاسدة لا يفكرون ولا يعتبرون ولا يتفكرون ولا يتعظون، فيعتقدون أن الحق هو هذا الذي هم عليه، وما سواه ينفونه هكذا بلا حجة ولا برهان، فهُم كل ما تقدم مبني على النفي والإثبات بمعنى: أن القوم على عقائد من أفسد ما يكون لكن طريقتهم في الاحتجاج والاستدلال: نفي الحق كيفما اتفق، وإثبات الباطل بأي طريقة كانت؛ هذه طريقة هؤلاء في الاحتجاج.

قال: «**فيتّبعون الهوى والظن**» وهذه طريقتهم في الإثبات، «**ويعرضون عن ما جاءت به الرسل**» وهذه طريقتهم في النفي؛ الإثبات الذي عندهم قائم على الهوى والظن، والنفي الذي عندهم قائم على الإعراض عما جاءت به الرسل،

معرضٌ عنه وينفيه هكذا بدون أن يسمع، يقول: هذا الذي جاءت به الرسل هو باطل، هل سمعت الدليل؟ هل وقفت على الحجج؟ هل رأيت البراهين؟ فينفي كل ما جاءت به الرسل ويعتقد أنه باطل، ويرى أن الذي جاء به أو الذي عنده أو الذي يعتقده هو الحق وليس عنده عليه أي حجة أو برهان! فهذه طريقة جاهلية كان عليها أهل الجاهلية وجاء الإسلام بالتحذير من هذا المسلك الوخيم.

قال: «**فيتبعون الهوى والظن**» وذلك كما في قوله ﷻ بعد أن بين بطلان عبادة الأصنام اللات والعزى ومناة قال ﷻ في ذلك السياق: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]؛ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ هذه كما قدمت هي طريقتهم في الاحتجاج والاستدلال؛ اتباع الظن وما تهواه النفس، والعلماء يقولون: اتباع الباطل يكون إما عن علمٍ من متبع الباطل أو عن جهل؛ فإن كان عن علم فهو اتباع للهوى، وإن كان عن جهل فهو اتباع للظن، ولهذا قال ﷻ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾؛ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: في الأمور التي لا يعلمونها، ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي: في الأمور التي يعلمون أن ما هم عليه باطل، فهم أهل اتباع للهوى، ولهذا قال ﷻ في آية أخرى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠]، إذا كانوا غير مستجيبين لك فهم متبعين للهوى، إذا كان يسمع الحق ويرى الحجج والبينات ولا يستجيب هذا متبع للهوى.

فإذاً هذه طريقة هؤلاء في الاستدلال، وفي الوقت نفسه إعراضٌ تام عن الهدى وعدم قبولٍ له، ولهذا قال رحمه الله: «**فيتبعون الهوى والظن ويعرضون عما جاءت به**

الرسل» ويحاولون أيضًا سد باب السماع لما جاءت به الرسل بأي طريقة كانت، ولهذا كثر وصفهم للنبي ﷺ بالصفات المنفرة؛ قالوا ساحر، قالوا كاهن، قالوا مجنون، إلى آخر ذلك؛ لأنهم أرادوا ألا يسمع أحد من الناس لكلام الرسول ﷺ ولما جاء به من الحق والهدى.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الخامسة عشرة: اعتذارهم عن اتباع ما آتاهم الله بعدم الفهم؛ كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾[البقرة: ٨٨]، وقوله: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾[هود: ٩١]؛ فأكذبهم الله وبين أن ذلك بسبب الطبع على قلوبهم وأن الطبع بسبب كفرهم**».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**المسألة الخامسة عشرة: اعتذارهم عن ما آتاهم الله بعدم الفهم**» هذا مسلك من المسالك التي يجيبون بها عندما يعلنون عدم استجابتهم لما جاءت به الرسل من الحجج البينات والدلائل الواضحات على وجوب إخلاص الدين لله تبارك وتعالى، فيقولون: لا نفهم، من الأشياء التي يسلكونها يقولون لا نفهم هذا كلام غير واضح لم نفهمه، هذا كلام غامض غير واضح لا نفهم هذا الكلام، يقولون ذلك لرد ما جاءت به الرسل معتذرين بأن هذا الذي جاءت به الرسل بزعمهم غير واضح ولا بيِّن، مع أن ما جاءت به الرسل أوضح الواضحات وأبين البينات، جاءُوا بالبراهين الواضحة والحجج الساطعة التي فيها الضياء والنور وفيها الحق والهدى، لكن هذه من أنواع المغالطات والدعاوى الزائفة التي يدَّعيها هؤلاء في ردهم للحق والهدى الذي جاءت رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه.

يقولون في رد ما أتت به الرسل: أننا لا نفهم هذا الكلام، ويقولون: ﴿قُلُوبُنَا

غُلۡفُۢ﴾، والقلوب الغلف: هي التي عليها أغلفة، بحيث لا ينفذ إليها الحق ولا يصل إليها مغلقة؛ هذا هو القلب الأغلف الذي عليه غلاف عليه غطاء ولا يمكن أن يصل إليه حقٌ أو هدى للغطاء الذي على قلبه، ولهذا لما تأتيهم الدعوات والحجج والبينات يقولون: ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾أي: قلبنا عليه غلاف، كل هذا الشيء الذي تقولونه وتدعوننا إليه ما ينفذ إلى قلوبنا لأن على قلوبنا أغلفة تحجب سماعنا لهذا الحق؛ هكذا يقولون.

وأيضًا يقولون هذه الكلمة بعبارات مختلفة تؤدي إلى مؤدى واحد؛ مثل ما قال قوم شعيب: ﴿يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ ﴿يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾، قالوا هذه الكلمة مشعرين بأنهم غير مستجيبين مدَّعين أنهم لم يفقهوا كلامه ولم يتضح لهم مراده، مع أن عناية الرسل بإيضاح الكلام وبيانه وتجليته للناس كانت أعظم عناية، ومن دعاء نبي الله موسى عليه السلام قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه: ٢٥-٢٨] كانوا على عناية تامة عظيمة ببيان القول وإيضاحه حتى يكون واضحًا يُفقه ويُفهم، قد بينوا البيان المبين، وأقاموا الحجج، وأوضحوا دين الله تبارك وتعالى تمام الإيضاح، لكن هؤلاء معرضين عن الحق.

يقول المصنف رحمه الله: «**فأكذبهم الله**» أي: بيّن كذبهم في قولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾.

قال: «**فأكذبهم الله وبيّن أن ذلك بسبب الطبع على قلوبهم، وأن الطبع بسبب كفرهم**» بيّن تبارك وتعالى أن ذلك بسبب الطبع على قلوبهم، والطبع على القلوب له سبب وهو: كفرهم وإعراضهم عن الحق؛ ولهذا قال جل وعلا في قولهم: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا

﴿غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾ [النساء: ١٥٥]، وسبب الطبع على القلوب: هو كفرهم بالله ﷻ، ولهذا استمراء الكفر واستمرار الإنسان عليه يؤدي إلى الطبع على القلب، ويصبح القلب مغلقا كالقلب الذي عليه غلاف وأحاطت به أغشية؛ فلا يسمع حقًا ولا يهتدي بهدى، قال: «**فأكذبهم الله** ﷻ **وبيّن أن ذلك بسبب الطبع على قلوبهم، وأن الطبع بسبب كفرهم**».

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[المتن]

قال المؤلف ﷀ:

«**المسألة السادسة عشرة: اعتياضهم عما أتاهم من الله بكتب السحر، كما ذكر الله ذلك في قوله:** ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠١-١٠٢]».

[الشرح]

ثم ذكر المسألة السادسة عشرة: «**اعتياضهم عما آتاهم من الله بكتب السحر**» أي: جعلوا لأنفسهم عوضاً عن ما جاءت به الرسل من الوحي المبين والهدي القويم والكلام المنزل من رب العالمين، جعلوا لأنفسهم عوضاً عن ذلك كتب السحر كتب الطلاسم والشعوذة والدجل والباطل، فأخذوا تلك الكتب ونبذوا كلام الله واعرضوا عنه، وأخذوا بدلاً منه كتب السحر وما تتلوه الشياطين من الضلال والباطل أخذوا ذلك بدل الكلام المنزل من رب العالمين ﷻ؛ وهذا نهاية الخسران والعياذ بالله.

وساق ﷀ الدليل على ذلك قال: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ وقال ﷿ قبل ذلك قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾؛ قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا

﴿تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ هذا هو اعتياضهم عن ما جاءت به الرسل بهذا الذي تتلوه الشياطين على ملك سليمان عليه السلام، وملك سليمان جاءت الشياطين بكتب تَلَت فيها السحر والباطل ودفنتها تحت كرسيه، كما ذكر ذلك غير واحد من المفسرين، ثم لما لما مات سليمان عليه السلام قالت لهم الشياطين: تعالوا إلى الحكمة وإلى العلوم النافعة انظروها تحت كرسي سليمان عليه السلام، فحفروا عنها ووجدوها؛ فأخذوا هذه الكتب التي وضعتها الشياطين وتلتها الشياطين وتركوا الحق الذي جاء به سليمان عليه السلام من عند الله تبارك وتعالى! وبرأ الله سبحانه وتعالى نبيه سليمان عليه السلام من هذه الكتب الباطلة، لأنهم أدَّعوا أن هذه هي كتبه التي ملَك بها الدنيا ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ برأ الله سبحانه وتعالى نبيه من ذلك.

وانتبه هنا إلى فائدة عظيمة القدر ألا وهي: أن صيغة التبرئة لسليمان من هذا الذي نُسب إليه وهي كتب السحر جاءت صيغة التبرئة بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾؛ وهذا يفيد أن من يأخذ كتب السحر ويتعلم السحر يكفر بالله سبحانه وتعالى ويكون كافراً بالله، لأن الله سبحانه وتعالى برأ نبيه سليمان من هذه الكتب كتب السحر بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾، فأفاد ذلك أن من تعلم السحر فهو كافر بالله العظيم، ولهذا أيضا قال بعدها بقليل: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

ثم إن هاتين الآيتين فيهما تنبيهٌ إلى أمر مهم جداً يبيّن الخطورة البالغة التي عليها أهل السحر ألا وهي: أن الرجل لا يكون ساحراً ولا يمكن أن يكون ساحراً

إلا بأمرين، فإذا وجدا فيه وجد السحر، وإذا لم يوجدا فيه لم يوجد السحر، وكفى بذلك دلالة على شناعة السحر وقبحه؛ أمران دلت عليهما الآيتان:

الأمر الأول: لا يكون الساحر ساحراً إلا بنبذ القرآن ونبذ كلام الله ﷻ، وكلما كان نبذه لكلام الله ﷻ أشد كان تمكنه في السحر أقوى، ولهذا من يريد أن يتعلم السحر يقول له من يعلمه: أنبذ القرآن، وكلما كان نبذك للقرآن أشد كنت أقوى في السحر! ولهذا بعضهم يطلب مما يتعلم السحر أن يلقي القرآن في القاذورات مثلاً والعياذ بالله، أو يضع عليه العذرة والعياذ بالله، أو يطأ القرآن بقدميه والعياذ بالله، أو نحو ذلك من الامتهان للقرآن والنبذ للقرآن تقرباً للشياطين بذلك، أو أيضاً يقال: اكتب القرآن بدم الحيض أو بالنجاسات أو غير ذلك من الأمور، كلما كان نبذه للقرآن أشد كان ذلك أعظم تقرباً للشياطين ورضاً منهم به، هذه الخطوة الأولى.

والأمر الثاني: الذي يكون بها ساحراً: أن يتبع الشياطين في كل ما يدعونه إليه وأن يكون مستسلما لا يرفض لهم أي طلب، ولهذا قال: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ هذه الخطوة الأولى، والخطوة الثانية ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾.

وقد حدثني رجل من إحدى الدول: أن جاراً له ساحر ومن أهل الكهانة والشعوذة وكانت تأتيه أموال يرفع مخدته ويخرج منها أموال طائلة، يقول فجلست عنده يوم وأنا ممن يترددون عليه أيام جهل وضلال، يقول فقلت له: أنا جارك وأنا فقير وأنت عندك هذه الأموال وأنت ليس عندك ميراث ولا عندك

تجارات ولا عندك أعمال؛ فهذه الأموال من أين تأتيك؟! أنا أريد أن تدلني على طريقة، قال: فدلني على طريقة قال: إذا فعلتها تكون مثلي، ولكن أنا أطلب منك طلباً أن كل شيء يقال لك تنفذ ما تتردد في أي أمر موافق؟ قلت: نعم، فأكد عليَّ هذه القضية، أي شيء يطلب منك تنفذه، قال: فوافقت لحاجتي لكن ما ظننت أنهم سيطلبون مني أمورا عظاما! وكنت مما كنت محافظا عليه من صغري أشد المحافظة الصلاة، ولا يمكن أن أساوم عليها، فأول ما طلبوا مني أن أترك الصلاة! قلت: لا، كل شيء إلا الصلاة فانفصلت منهم ونجاني الله ﷻ بالصلاة التي كنت أحافظ عليها.

فطريقة هؤلاء في تعلم السحر تكون بأمرين: نبذ القرآن وامتهانه واحتقاره وإلقائه، واتباع ما تتلوه الشياطين اتباعاً تاماً بدون أي تردد أو إباء؛ وهو كفرٌ بالله ﷻ، فانظروا إلى ضلال أولئك كيف أنهم أعرضوا عن القرآن واتبعوا ما تتلوه الشياطين والعياذ بالله.

وسبحان الله!! ترى وجه شبه بين هؤلاء وبين كثير من الجهال والطغام والعوام ولا سيما في الضوائق والأمراض وشدة الأسقام، تجد بعضهم يعرِض عن القرآن الذي فيه الشفاء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]،﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[فصلت: ٤٤]،﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾[يونس: ٥٧] ويذهبون الى الساحر الفلاني والمشعوذ الفلاني يطلبون من جهتهم شفاء، ثم ينفِّذون لهم ما يريدونه حتى ولو كان الذي يريدونه شركاً بالله!! ولهذا بعض هؤلاء السحرة عندما يأتيه المريض من أجل العلاج

يقول له: تذبح ديكًا في المكان الفلاني ولا تسمي، لا تذكر اسم الله عليه أو تذبح شاة أو تذبح كذا إلى غير ذلك من الأمور، فيُعرضون عن كتاب الله ﷻ ويُقبلون على ما تتلوه الشياطين وما يدعو إليه السحرة والكهنة والمشعوذين ويُعرضون عن دين الله تبارك وتعالى.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«المسألة السابعة عشرة: **نسبة باطلهم إلى الأنبياء كقوله:** ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ [البقرة: ١٠٢]، **وقوله:** ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧]».

[الشرح]

هذه طريقة أيضـًا من جاهلية هؤلاء؛ أنهم ينسبون باطلهم إلى الأنبياء، وذلك من أجل الترويج للباطل الذي عندهم، ولهذا لاحظ لما أراد أولئك أن يروجوا للسحر وكُتب السحر روجوا لها وأيضـًا الشياطين كانت من وراء ذلك روجوا لها بأن هذه الكتب من؟! كتب سليمان عليه السلام! وجدناها تحت كرسيه، وزعموا أنه ملَك الدنيا بهذه الكتب، فروجوا لباطلهم بمثل هذه الدعاوى الزائفة بنسبة هذا الباطل إلى الأنبياء؛ ولهذا برأ الله سبحانه وتعالى نبيه سليمان قال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ أي: أن هذا الذي نسبه هؤلاء إلى سليمان عليه السلام بريء منه، وهي كفر بالله، وسليمان عليه السلام مبرأ من الكفر.

ونظير ذلك أيضـًا ادعاء اليهود أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديـًا، وادعاء النصارى أن إبراهيم عليه السلام كان نصرانيـًا، كلٌ منهم يدَّعي أنه كان على الدين الذي هم عليه، وبرأ الله سبحانه وتعالى نبيه إبراهيم الخليل وبيّن أنه كان حنيفا مسلما وأنه لم يكن من المشركين.

وهنا تعجب من هذه النسبة! ينسبون إبراهيم الخليل عليه السلام إلى اليهودية

والنصرانية، والتوراة والإنجيل لم تنزلا إلا من بعده! ومع ذلك يقولون هذا الكلام من أجل ترويج الباطل وترويج الضلال الذي هم عليه؛ فهذه طريقة ومسلك من مسالك أهل الضلال.

وهنا أيضًا تنتبه إلى أمر: أنهم ينسبون إلى المعظمين والأكابر ما هم منه برآء من عقائدهم وأديانهم من أجل أن تروج، وهذا الأمر بعينه موجود، ونبينا ﷺ قد قال: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**»(١)، الآن أصحاب الباطل على اختلاف عقائدهم وتنوع أباطيلهم وأضاليلهم إذا سألتهم وقلت لهم: هذا الدين الذي تعتقدون ما هو؟ هذه العبادات بدع أم سنن؟ هل هو من البدع والضلالات أم من السنن والحق والهدى؟ فجواب كل صاحب باطل سيقول: هذا هو الحق وهذا هو السنة وهذا هو الدين القويم، ما يوجد صاحب باطل يدعو إلى باطل ويقول هذا باطل!، فهل رأيتم أو سمعتم عن أحد يقول: هذه بدع وضلالات وأباطيل وأدعوكم إليها وأود أن تعتنقوها؟ ما أحد يقول ذلك، فكل صاحب ضلال ينسب ضلالة إلى الأنبياء، ولذا هناك كتب معروفة عند أهل العلم اسمها «كتب الموضوعات» مليئة بالأحاديث التي كُذبت على النبي عليهم الصلاة والسلام من أجل ترويج الباطل، حتى الشرك الصراح والكفر البين والعياذ بالله الذي بُعث به النبي ﷺ جاءُوا بأحاديث وضعوها على النبي ﷺ من أجل أن يروِّجوا لذلك؛ مثل قول أحد المشركين عبدة الأوثان قال: قال ﷺ «من اعتقد في حجر نفعه!»؛

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

هذا وضعه مشرك من أجل أن يروج للشرك ويروج للباطل، وآخر من هؤلاء يقول: قال ﷺ «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور!»؛ كل هذه الأمور يأتون كذباً وافتراءً وينسبونها إلى النبي ﷺ من أجل أن يروجوا لباطلهم، يقولون: قال ﷺ «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور»؛ وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها وَعَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالاَ: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهْوَ كَذَلِكَ: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا(١)؛ يحذر مما صنعوا صلوات الله وسلامه عليه، ثم يأتي الأفاكون المفترون من عبده القبور ومن أهل الشرك والضلال وينسب إليه ﷺ مثل هذه الأكاذيب ومثل هذه الأباطيل التي يبرأ وينزه عنها كل مسلم، فضلاً عن عالم، فضلاً عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

فهذه طريقة معروفة عند أهل الباطل وأهل الضلال ينسبون إلى النبي ﷺ ما لم يقل، حتى لو نظرت في فروع العقائد وتفاصيل الاعتقاد تجد هناك أحاديث كُذبت من أجل ترويج الباطل، أضرب مثالاً: من العقائد الثابتة في القرآن والسنة ودلائله في القرآن والسنة كثيرة أن الإيمان يزيد وينقص، والقرآن فيه آيات كثيرة تدل على زيادة الإيمان: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤] والآيات في هذا المعنى كثيرة، والسنة جاءت مصرحة بنقص الإيمان وضعفه: «**الْمُؤْمِنُ**

(١) رواه البخاري (٤٣٦)، ومسلم (٥٣١).

الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»[١]، «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[٢]، «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ»[٣]، والنصوص واضحة، فبعض أهل العقائد الباطلة في هذا الباب يعتقدون أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فكذب بعضهم على النبي ﷺ في أحاديث في هذا الباب وساقوا إسناداً مركباً مختلقاً جاء في نهايته قالوا: أن وفد عبد القيس أتوا النبي ﷺ وسألوه قالوا هل الإيمان يزيد وينقص؟ قال: «لا؛ زيادته كفر ونقصانه شرك»، كذب على رسول الله ﷺ واختلاق وافتراء، ومثل هذا كثير.

وهناك أناس لا يتورعون ولا يخافون الله ما يبالي الواحد منهم ويقول قال ﷺ وهو يعلم أنه ما قال ذلك، ولهذا جاء في هذا الباب وعيد شديد من النبي عليه الصلاة والسلام قال فيه: «وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[٤]، وجاء عنه في هذا الباب أحاديث كثيرة؛ فهذا سدّ لهذا المسلك، ومن الطرق دعوى المنامات، وهذه الشيطان له فيها دور، دعوى المنامات والأحلام وأنهم رأوا النبي ﷺ في المنام وأنه أيّدهم على دينهم، وبعضهم يدّعي أنه خرج عليه الصلاة والسلام من القبر وصافحهم

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) رواه مسلم (٤٩).

(٣) رواه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٧٩).

(٤) رواه البخاري (١١٠)، ومسلم (٣).

وأيّدهم بيده وقال طريقتكم هذه هي الطريقة الصحيحة، ومثل هذه الطرق التي يروجون بها الباطل على العوام.

رأيت مرةً كتاباً فيه من الأباطيل والأدعية الباطلة والشركيات الشيء الكثير وفيه طلاسم وأمور غامضة غير واضحة، فنظرت في هذا الكتاب قلت من يقبل هذا الكتاب! ما أتصور أن أحداً يقبل هذا الكتاب، ثم لما وصلت إلى نهاية الكتاب وجدت مؤلفه قال: -وهذا الكلام قاله من أجل أن يروج كتابه- يقول: «لما فرغت من تأليف هذا الكتاب ترددت في نشره فأتاني النبي ﷺ في المنام وقال لي لماذا هذا التردد! أنشر الكتاب، وحثني على نشره ورغّبني وقال لا تتأخر، يقول: ثم جاءني في نفس المنام أبو بكر وجاءني عمر وجاءني... فوجدت أنه لا بد أن أنشر الكتاب»، والعوام عندما يقرؤون مثل هذا الكلام تكون هذه عندهم بمنزلة متفق عليه رواه البخاري ومسلم ويأخذون الكتاب برمته؛ وهذه طريقة أهل الباطل في ترويج الباطل على العوام والضحك على السفهاء والجهال، والعوام مساكين ليس عندهم نقد، وإذا جاءهم مثل هؤلاء وافتروا عليهم مثل هذه الافتراءات روّجوا عليهم الباطل بيسر وسهولة.

فالشاهد أن من الجاهلية التي كان عليها المشركون الأُول أنهم ينسبون باطلهم إلى الأنبياء، وهذه الجاهلية موجودة عند أصحاب الضلال وأصحاب الطرق الباطلة ينسبون باطلهم إلى الأنبياء، ويدّعون أن هذا هو الذي جاءت به الأنبياء؛ فيجب على المسلم أن يكون في حيطة وحذر من ذلك.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثامنة عشرة: تناقضهم في الانتساب؛ ينتسبون إلى إبراهيم مع إظهارهم ترك اتباعه**».

[الشرح]

وهذه من عجائب هؤلاء، والباطل دائمًا متناقض وأهله متناقضون، فمن جاهلية هؤلاء تناقضهم، ومثّل المصنف رحمه الله لتناقض هؤلاء بمثال قال: «**ينتسبون إلى إبراهيم** عليه السلام» ينسبون أنفسهم إلى إبراهيم عليه السلام «**مع إظهارهم ترك إتباعه**»؛ فهم في الظاهر يدّعون أنهم على ملة إبراهيم وأنهم أتباع لإبراهيم الخليل عليه السلام، لكن في واقع الأمر وحقيقة العمل هم ليسو على ما كان عليه إبراهيم الخليل عليه السلام.

فإذاً الخصلة الأولى في المسألة السابقة: «**ينسبون باطلهم إلى الأنبياء**»، وهذه خصلة أخرى من خصال هؤلاء: «**أنهم متناقضون ينتسبون إلى الأنبياء ويناقضون ما تدعو إليه الأنبياء**»، إبراهيم الخليل كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، وهؤلاء أهل شرك وباطل.

ثم سبحان الله!! من طرائق الترويج التي كان عليها المشركين -وهو له تعلق بالمسألة السابقة- النبي عليه الصلاة لما دخل مكة فاتحاً وكسَّر الأصنام بيده وتلا قول الله جل جلاله: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[الإسراء: ٨١]، لما أراد أن يدخل البيت كان البيت الكعبة بيت الله كان في داخله أصنام كثيرة جداً فما

دخل ﷺ وأمرهم أولاً أن يخرجوا الأصنام وأن يكسروها التي داخل الكعبة، فدخلوا وبدأُ يكسرون الأصنام ووجدوا منها صنمين وُضعتا على صورة إبراهيم وإسماعيل -بدعوى هؤلاء- وفي أيديهما الأزلام وفي أيديهما الأزلام، فلما ذكروا ذلك للنبي ﷺ بَرَّأَ إبراهيمَ وإسماعيلَ من ذلك قال: «**قَاتَلَهُمُ اللهُ، وَاللهِ إِنِ اسْتَقْسَمَا بِالأَزْلَامِ قَطُّ**»[(١)]، بَرَّأَهُمَا من ذلك فوضعوا الأزلام، وكل ذلكم من الجاهليات التي عليها هؤلاء.

المسألة الأخرى وهي: «التناقض في الانتساب» هذه أيضًا موجودة في الناس إلى هذا الزمان، تجد من الناس من ينتسب للسنة بل أحيانًا ترى كتابًا مكتوب على غلافه «عقيدة أهل السنة» ثم تدخل في الداخل ترى ضلالات وبدع! فالانتساب إلى السنة أي: سنة النبي ﷺ لكن الحقيقة شيء آخر!

وكلاً يدعي وصلاً لليلى ... وما ليلى تقر لهم بذاك

فالدعوى رخيصة ولا قيمة لها، ولهذا حسم النبي ﷺ أو حُسم هذا الأمر غاية الحسم بقوله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ [آل عمران: ٣١] هذا هو المحك وهذا هو المقياس؛ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، أما مجرد الدعاوى! الدعاوى من أرخص ما يكون وأسهل ما يكون؛ أن يدعي الإنسان لنفسه أنه يحب الله أو أنه من أولياء الله أو أنه من أتباع الأنبياء هذه دعوى سهلة، فجعل الله ﷻ هذه الآية ليمتحن الناس أنفسهم على ضوئها: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ لا يكفي مجرد الدعاوى، لو كانت الدعاوى كافية

(١) رواه البخاري (٣٣٥٢).

ما قال هؤلاء: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[المائدة: ١٨] هكذا قالوا، فالدعاوى رخيصة جداً وسهلة على كل لسان، لكن الدعاوى إذا لم يُقم عليها بينات أهلها أدعياء، ليس الشأن أن تحِب ولكن الشأن أن تُحَب أن يحبك الله، والله سبحانه لا يحبك بمجرد الدعاوى «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقته الأعمال»[(١)].

* * * * *

(١) رواه الخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» (٥٦).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة التاسعة عشرة: قدحهم في بعض الصالحين بفعل بعض المنتسبين إليهم؛ كقدح اليهود في عيسى، وقدح اليهود والنصارى في محمد ﷺ**».

[الشرح]

هذه من جاهليات المشركين وأهل الضلال والباطل قال: «**قدحهم في بعض الصالحين بفعل بعض المنتسبين إليهم**»؛ يقدح في الصالح أوفي العالم بفعل بعض المنتسبين إليهم، وقد يكون في بعض الأتباع والمنتسبين أنواعا من الخطأ وأنواعا من الزلل لا يتحملها إلا المخطئ نفسه؛ فهذه من الجاهلية التي كانت عند هؤلاء أن يقدحوا في الصالحين بفعل بعض الأتباع، أي بوقوع بعض الأتباع في بعض الأخطاء فينسبونها إلى الصالحين.

قال: «**كقدح اليهود في عيسى**» من أجل بعض الأتباع، «**وقدح اليهود والنصارى في محمد ﷺ**» أيضًا من أجل بعض الأتباع، فإذا وجدت بعض الأخطاء في بعض الأتباع نسبوها إلى الصالحين، والله ﷻ أبطل ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام: ١٦٤]، لا يحمِّل الإنسان أخطاء الآخرين، وإذا بيَّن ونصح ووعظ أدى الذي عليه، وقد قال الله سبحانه وتعالى لنبيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[القصص: ٥٦]، قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف: ١٠٣]، والنبي عليه الصلاة والسلام لا يملك هداية الناس ولكنه بيَّن البيان

المبين الواضح، ووفّق الله ﷻ صحابته الكرام فاتبعوه واتبعوا النور الذي جاء به ﷺ وكانوا أئمة هدى ومنارات حق.

فالمهم: من الأشياء التي كان عليها أهل الجاهلية: محاولة التشكيك في الأنبياء أو في العلماء أو غيرهم بسبب بعض الأخطاء التي قد تكون في بعض الأتباع.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة العشرون: اعتقادهم في مخاريق السحرة وأمثالهم أنها من كرامات الصالحين، ونسبته إلى الأنبياء كما نسبوه لسليمان عليه السلام**».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**العشرون**» أي: من مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها وإبطالها وبيان فساد ما عليه أهلها

قال: «**اعتقادهم**» أي: المشركون من الكتابيين والأميين «**في مخاريق السحرة وأمثالهم**»؛ مخاريق السحرة: أي الأمور الخارقة للعادة؛ عادة الناس وما ألفوه من الأشياء المنتظمة والمألوفة في حياتهم.

فالمخاريق التي تقع على أيدي السحرة وأمثالهم، أي: من الكهان والعرَّافين والمنجمين وغير هؤلاء قد تكون سبب فتنة لكثير من الناس للتعلق بالباطل والأوهام والضلال والفساد، وهذا أمرٌ كان من وراء فتنة كثير من الناس وتعلقهم بالباطل والضلال؛ ولهذا ذكر رحمه الله أن من اعتقاد أهل الجاهلية: أنهم يعتقدون في مخاريق السحرة؛ مخاريق السحرة أي: الأمور الخارقة للعادة التي تجري على أيدي السحرة وأمثالهم.

قال: «**يعتقدون أنها من كرامات الصالحين**» أي: كل أمرٍ خارق للعادة يرونه

على رجل يجعلونه كرامةً من الله ﷻ له، ولم يتنبه هؤلاء أن خوارق العادة تكون على أقسام ثلاثة:

القسم الأول: خارقٌ للعادة يجريه الله ﷻ على يد نبي من أنبيائه ورسول من رسله مما خص به ﷻ رسله الكرام؛ وهذه تسمى «آيات»، لأنها علامات على صدق النبوة وتأييد الله ﷻ لهم، مثل: انشقاق القمر ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، فهذه آية من الآيات التي تظهر صدق النبي ﷺ، وليس ما يظهر صدق النبي الآيات فقط، بل صدقه يظهر من أمورٍ كثيرة وأبوابٍ عديدة بينها أهل العلم.

الشاهد أن الأمر الخارق للعادة الذي يُجريه الله ﷻ على يد نبي من أنبيائه هذا آية من آيات النبوة؛ كتكثير الطعام بين يدي النبي ﷺ كذلك، ونبع الماء من بين أصابعه، إلى غير ذلك من الأمور الخارقة للعادة التي أجراها الله ﷻ على يدي نبيه ﷺ والأنبياء من قبله هذه كلها من آيات النبوة.

القسم الثاني: الأمر الخارق الذي يجريه الله ﷻ لصالحٍ من الصالحين وعابدٍ من العبَّاد المطيعين لله ﷻ، وكرامة الولي من أولياء الله ﷻ هي آيةٌ للنبي، لأنه نالها باتباعه له وطاعته ولزومه نهجه؛ وهذه ليس ضابطها مجرد الخارق نفسه ووجوده، وإنما ضابطها صلاح الإنسان واستقامته؛ ولهذا قال العلماء: «أعظم كرامة لزوم الاستقامة»(١)؛ أن يلزم الإنسان طريق الاستقامة والاتباع للنبي ﷺ، فليس دليل فضل الإنسان ووجود الخارق على يديه، وإنما دليل فضله

---

(١) نقله الإمام ابن القيم ﷺ عن شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ في «مدارج السالكين» (٢/ ١٠٥).

وشاهد نُبله استقامته على طاعة الله واتباعه لهدي رسول الله ﷺ وسنة نبيه ﷺ.
والخارق الذي يجريه ﷻ لبعض أوليائه الصالحين من عباده يكون لأحد أمرين: إما لحجة أو لحاجة، إما لحجة يؤيده بها ﷻ ويُظهر صدق ما يدعو إليه من إتباع الرسول الكريم ﷺ، أو لحاجةٍ في ضرورة من الضرورات في طعام أو صحة أو نجاة من هلكة أو نحو ذلك من الأمور؛ فهي تكون للحجة وتكون للحاجة، ومن أمارات الصلاح والصدق مع الله ﷻ أن من يُجري الله ﷻ على أيديهم الكرامات لا يتفاخرون بها على الناس ولا يتعالون بها عليهم ولا يجعلونها وسيلة لترأسهم أو ترفعهم أو غير ذلك من الأغراض والغايات والمصالح التي تكون في غير الأولياء والصالحين من عباد الله ﷻ، فالأمور الخارقة للعادة التي يجريها الله ﷻ على أيدي الصالحين من عباده، وهذه يسميها أهل العلم «كرامات الأولياء» وهي حق، والله ﷻ منَّ على كثير من أوليائه بأنواع من الكرامات المتنوعة، وكُتب السير والتاريخ والأخبار مليئة بالشواهد على ذلك، حتى قال شيخ الإسلام ؒ: «فَإِنَّ تَعْدَادَ هَذَا مِثْلُ الْمَطَرِ»(١). كثيرة جداً هذه الأمور التي يمن الله ﷻ بها على الصالحين من عباده، وكما قدَّمْت -وأعيد ذلك مؤكداً- ليس مقياس صلاح

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ؒ: «وَأَمَّا الْمُعْجِزَاتُ الَّتِي لِغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ (بَابِ الْكَشْفِ وَالْعِلْمِ) فَمِثْلُ قَوْلِ عُمَرَ فِي قِصَّةِ سَارِيَةَ وَإِخْبَارِ أَبِي بَكْرٍ بِأَنَّ بِبَطْنِ زَوْجَتِهِ أُنْثَى وَإِخْبَارِ عُمَرَ بِمَنْ يَخْرُجُ مِنْ وَلَدِهِ فَيَكُونُ عَادِلًا وَقِصَّةِ صَاحِبِ مُوسَى فِي عِلْمِهِ بِحَالِ الْغُلَامِ، وَ «الْقُدْرَةُ «مِثْلُ قِصَّةِ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ وَقِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ وَقِصَّةِ مَرْيَمَ وَقِصَّةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَسَفِينَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبِي مُسْلِمٍ الخولاني وَأَشْيَاءَ يَطُولُ شَرْحُهَا فَإِنَّ تَعْدَادَ هَذَا مِثْلُ الْمَطَرِ، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ التَّمْثِيلُ بِالشَّيْءِ الَّذِي سَمِعَهُ أَكْثَرُ النَّاسِ» «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣١٨).

الإنسان وجود الأمر الخارق للعادة، بل مقياس صلاح الإنسان هو لزومه لسنة النبي ﷺ وتمسكه بطاعة الله ﷻ ومحافظته على فرائض الإسلام وواجبات الدين وُبعده عن المحرمات؛ ولهذا قال أهل العلم في هذا الباب: «أعظم كرامة لزوم الاستقامة»، وأرادوا بهذه الكلمة قطع الطريق على الدجاجلة وأهل الباطل الذين يستعملون الخوارق للعادة سبيلًا للضلال والباطل ونشر الفساد في الناس.

القسم الثالث: ما يتحدث عنه المصنف هنا رحمه الله بقوله: «مخاريق السحرة وأمثالهم»؛ الذين يتعلقون بالشياطين ويتقربون إلى الجن ويحصل على أيديهم أشياء خارقة لعادات الناس؛ وتكون بتعاونهم مع الشياطين وتقربهم لهم وعبادتهم للشياطين من دون الله تبارك وتعالى ويحصل لهم أمور خارقة للعادة فيفتتن الناس بهؤلاء، مثل حمل الشياطين لبعض هؤلاء في الهواء، أو تمكين هؤلاء من السير على الماء، أو وطء النار، أو ابتلاع النار، أو نحو ذلك من الأمور الخارقة للعادة ولمألوف الناس؛ فتكون سببًا لفتنة الناس بهم وتعلق الناس بهم وظنهم أنهم من أولياء الله الصالحين، مع أنهم لا يُعرفون باستقامة ولا يحافظون على واجبات الدين وأهم ذلك الصلاة، فلا يعرفون بالمحافظة على الصلاة في جماعة المسلمين، ويُعرفون بأنواع من الفسوق والمعاصي بل والكبائر وعظائم الآثام، ومع ذلك ينفتن بهم الطغام والعوام والجهال ويعتقدون أنهم من أولياء الله تبارك وتعالى المقربين، وأن وجود هذه الأمور الخارقة للعادة على أيديهم مما يدل على ولايتهم، مع أنها أمور وُجدت بسبب ضلال هؤلاء وتعلقهم بالشياطين وتقربهم لهم ولهذا يقول شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله عندما كان يتحدث عن

آية الكرسي وتكلم كلامـًا عظيمـًا جداً قال: «وَهَكَذَا أَهْلُ «الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ» تَنْصَرِفُ عَنْهُمْ شَيَاطِينُهُمْ إذَا ذُكِرَ عِنْدَهُمْ مَا يَطْرُدُهَا مِثْلُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ»[(١)].

فيجب هنا على المسلم أن يفرِّق بين «الكرامة» وبين «المخاريق الشيطانية ومخاريق السحرة والدجاجلة»، يجب أن يفرق بين «أولياء الرحمن» و«أولياء الشيطان»، يجب أن يفرِّق بين «حزب الله» و«حزب الشيطان»؛ فإنه إن لم يفرِّق أُفسد عليه دينه وأُتلفت عقيدته وأُوقع في الضلال والباطل، وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ كتابـًا عظيمـًا في هذا الباب سماه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»؛ وذلك أن بعض الناس لا يفرق بين ولي الله ﵎ وولي الشيطان، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[البقرة: ٢٥٧]، فبعض الناس لا يفرق بين ولي الله وولي الشيطان، والفرق بينهما واضح لكن من الناس من لا يفرق ويُخدع ببعض الأمور الخارقة للعادة فيبني عليها.

ولهذا قال الإمام الشافعي ﵀ كلمة جميلة ينبغي أن تُحفظ ويُعتنى بها؛ قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ، وَيَطِيرُ في الهواء، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب»[(٢)]، أما مجرد كونه حصل على يديه خارق للعادة فهذا ليس مقياسًا وليس برهانًا ولا علامةً على صدق الإنسان.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٨٥).

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٢٣)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (٥٢٣).

فاتباعه لسنة النبي الكريم ﷺ وتعظيمه لكلام الله وعنايته بدين الله تبارك وتعالى؛ هذه العلامة الصادقة، أما الدجاجلة وأكلة أموال الناس بالباطل ومَن يُظهِرون على أيدي الناس أشياء خارقة للعادة، بل أحيانًا يأتون بأشياء ليست خارقة للعادة ولكنها ليست موجودة في بلد معين، بلد فقير مثلاً يأتون بأشياء ما سمع بها الناس فيجعلونها سببًا لإبراز أنفسهم وإظهار ولايتهم وأنهم من أهل الكرامات.

ذكر لي أحد الناس أن قرية من القرى في بعض الدول النائية أراد بعض الناس أن يُدخِلوا القرية في بعض الطرق الباطلة فبنوا لأحد أتباعهم بناية جميلة ووضعوا فيها المكيف الصحراوي الذي يدفع الهواء البارد حتى يكون المكان باردًا جميلاً، هذا ما يعرفونه أول مرة يرون هذا الشيء في تلك القرية، ووضعوا بابًا كبيرًا ينفتح بزر، يضغط الزر ثم ينفتح الباب، ووضعوا له فراشا فاخرا ومجلسا فاخرا ثم أشيع أنه هذا من الأولياء، وإذا اجتمع الناس عند الباب ضغط بخفية الزر الذي عند قدميه ثم ينفتح الباب؛ قالوا هذا دليل أنه من أولياء الله، وعنده باب إذا أردنا أن نخرج انفتح وإذا أردنا أن ندخل أغلق الباب، وفُتن الناس به، قالوا ثم إنَّ أحد هؤلاء قُدِّر له أن جاء لبعض المُدن المتحضرة المليئة بمثل هذه الأشياء فتبين له أن كل هؤلاء أولياء في المدن المتحضرة لأنهم عندهم

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وَقَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ، أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ، لَمْ يُتَّبَعْ إلَّا أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِأَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ» «إقامة الدليل» (٤/ ٢١٣).

أجواء مكيفة وعندهم الأبواب هذه الأتوماتيكية فكلهم من أولياء الله؟! الجواب واضح أن هذا من الكذب والدجل.

فالعوام يُخدعون بأشياء ليست خارقة للعادة أصلاً، ويُخدعون بالأشياء خارقة للعادة ويُفتنون في دينهم؛ فينبغي أن ينتبه هنا المسلم لقضية نؤكد عليها وهي: أن مجرد وجود الأمر الخارق للعادة لا يجوز أن يفتن الإنسان، لأن الخارق للعادة قد يحصل عن طريق التعلق بالشياطين وعن طريق السحر والشعوذة وأشياء من هذا القبيل، فالخارق للعادة بحد ذاته ليس مقياساً على صلاح الإنسان وولايته، بل المقياس على صلاح الإنسان وولايته استقامته على طاعة الله، ثم المستقيم على طاعة الله لا يمكن أن يزكي نفسه عند الناس ويقول لهم: أنا وليّ من أولياء الله، أما أصحاب الخوارق الشيطانية فلا يبالي يقول لهم: «أنا ولي من أولياء الله وأنتم لا تعرفون قدري ولا تعرفون مكانتي أنا كذا وأنا كذا»؛ هذا لا يقوله الصادق لأن الله ﷻ يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ رحمه الله: «أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -ﷺ- كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ»(١)؛ فالصحابة أفاضل كرام لهم مكانتهم العالية لكنهم يخافون!! ويقول الحسن البصري رحمه الله: «إن المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع بين إساءة

---

(١) ذكره البخاري في «صحيحه» (١/ ٩٣) معلقـًا، وأخرجه في «التاريخ الكبير» (٤١٢) موصولاً.

وأمنا»[(١)]؛ تجده مضيعا لصلاته ويرتكب المحرمات، ويقول: أنا من الأولياء! يثني على نفسه ويطري نفسه.

فيجب أن يفرق المسلم بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وألا يُخدع بالأمور الخارقة للعادة التي فتنت كثيرًا من الناس وأضلتهم عن سواء السبيل.

قال: «**اعتقادهم في مخاريق السحرة وأمثالهم أنها كرامات الصالحين، ونسبته إلى الأنبياء كما نسبوه لسليمان ﵇**» يعني ينسبون هذه الأمور الخارقة للعادة أو السحر أو الدجل أو نحو ذلك إلى الأنبياء أو المعظمين كما نسبوه إلى سليمان ﵇، ومر معنا تبرئة الله ﷻ لنبيه سليمان ﵇ من هذه النسبة الباطلة بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

---

(١) انظر: «تفسير الإمام الطبري» (١٩٤٥)، و«تفسير الإمام ابن كثير» (٥/ ٤٨٠).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الحادية والعشرون: تعبدهم بالمكاء والتصدية**».

[الشرح]

قال: «**الحادية والعشرون**» أي: من مسائل الجاهلية «**تعبدهم**» أي: تقربهم «**بالمكاء والتصدية**» ؛ المكاء: هو الصفير الذي يصدر عن طريق النفخ بالفم، إما بالفم مجرداً، أو بوضع اليد على الفم بطريقة معينه حتى يخرج للهواء المندفع من الجوف، وله صوت يقال له الصفير.

والتصدية: هي التصفيق؛ وذلك بضرب اليدين ببعض بحيث يصدر صوتاً عالياً من هذا الضرب.

فكان الجاهليُّون من الأميين والكتابيين يتقربون بالمكاء والتصدية؛ أي بالصفيق والصفير، وسبحان الله ثم سبحان الله!! كانوا عند بيت الله الحرام وعند الكعبة المشرفة في جاهليتهم الجهلاء وضلالتهم العمياء يطوفون ببيت الله تبارك وتعالى عراةً نساءً ورجالاً حتى ليس عليهم ما يستر العورة المغلظة عند الكعبة شرَّفها الله! ويصفقون ويصفِّرون عند الكعبة عراة منظر من أقبح المناظر وأخزاها وأشنعها، حتى أن المرأة كانت تطوف مع الرجال عارية ليس عليها حتى ما يستر عورتها المغلظة! وإحداهن كانت تطوف وتقول:

اليـوم يبـدو بعضـه أو كلـه   و مـا بـدا منـه فـلا أحلـه[(١)]

(لا أحله) أي: يعني أن يمسه أحد، لكنهم في جاهليتهم الجهلاء ظنوا أن هذه قربة وطاعة يُتقرب بها إلى الله؛ فيطوفون عراة رجالاً ونساءً، وعبادتهم عند الكعبة صفير وصفيق ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]، مكاءً: أي صفيراً، وتصدية: أي صفيقا كما قال ذلك ابن عباس وابن عمر وغير واحد من الصحابة والمفسرين في معنى هذه الآية الكريمة[(٢)].

فكانت هذه عبادتهم؛ تصفيق وصفير ورقص وقفز وخفض وتمايل، هذه عبادتهم يصفقون ويصفرون ويتمايلون ويترنحون، فهذه عبادتهم وعند البيت، وقل مثل هذا وشبيهاً به عند النصارى واليهود؛ عبادتهم مشتملة على الصفيق والصفير والرقص، حتى في التوراة المحرفة المُبدَّلة نُصَّ فيها على هذه المعاني؛ «سبحوه بدف ورقص، سبحوه بأوتار ومزمار» هكذا مكتوب في التوراة وأشياء من هذا الكلام موجود في التوراة المحرفة ويعملون به!! يصفرون ويصفقون ويأتون بالمزامير والأعواد ويطبِّلون ويجعلون هذه قربة لله ﷻ.

إن التقرب إلى الله بالصفيق والصفير واللهو والموسيقى والمعازف والرقص هذا كله من الضلال ومن الباطل الذي كان عليه أهل الجاهلية، وماذا قال نبينا ﷺ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ**

(١) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (١/ ٨٠)، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٥)، و«البداية والنهاية» (٢/ ٣٧٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٥).

ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»(١)؛ قال ذلك ﷺ محذراً أمته أن يسلكوا مسلك هؤلاء، وهذا الأمر الذي حذَّر منه نبينا ﷺ وُجد في بعض الأمة، هذه الجاهلية الجهلاء وُجدت في بعض الأمة التعبد والتقرب لله ﷻ بالسماع والرقص والطبول والمزامير، يتقربون إلى الله ﷻ بهذه الأمور مثل الجاهلية متشبّهين بأهل الجاهلية من الأُمّيين والكتابيين، حتى أن بعضهم يمارس هذه الممارسات الآثمة داخل المساجد!! فيأتون بالمزامير داخل المساجد ويزمرون وينشدون ويتمايلون، حتى كتب أحد الأفاضل يصف هذه الممارسات التي تمارس ببعض المساجد كتب كتاباً سماه «ملاعب الوثنية» التي تحولت إليها بعض المساجد في بعض المناطق مما شاهده ورآه بعينه ووصفه، شيء لا يصدق، داخل المساجد حتى تحولت إلى أشبه مما تكون ملاعب أهل الوثنية والضلال والباطل، عزفٌ ورقص وأنغام ونشيد وسماع، وكما قيل في المثل: «أَحَشَفًا وَسُوءَ كِيلَةٍ؟!»(٢)، لهوٌ وباطل والأناشيد التي يُطرِّبون أسماع أنفسهم عليها فيها شركٌ وضلال وبدع وغلو، وهم ماضون على مثل هذا العمل.

وليس الأمر عند هذا الحد بل بعض من أَلَّفوا المؤلفات وهم على هذا المسلك وعلى هذه الطريقة كتبوا أبواباً خاصة تتعلق بالسماع وتتعلق بالرقص

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٢) «الكِيلَة: فِعْلَة من الكَيْل وهي تدلّ على الهيئة والحالة نحو الرِّكْبة والْجِلْسَة؟ والحَشَفُ: أَرْدَأ التمر أي أتجمَعُ حشَفًا وسوء كيل يضرب لمن يجمع بين خَصْلتين مكروهتين» «مجمع الأمثال» (١/ ٢٠٧).

الذي يفعلونه، حتى إنه في أحد الكتب المشهورة المتداولة التي أُلِّفت وقُصد بتأليفها أن تُحيا بها علوم دين الإسلام، عُقد فيها بابًا عُنوانه السماع، وبابًا آخر عنوانه الرقص وآداب الرقص الذي يكون في مثل هذه المجالس، حتى قال صاحب ذلك الكتاب: أن سماع هذه الأناشيد وما يصحبها من تطريب ودُفّ ومزمار وغير ذلك أفضل من سماع القرآن من سبعة وجوه -هكذا قال! - وأخذ يذكر وجوه سبعة بزعمه ومدعاه الباطل أنها أفضل من القرآن من حيث التأثير ومن حيث كذا ومن حيث كذا! ثم انتقل بعد ذلك إلى الكلام على آداب الرقص، فيقول إذا كنت في مجلس سماع وحصل الإنشاد وضرب الدفوف وبدأ الرقص فهناك آداب للرقص لابد أن تكون محافظًا عليها في هذه المجالس، كما أن للأكل آداب ولطلب العلم آداب وللجيرة آداب فالرقص له آداب كذبك، وآداب الرقص تُعد على أنها جملة من آداب الإسلام، يا سبحان الله!! جاهلية جهلاء، ثم يذكر في آداب الرقص أشياء، يقول مثلاً: إذا كان الشيخ في حلقة الرقص أشتد به الوجد وتفاعل مع المجلس ومزق ثيابه من شدة تفاعله مع مجلس الرقص، قال: من الأدب في المجلس أن تخلع ثيابك! لأنه لا يليق بالشيخ أن يمزق ثيابه وأنت تبقى عليك بهندامك، فهذا خلاف الأدب. ثم قال: الأدب الثاني إذا كان الشيخ وهو يهز ويرقص سقطت عمامته من على رأسه في المجلس فمن الأدب أن تخلع عمامتك، فلا يليق بالطالب أن الشيخ سقطت عمامته في المجلس من القرص والاهتزاز وأنت تبقى وعليك عمامتك! وأخذ

يذكر آداب الرقص، وتُقرأ في بعض الأماكن والبلدان على أنها آداب إسلامية وهي جاهلية جهلاء صنيع أهل الجاهلية تماماً ويلصقون كل هذا الباطل وكل هذا الضلال بالدين ويجعلونه جزءًا من الدين الذي يتقربون به إلى الله ﷻ.

وهذه المجالس وما يحتفّ بها من قِصع الطعام وأنواع المأكولات والمشتهيات يتنافسون على حضورها، أما صلاة الجماعة والخشوع أمام الله ﷻ والمحافظة على فرائض الإسلام فهذه يفرطون فيها ولا يعتنون بها، يُقرأ عليهم القرآن ما تنصدع قلوبهم، وتُقرأ عليهم هذه القصائد الملحَّنة المُطرَّبة فيدمعون ويتباكون ويقولون هنا فعلاً التأثير، ثم يروي قصة عن رجل وخلاصة القصة: أنه كان يقرأ القرآن من صلاة الفجر إلى قريب الظهر ما دمعت عينه ثم جاء رجل وقرأ عليه بيتين فدمعت عينه، قال: هذا شاهد أن القصائد هي التي تؤثر!.

وهكذا مثل هذا الدجل والتلفيق والتزوير على الناس تخلط الأمور ويُدخل الناس في الضلال من أوسع أبوابه. والمؤلف هنا ؒ ناصح للمسلمين، أعطاك كلمة لا تبلغ سطراً لكنها كافية في التحذير قال: «**تعبدهم بالمكاء والتصدية**»؛ فليحذر المسلم أشد الحذر أن يتقرب إلى ﷻ بمثل هذا الضلال والباطل.

والإسلام جاء بإبطال ذلك، ومن ذلك قول الله ﷻ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾[لقمان: ٦]، عن أبي الصهباء البكري أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ فقال عبد الله: الغناء،

والذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرّات[١]، وجاء هذا المعنى عن ابن عباس وعن غيره من صحابة رسول الله ﷺ.

﴿يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي: هذه الأمور الباطلة ليضل الناس عن سبيل الله، وكم أُضل الناس عن سبيل الله وعن إقامة الدين وعن المحافظة على الطاعات بمثل هذا اللهو الباطل؛ فتراهم يسمرون طوال الليل على اللهو مصحوبًا بأطعمة ومشروبات إلى آخره ثم ينامون عن صلاة الفجر!!، وهؤلاء بعيدون كل البعد عن هذه المعاني العظيمة الجليلة التي جاء بها الإسلام. وجاء عنه ﷺ في «صحيح البخاري» وغيره قال ﷺ: «**لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ**»[٢] يستحلونها: أي أنها حرام لكنهم هم يعتقدون أنها حلال، وليس هذا فقط بل يعدونها من القُرب التي يتقربون بها إلى الله تبارك وتعالى، نسأل الله ﷻ لنا جميعًا الحفظ والعافية.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٢٧).

(٢) رواه البخاري (٥٥٩٠).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثانية والعشرون: أنهم اتخذوا دينهم لهواً ولعبا**».

[الشرح]

«**الثانية والعشرون: أنهم** -أي: أهل الجاهلية- **اتخذوا دينهم لهواً ولعبا**»، اتخذوا دينهم لهواً ولعبا تحتمل أحد معنيين وكلاً منهما صحيح من حيث واقع هؤلاء.

اتخذوا دينهم: أي الدين الذي منَّ الله سبحانه وتعالى على البشرية به الذي هو دين الإسلام؛ اتخذوه لهواً ولعبا، أي: أنهم إذا ذُكر لهم الإسلام أو ذُكرت لهم أحكام الإسلام أو أوامر الدين سخروا واستهزؤوا وجعلوا ذلك مجالاً للتندر والضحك واللعب والعبث.

والمعنى الآخر: أن الأديان التي اخترعوها لأنفسهم وارتضوها هي أقرب إلى أن تكون نوعًا من العبث واللعب منها إلى أن تكون تعبداً وتقربًا، مثل ما مر معنا في المعازف والملاهي والرقص، فهذه أنواع من اللعب ليست عبادة، لأن العبادة لا تكون بمثل هذا اللعب، فهم اخترعوا هذه الأعمال وجعلوها دينًا وعبادة فاتخذوا دينهم لهواً ولعبًا؛ أي: اخترعوا في الدين والعبادات أشياء من اللعب والعبث، فهذا معنى قوله ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ [الأعراف: ٥١].

وهذا الأمر الذي ذكره المصنف رحمه الله عن أهل الجاهلية أيضًا وُجد في بعض

المنتمين للإسلام؛ جعلوا الدين وما يتقربون به لله ﷻ مجالس للرقص وللمعازف وجعلوها دينـًا، بل إن بعضـًا منهم من إفكه وافترائه وتلبيسه على العوام استشهد على هذا الباطل بآيات القرآن الكريم، عبثًا بالقرآن واتخاذاً للدين لهواً ولعبـًا، أحدهم قال: قول الله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١] قال هذا دليل على الرقص! هذا ﴿ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾، قال: يعني يقفز ويقوم ويتمايل هذا معنى قيامـًا وقعوداً وعلى جنوبهم، قال هذا دليل من القرآن على مشروعية الرقص والتقرب به إلى الله، هكذا قال.

هذا داخل تحت هذه الجاهلية ﴿ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾، بينما سَل كل مسلم حماه الله تبارك من باطل هؤلاء وإفكهم ما معنى قوله: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ ماذا يقول؟ أي: وهو قائم يذكر الله، وهو قاعد يذكر الله، وهو نائم على جنبه يذكر الله؛ أي: أنه ذاكر لله على كل أحواله، فهذا معنى الآية، كما قالت عَائِشَة رضي الله عنها: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ**»(١).

وهو نائم على جنبه يذكر الله، وهو جالس في مجلسه يذكر الله، وهو قائم يذكر الله، وهو ماشي يذكر الله قيامـًا وقعوداً وعلى جنوبهم، أي: في كل أحوالهم يذكرون الله؛ فهذا معنى الآية وهو معنى واضح، لكن من اتخذوا دينهم لهوا

---

(١) رواه مسلم (٣٧٣).

ولعبًا طريقتهم هي هذه يعبثون بآيات القرآن ويعبثون بكلام الرسول ﷺ من أجل نشر الضلال الذي يمارسونه والباطل الذي يقترفونه.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثالثة والعشرون: أن الحياة الدنيا غرتهم فظنوا أن عطاء الله منها يدل على رضاه، كقوله:** ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]».

[الشرح]

المسألة الثالثة والعشرون: «**أن الحياة الدنيا غرتهم**» أي: فتنتهم، والدنيا فيها فتنة، فهؤلاء غرتهم الحياة الدنيا؛ أكرمهم الله عز وجل بالمال.. منَّ عليهم بالرزق وبالصحة والولد والمساكن فغرَّهم ذلك، وشغلهم عما خُلقوا لأجله وأُوجدوا لتحقيقه، فظنوا أنَّ عطاء الله منها يدل على رضاه، وظنوا أن عطاء الله لهم من الدنيا دليل على رضاه عنهم، وهل عطاء الله سبحانه وتعالى للإنسان من الدنيا دليل على رضاه؟ أم أنه تبارك وتعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب؟ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»(١)، فضلًا عن أن يعطي قصوراً أو يعطي أملاكًا واسعة «**مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**» أي: كأس ماء واحد لو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة.

فعطاء الإنسان من الدنيا ليست دليلاً على فضله ولا على نبله ولا على

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٠)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٨٦).

صلاحه، واقرأ في القرآن قول الله ﷻ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ هؤلاء: أي الكفار، وهؤلاء: أي المسلمين ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾أي: في الدنيا ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ۝٢٠ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾[الإسراء: ٢٠-٢١]؛ فالدنيا يعطيها الله ﷻ من يحب ومن لا يحب، بل ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**»[(١)].

فالمؤمن قد لا يعطى شيء من الدنيا، وقد يعيش إلى أن يموت وهو فقير، بل ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ «**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ**»[(٢)].

أي: من صلاحه وتقواه وفضله واستقامته على طاعة الله ومحافظته لأوامر الله تعالى.

فالدنيا يعطيها الله ﷻ من يحب ويعطيها من لا يحب، وليس العطاء في الدنيا دليلاً على الرضا، لكن أهل الجاهلية إذا نظروا عندهم عافية وعندهم صحة ومال وأولاد يظنون أن هذا دليل على الرضا.

قال: «**كقولهم**﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[سبأ: ٣٥]» الدليل على أن لن نعذب ما هو؟ أننا أعطانا الله أموالا وأعطانا أولادا فلا يعذبنا،

(١) رواه مسلم (٢٩٥٦).

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٢).

أما أنتم ما عندكم مال ولا عندكم أولاد وأنتم أفقر منا فأنتم أحق بالعذاب منا، فهذا استدلال هؤلاء وطريقتهم في الاستدلال وردِّ ما جاء به الأنبياء ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

أيضـًا صاحب الجنتين ماذا قال لصاحبه عندما كان يحاوره؟ كما في سورة الكهف ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ هذا دليل على أنني أفضل منك، عندي مال أكثر من مالك وأعز من نفرك، فهذا دليل على أنني أفضل منك وأنني أنا الذي لي الشأن ولي المكانة إلى آخره.

فيغترون بالحياة الدنيا، ويغترون بما أتاه الله من الصحة والمال، ولنتأمل قول فرعون: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾[الزخرف: ٥١] فغرته الأنهار التي تجري من تحته وغرَّته القصور العالية وغرَّه الجنود.. إلى آخره، فيقول متفاخراً: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾، لما كان غروره بهذه الأنهار أغرقه الله بالماء، وجعل عذابه غرقـًا، أنهار تجري من تحته غرته إلى أن قال ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وقال مغتراً : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، فجعل الله ﷻ هلاكه غرقـًا بالماء، حتى أنه أعلن وهو يغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[يونس: ٩٠]، ولكنه إيمان لا ينفع لأنه إيمان عن مشاهدة، ولا ينفع الإيمان إلا إذا كان إيمانـًا بالغيب.

فالشاهد أن هؤلاء غرتهم الحياة الدنيا، وغرَّهم توسيع الله عليهم بالمال ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، مدَّ الله لهم بالمال والأولاد ليس هذا دليلاً على أن هذه

مسارعة لهم بالخيرات؛ هذا استدراج وابتلاء، وامتحان، واختبار، فقد يكون المال الذي يوسع على الإنسان فيه فتنةً له وسببًا لتعلقه بالدنيا وتركه للدين، فليس من الشرط أن يكون التوسعة المال دليل الرضا.

الشاهد أن هؤلاء فتنوا بالدنيا وظنوا أن عطاء الله ﷻ من الدنيا دليلاً على رضا الله ﷻ عنهم، وقد عرفنا من الشواهد العديدة من القرآن والسنة أن العطاء من الدنيا ليس دليلاً على الرضا؛ فإنه ﷻ يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، وأما الآخرة فلا يعطيها ﷻ إلا من يحب.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الرابعة والعشرون: تركُ الدخول في الحق إذا سبقهم إليه الضعفاء تكبراً وأَنفة، فأنزل الله** سبحانه وتعالى ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام: ٥٢] **الآيات**».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**الرابعة والعشرون: ترك الدخول في الحق إذا سبقهم إليه الضعفاء تكبراً وأَنفة**» هذا أيضاً نوع من الافتتان الذي ابتلي به هؤلاء بسبب وجود المال والولد والعطاء والصحة والعافية، اُفتُتِنوا بذلك واغتروا به وامتنعوا من قبول الحق الذي جاء به الأنبياء لكون الضعفاء سبقوهم إليه، الضعفاء من الخدم والموالي والرقيق والفقراء ونحو ذلك سبقوهم إلى الحق والهدى فامتنعوا من قَبوله وأخذوا الأمور بالأنفة؛ وقالوا: كيف ندخل في هذا الدين الذي سبقنا إليه الضعفاء؟! فامتنعوا من قبول ما به نجاتهم في الدنيا والآخرة بسبب أن الضعفاء سبقوهم إليه.

وهذا نوع من الكبر والغرور، ونوع من الاغترار بالدنيا والعطاء الذي من الله سبحانه وتعالى عليهم به؛ فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، قد قال أهل العلم وأوردوا ذلك في كتب التفسير في سبب نزول هذه الآية[١]: أن بعض أعيان المشركين طلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام أن يُبعد هؤلاء الضعفاء،

(١) روى الإمام الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٧٥)، عن ابن مسعود قال: مرّ الملأ من قريش

أبعد عنك هؤلاء الضعفاء ومَن هُم أقل منا منزلة ومكانة وننظر في الأمر في اتباعك، أما نتبعك ومعك هؤلاء الضعفاء لا نتبعك، قال تعالى ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ يعني مَن مَنَّ الله عليه بالإسلام والهداية والتوحيد والاستقامة هؤلاء تصبر نفسك معهم ولو كانوا ضعفاء ولو كانوا من كانوا ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

بالنبيّ ﷺ، وعنده صهيب وعمار وبلال وخبّاب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ هؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعًا لهؤلاء؟ اطردهم عنك! فلعلك إن طردتهم أن نتّبعك! فنزلت الآية.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الخامسة والعشرون: الاستدلال على بطلانه بسبق الضعفاء كقوله: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[الأحقاف: ١١]**».

[الشرح]

المسالة الرابعة والعشرون: «**ترك الدخول في الحق بسبب سبق الضعفاء**» وهنا رد الحق واعتقاد بطلانه لكونه سبق إليه الضعفاء، وطريقة تقريرهم لهذا الاستدلال يقولون: لو كان هذا الذي يدعو إليه النبي ﷺ حق لما سبق إليه ضعفاء الناس، بل سبق إليه العظماء والكبار وأصحاب الرأي وأصحاب الفهم، أما كونه لم يسبق إليه إلا الضعفاء فهذا دليل على بطلانه.

إذاً المسألة الرابعة والعشرون أن تركهم للحق كان أنفة بسبب سبق الضعفاء إليه، والمسالة الخامسة والعشرون يستدلون بسبق الضعفاء إلى الحق أن هذا دليل على بطلانه؛ لأنه لو كان حقاً لما سبق إليه الضعفاء بل يسبق إليه الوُجهاء والأعيان أصحاب الأموال أصحاب الفكر.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف ﷺ:

«**المسألة السادسة والعشرون: تحريف كتاب الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون**».

[الشرح]

التحريف: هو التبديل والتغيير، فتحريف كتاب الله أي: تغييره وتبديله؛ وهذا يشمل التحريف اللفظي والتحريف المعنوي، التحريف اللفظي: بتغيير الألفاظ، مثل تحريف اليهود ومن اتبعهم؛ ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] هكذا قال الله تعالى فحرفوا هذا اللفظ وقالوا: «حنطة» زادوا نونًا، فالتحريف قد يكون للألفاظ وقد يكون للمعاني، يكون المعنى واضحا ولكن يعطي الآية معنىً آخر يوافق هواه، نظير ما سبق ذكره عن أحدهم وقوله أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] دليل على الرقص الباطل، فهذا تحريف معنوي لأنه يعطي الآية معنى لا تدل عليه فيحرِّف معنى الآية.

وهذه طريقة المبطلين ومطيَّة الأفَّاكين؛ يتخذون التحريف تُكأةً لهم لنشر باطلهم، إن استطاع أن يُحرّف الألفاظ حرفها، وأن لم يستطع أن يحرف الألفاظ حرَّف المعاني.

وفي الكتب السابقة كان تحريف الألفاظ متمكنٌ منه هؤلاء لأن الله ﷻ وكل إليهم حفظ تلك الكتب: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وكل إليهم حفظ تلك الكتب فحرَّفوا حتى ألفاظها ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ

بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩]، فكانوا يكتبون أشياء بأيديهم ويضيفونها إلى التوراة ، ويمسحون أشياء من التوراة ويطمسونها ويضعون بدلها أشياء أخرى، يكتبونها هم بأيديهم وينشرونها بين الناس ويقولون هذه من عند الله، والتوراة والإنجيل مليئان بالأشياء التي كُتبت بأيدي المضلين وتُنسب إلى الله تبارك وتعالى مما ينزه عنه جل وعلا ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ الصافات: ١٨٠-١٨٢]؛ نزه نفسه تبارك وتعالى عما يصفه به أعداء الرسل وسلَّم على المرسلين لسلامة ما قالوه بحق الله من النقص والعيب، والتوراة والإنجيل فيها من الإفك والباطل والافتراء على الله ونسبة النقائص إلى الله تبارك وتعالى ما ينزه عنه ويُقدس تبارك وتعالى.

وأيضًا في أهل التوراة والإنجيل من التحريف المعنوي ما لا حد له ولا عدّ، أما القرآن قد صانه وحفظه قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فالقرآن محفوظ ولا يُغيَّر ولا يُبَدَّل، لكن من لم يتمكنوا من تحريف ألفاظ القرآن اشتغلوا بتحريف معاني القرآن دَجْلاً على الناس ونشراً للباطل، ولهذا كثر عند أرباب الباطل والضلال تحريف القرآن حسب رغباتهم وعقائدهم الزائفة الباطلة ومذاهبهم المنحرفة: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٦] أي: بتغيير معانيه وتبديلها وتغييرها، فكان من عقائد أهل الجاهلية «**تحريف كتاب الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون**» فهذه جاهلية،

تحريف الكتاب بتغيير ألفاظه أو بتغيير معانيه هذه من الجاهلية ومن سنَّة اليهود، ومن اشتغل بالتحريف فله شبه باليهود لأن هذه سنة اليهود وطريقتهم.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة السابعة والعشرون: تصنيف الكتب الباطلة ونسبتها إلى الله كقوله** ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩]».

[الشرح]

المسألة السابعة والعشرون: «**تصنيف الكتب الباطلة ونسبتها إلى الله**» وهذه طريقة من طرق هؤلاء في نشر باطلهم، يؤلف الواحد منهم كتاباً قائماً على الدجل والإفك والشعوذة والباطل وينسب باطلة إلى الله تبارك وتعالى؛ يقول هذا من عند الله أو هذا من الدين الذي بُعثت به رسل الله، يفعلون ذلك من أجل أن يروجوا باطلهم، ولهم في ذلك طرق عديدة، كيف يُقنعون العوام أن هذا من عند الله؟ لهم طرق عديدة؛ بعضهم يقول: كُوشِفتُ بذلك مكاشفة، وبعضهم يقول: حدثني بذلك قلبي عن ربي، وبعضهم يقول: كُشِف لي اللوح المحفوظ فنقلته منه، وبعضهم يقول: رأيت ذلك مناماً، إلى آخر المسالك التي يسلكها هؤلاء في طريقة إقناع العوام والطُّغام والجُهال بأن هذا الذي عندهم من عند الله أو جاءت به رسل الله، وكثيراً ما يصدِّرون كتبهم الباطلة بمثل هذا الدجل، إما أن يقول كوشفت، أو يقول حدثني قلبي عن ربي، حتى أنهم ينتقصون أهل الحق والهدى يقولون أنتم تأخذون دينكم ميت عن ميت حدثنا فلان عن فلان عن

فلان هؤلاء أموات، أما نحن نأخذ ديننا عن الحي الذي لا يموت مباشرة عن الله عز وجل! دجل على العوام والطغام والجهال حتى يروجوا الباطل.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثامنة والعشرون: أنهم لا يعقلون من الحق إلا الذي مع طائفتهم، كقوله:** ﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ [البقرة: ٩١]».

[الشرح]

أنَّ من طرائق أهل الجاهلية ولا سيما أهل الكتاب «**أنهم لا يقبلون من الحق إلا الذي مع طائفتهم**»؛ يعني الشيء الذي وجدوه ونشؤوا عليه في طائفتهم يقبلونه، أما ما سوى ذلك يردونه بحجة أنه ليس موجوداً عندهم ولا معروفًا عندهم، أو أنهم لم يسمعوا به ولم يمر عليهم مثله؛ فهذه من الجاهلية، مَن الذي يدَّعي لنفسه أنه أحاط أو أحاط جماعته أو رفقته بالخير، حتى لو كان إنسانًا جاداً في العلم والطلب قد يغيب عنه أنواع من العلوم لا يتمكن منها فيظفر بها عند غيره، أليس قال النبي ﷺ: «**فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»(١)، هذه الكلمة التي قالها النبي ﷺ في مسجد الخيف هذه تقطع الجاهلية التي كان عليها هؤلاء.

فإذا جاءك الحق من رجل أقل منك منزلة أو أقل منك مكانة اقبله، فبعض كبار السن إذا جاءه أحد من أولاده أو أولاد أولاده بحديث صحيح أو بحكم

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣١)، وقال الألباني (صحيح لغيره) في «صحيح الترغيب» (٤).

واضح من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ يرده، لا لشيء إلا لصغر سنه، يقول من أنت الآن؟! أنت من أولاد أولادي وتريد أن تعلمني هذا الحديث؟! بل وقد يطرده، لا يقبل منه بحجة أنه ما عرفه إلا من هذا الصغير، وبعض الناس بهذه الطريقة، وأيضًا في الوقت نفسه بعض طلاب العلم الصغار ما يحسن أن يتأدب مع كبار السن فيستفزهم ويستثيرهم وينشئ فيهم حمية تُضر بهم وبه ولا يتأدب معهم، بينما الأدب مفتاح القلوب، واحترام الكبار وتوقيرهم وحسن الأدب معهم مفتاح القلوب. وقد قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

جاء في الحديث: «دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ أَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بِأَبِيهِ يَقُودُهُ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ**»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَمْشِيَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمْشِيَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ مَسَحَ صَدْرَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**أَسْلِمْ**»، فَأَسْلَمَ»(١).

فهذا الكلام ماذا يصنع في القلوب؟ الأدب العالي الرفيع العظيم ماذا يصنع في الأفئدة؟ مع وضع النبي ﷺ يده على صدره.

فالصغير إذا بلغه شيء من العلم وأحب أن يفيد به كبيراً بالسن فيجب أن يتأدب وأن يراعي الأدب حتى لا يفتح على كبير السن نوعًا من الحمية الجاهلية، كأن يقول مثلاً للكبير: سمعتُ اليوم حديثًا أعجبني وأنا متأكد أنك

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٦٩٥٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٢٠٨)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٩٦).

سمعته قبلي عشرات المرات، أنت أكبر مني سنًا وأعلم مني، سبحان الله! هذا حديث عظيم وفيه فوائد... بمثل هذه الأساليب ونحوها وما أشبهها وما قاربها باللين والأدب وحسن المعاملة واحترام الكبير تتحقق الفائدة، و وبعض الأبناء إذا كان على استقامة ما يحقق الواجب الشرعي مع والده من بر وحسن المعاملة والقيام بحقوق الوالد وطاعته، فما يقوم بها ووالده يعلم أن هذه واجبه عليه في الإسلام وحق من حقوقه يراه مضيعًا لها ثم يأتي هذا الولد ويقول يا والدي أنت لماذا لا تعمل كذا الحديث كذا، ما يقبل منه لأن الابن نفسه مُضيّع، وهكذا تنشأ الفتنة بين الآباء والأبناء بسبب تضييع المُشترك من الأب ومن الأبناء، فينبغي على الإنسان أن يروض نفسه على قبول الحق والطَّواعية ولين الجانب، لأن الحق أحق أن يتبع.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة التاسعة والعشرون: أنهم مع ذلك لا يعلمون بما تقوله طائفتهم كما نبَّه الله تعالى عليه بقوله:** ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]».

[الشرح]

ثم ذكر مسألة وهي التاسعة والعشرون وهي تابعة لما قبلها؛ «**أنهم مع ذلك**» أي: أنهم مع أنهم لا يقبلون من الحق إلا الذي مع طائفتهم «**مع ذلك لا يعلمون بما تقوله طائفتهم**» يعني ما تقوله طائفتهم من الحق لا يعلمون به كُلّه، بل يغيب عنهم من الحق الموجود عند طائفتهم الشيء الكثير.

واستدل على ذلك بقوله تبارك وتعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هل موجود عند طائفتكم مشروعية قتل الأنبياء؟ فمع كونهم لا يقبلون من الحق إلا ما كان عند طائفتهم فإنهم يمارسون من الباطل ما ليس عند طائفتهم، وكما قال المصنف «**مع ذلك لا يعلمون بما تقوله طائفتهم**» ولهذا يمارسون من الباطل أموراً ليست هي موجودة عند طائفتهم، ومثل هذه الأمور توجد عندما تكون هناك تعصبات لأهواء ولطرق معينه ونحو ذلك؛ فتجد بعضهم لا يقبل من الحق إلا ما وُجد عند الطائفة التي يتعصَّب لها، وفي الوقت نفسه ليس ملماً بكل ما يوجد عند الطائفة، قد يكون عندها بعض الخير وكثير من الشر، وبعض الخير الذي عنده لا يعرفه فلا يكون ملماً به، فيقول: أنا لا

أقبل من الحق إلا ما عند طائفتي، ثم إن عند طائفته من الحق ما لا يعرفه ولا يعمل به.

والواجب على المسلم أن يجمع لنفسه بين أمرين: العلم النافع وهو قال الله و قال رسوله ﷺ، والعمل الصالح أي: بهذا العلم النافع المستمد من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧] والمنعم عليهم: هم الذين جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح، والمغضوب عليه: من عنده علم نافع لا يعمل به، والضال: من عنده عمل بلا علم، ولهذا قال أحد السلف: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى»[(١)].

* * * * *

(١) انظر: «تفسير الإمام ابن كثير» (٤/ ١٣٨).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«المسألة الثلاثون: وهي من عجائب آيات الله؛ أنهم لما تركوا وصية الله بالاجتماع وارتكبوا ما نهى الله عنه بالافتراق صار كل حزب بما لديهم فرحين».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**المسألة الثلاثون**» أي: من مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها وإبطالها وبيان فساد ما عليه أهلها.

قال: «**وهي من عجائب الله**» لأنه أمر عجيب من حال أهل الجاهلية يبين التناقض الذي هم عليه، والاضطراب الذي يعيشونه، والمآلات السيئة التي يبوؤون بها جرَّاء جاهليتهم الجهلاء وضلالتهم العمياء.

قال: «**وهي من عجائب آيات الله أنهم لما تركوا وصية الله بالاجتماع وارتكبوا نهي الله عن الافتراق صار كل حزبٍ بما لديهم فرحين**»؛ أَمَرَهم الله جل وعلا أن يكونوا مجتمعين على الحق والهدى وأوصاهم بذلك، وأنبياء الله تبارك وتعالى من أولهم إلى آخرهم وصيتهم للناس أن يكونوا مجتمعين على الحق والهدى وأن لا يكونوا متفرقين في الباطل والردى، كلٌ يركب هواه وكلٌ يتبع ميله وشهوته، بل الواجب على الناس أن يجتمعوا على الحق.

والاجتماع لا يمكن أن يكون على الأهواء لأن الأهواء مختلفة، ولا يكون

على الآراء لأن الآراء متباينة، ولا يكون أيضا على الشهوات، الشهوات لا حد لها، فلا يمكن أن يكون اجتماعٌ إلا على الحق، ولهذا قال ﷻ: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[آل عمران: ١٠٣] لا يمكن أن يكون اعتصامٌ إلا بحبل الله؛ وهو دينه وشرعه الذي خلق ﷻ الخلق لأجله وأوجدهم لتحقيقه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾[الشورى: ١٣]، هذه وصية الله ﷻ لأنبيائه ورُسُلِه، وهي وصية الأنبياء لأممهم؛ فكل نبي بعثه الله ﷻ يوصي أمته ويأمروهم أن يجتمعوا على الحق الذي هو دين الله ﷻ وشرعه، ويحذرونهم من التفرق في الأهواء والضلالات والباطل.

يقول الشيخ ﵀: مِن عجيب أمر من ترك هذه الوصية العظيمة - وهي الوصية بالاجتماع على الحق وترك التفرق على الباطل؛ أن كل حزب منهم صار فرحا بما عنده، وهذا غاية العجب! فكل حزب فرح بما عنده، وهم أحزاب ليسوا بالعشرات بل بالمئات، والحق واحد، الأهواء المتباينة والآراء المختلفة والآراء المتضاربة والتضاد الذي يعيشونه بل يكفِّرُ بعضهم بعضا ويُضلِّلُ بعضهم بعضا وكل واحد من هؤلاء المختلفين فرحٌ بما عنده، هذه غاية العجب كل واحد فرحٌ بما عنده، وحالهم أن أمرهم متقطع: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ ﴾[الأنبياء: ٩٣]، أمرهم متقطع؛ أحدٌ مشرِّق وآخر مُغرّب، عقول متضادة، أهواء مختلفة، وكل واحد من هؤلاء فَرِح بما عنده.

فهذه من العجائب التي يعيشها هؤلاء - أهل الجاهلية - تركوا الحق

والاعتصام به ولزومه وتفرقوا في الباطل، ومع تفرقهم في الباطل -وهذا موطن العجب- كلُّ حزبٍ فَرِح بما عنده، والذي عنده ضلال وباطل يفرح بماذا؟! يفرح بضلاله؟! بفساد عقله؟! بانحراف فكره؟! بولوجه بالباطل من أوسعِ أبوابه؟! من كانت هذه حاله واجبه الندم والعودة إلى الحق، لكن مِن عجيبِ أمرِ هؤلاء أنهم على ما هم عليه من باطل وضلال وتفرق فَرِحٌ كل منهم بما عنده مغتبطٌ به.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الحادية والثلاثون: وهي من أعجب الآيات أيضاً؛ معاداتهم الدين الذي انتسبوا إليه غاية العداوة، ومحبتهم دين الكفار الذين عادوهم وعادوا نبيهم وفئتهم غاية المحبة، كما فعلوا مع النبي ﷺ لما أتاهم بدين موسى عليه السلام واتبعوا كتب السحر وهي من آل فرعون**».

[الشرح]

ثم ذكر رحمه الله هذه المسألة الحادية والثلاثين «**وهي من أعجب الآيات أيضا**» ينبه رحمه الله على عجيب هذه الآية وهذا الأمر من حال أهل الجاهلية.

قال: «**معاداتهم الدين الذي انتسبوا إليه غاية العداوة**»؛ لو أخذنا مثلا بنو إسرائيل؛ فهم قوم موسى عليه السلام ينتسبون إليه، ولو قيل: ما دينكم؟ قالوا ديننا دين موسى، لا يقولون ديننا دين فرعون، بل يرون أن فرعون عدواً لهم وعدواً لموسى، فيقولون ديننا دين موسى، وإذا قيل أنتم اتباع مَن؟ قالوا: نحن أتباع موسى، ولو قيل لهم: هل أنتم أتباع فرعون؟ قالوا: لا، ويغضبون لو نُسِبوا هذه النسبة، هذا من حيث الانتساب، لكن انظر إلى واقعهم؛ واقع اليهود والديانة التي هم عليها هل هي ديانة موسى أم ديانة فرعون؟ هنا يتبين لك التناقض الذي يعيشه هؤلاء؛ من حيث الانتساب ينتسب إلى نبي من أنبياء الله، ومن حيث واقعه العملي يمارس الدين الذي يمارسه أعداء الأنبياء، وهذه عجيبة من العجائب كما نبه الشيخ رحمه الله على ذلك.

قال: «**معاداتهم الدين الذي انتسبوا إليه غاية العداوة**»؛ معاداتهم الدين الذي انتسبوا إليه، انتسبوا كما مثلت دين موسى، لكن من حيث الواقع دين موسى وهو التوحيد والإخلاص لله ﷻ وفعل الصالحات وتجنب الكبائر والآثام والموبقات، هل هم يحبون هذا الدين من حيث واقعهم العملي؟ أم هم يبغضونه؟ قال ﵀: «**معاداتهم الدين الذي ينتسبون إليه غاية العداوة**»؛ فهم ينتسبون إلى دين موسى مجرد انتساب، لكنهم من حيث واقعهم العملي مُعادين لدين موسى ﵇ ودين الأنبياء عموما أشد العداوة.

وفي الوقت نفسه؛ قال: «**ومحبتهم دين الكفار**»؛ يبغضون دين الأنبياء ويحبون دين الكفار! وإذا سُئلوا من حيث الانتساب يقولون نحن على دين الأنبياء، لكن من حيث الواقع يبغضون دين الأنبياء وهو التوحيد والإخلاص لله ﷻ واتباع أمره، ويحبون دين الكفار ويميلون إليه ويطبقونه في واقعهم العملي.

قال: «**ومحبتهم دين الكفار الذين عادوهم وعادوا نبيهم وفئتهم غاية المحبة**» أي: يحبون دين الكفار غاية المحبة، يحبون دين أعدائهم وأعداء أنبيائهم غاية المحبة ويميلون إليه، ويبغضون دين الأنبياء: «**كما فعلوا مع النبي ﷺ**»، هذا مثال توضيحي يذكره الشيخ ﵀.

قال: «**كما فعلوا مع الرسول ﷺ لما آتاهم بدين موسى ﵇، واتبعوا كتب السحر وهي من دين فرعون**»؛ لاحظت العجيب من حال هؤلاء! اليهود لما

أتاهم النبي ﷺ بدين موسى، لأنه ﷺ قال في الحديث الصحيح: «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ؛ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»(١).

فجاءهم بدين الأنبياء التوحيد، والاخلاص لله تبارك وتعالى بالعبادة، ولزوم نهج الأنبياء والتمسك بما جاؤوا به، مثل ما مر معنا في الآية الكريمة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾[الشورى: ١٣]، فجاءهم ﷺ بدين موسى ودين نوح ودين إبراهيم ودين جميع أنبياء الله تبارك وتعالى ورُسُله؛ فماذا فعلوا؟ هل أخذوا دين موسى الذي جاءهم به رسولنا ﷺ؟ الجواب: لا، أخذوا دينَ السَّحرة الذي هو دين فِرْعوْن.

فموسى عليه السلام صاحبُ حق، وفرعون صاحب باطل، وكتابُ موسى التوراة وكتبُ فرعونُ كتب السِّحر، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ ماذا فعلوا؟! ﴿نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ﴾ يعني اتبعوا كُتب السِّحر، تركوا كتاب الله ووحيه سبحانه وتعالى وتنزيلَه واتبعوا كتب السحر، وأصبحت هي كتبُهم، وعنها يأخذون، ومنها يتلقَوْن، وبها يدينُون، أما كلامَ الله جل وعلا ووحيُهُ وتنزيله لا يدينون به ولا

(١) رواه البخاري (٣٤٤٣)، و مسلم (٢٣٦٥).

قال الإمام ابن حجر رحمه الله: «والعلات بفتح المهملة الضرائر، وأصله أن من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه عل منها، والعلل الشرب بعد الشرب وأولاد العلات الأخوة من الأب وأمهاتهم شتى» «فتح الباري»(٦/ ٤٨٩).

يرضونَه ولا يقبلونه!! فهذه عجيبة من عجائب حالِ هَؤلاء؛ ينتسِبونَ مُجرَّد انتِساب إلى موسى عليه السلام لكن من حيث الواقِع العملي الذي يعيشونه يعيشون اتباع كتب السحر واعتناقَ كتب الباطل والضلال، أما كتابُ اللهِ ووحيُهُ وتنزيلُهُ فلا يُؤمِنُونَ بهِ ولا يدينون به، فهذا من الجاهلية التي يعيشُها هؤلاء.

ونبَّهنا فيما سَبق إلى قولِ النبي عليه الصلاة والسلام: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**»[1]؛ من حيث الواقع العملي لعددٍ من المُنتسِبين إلى الإسلام تجده من حيث الانتساب ينتسب للإسلام وينتسِب لسنَّة النبي ﷺ ولو سُئِلَ إلى ماذا تَنْتَسِب؟ إلى السُّنة أو إلى البِدْعَة؟ ماذا يقول؟ يقول إلى السُّنة ماذا أُريد بالبدعة! أنتسِب إلى السنة، لكن إذا نظرت إلى واقعه العملي يعيش بِدَعا ويُمارِسُ بِدَعا ليس عندهُ عليها دليل لا منَ القُرآن ولا من السُّنة، ثُمَّ يقول أنا صاحِب سُنّة، ولو قيل له هل أنت صاحب بِدعة؟ يَغْضَبْ يقول: لا، البِدْعة ضلالَة، فينتسِب إلى السُّنة مُجَرَّد انتساب ولكن من حيث أنه الواقع العملي يمارس البدع والضلالات والأهْواء والخُرافات التي ما أنزلَ اللهُ بها من سُلطان؛ فهذه من العجائِب التي يَعِيشُها بعضَ النَّاس.

ولهذا يجب على المسلم أن يَصْدُق مع الله تبارك وتعالى في انتسابه لدينِه وانتِسابِه لسنّة نبيه ﷺ، وأن يُعظِّمَ شَرْعَ الله، وأن يُحكِّمَ الكِتابَ والسُّنّة على نَفسِه، وكما قال بعض السلف: «مَن أمَّر السنَّةَ على نفسِه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر

---

(١) () رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

الهَوَى على نفسِه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة»[١]؛ من أَمَّرَ السُّنَّةَ على نفسِهِ نَطَقَ بالحِكْمَة ما معنى أَمَّرَ السُّنّة على نفسِه؟ أي: يجعَل السُّنة هي الأميرة هي الآمِرَة، الذي تأمُرُه به السُّنّة ينقَاد إليه، ومن أَمَّرَ البِدعة على نفسِه أو من أَمَّرَ الهوى على نفسِه نطق بالبدعة؛ الذي يتبِع هوَاه ويرْكَب رأسَه ويمضِي على ما يهوى وتهوى نفسُه هذا ينطق بالبدعة والضلال.

وبهذا أيضًا يتبيَّن أنَّ مُجرَّد الانتساب لا يُغني صاحِبَه شيئًا ولا يكفي، بل لابُدَّ مع الانتساب من القيام بحقيقَة الدِّين ولزومِ شَرْعِ ربِّ العالَمِين، أمَّا مجرَّد الانتساب لا يكفي صاحِبَهُ ولا يُغنيهِ شيئًا، ولهذا قال الحَسَن البَصري ﵀: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقته الأعمال»[٢].

ليس الإيمان مجرد شيء تتحَلَّى به وتتظاهَر به و تكتَفِي بهذا «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن الإيمان ما وَقَرَ في القلب وصدَّقتْهُ الأعمال».

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٤٤).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» (٥٦).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثانية والثلاثون: كُفرهم بالحقَّ إذا كان مع من لا يهوَوْنه، كما قال تعالى:** ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ **[البقرة: ١١٣]**».

[الشرح]

يقول رحمه الله: من جاهِلِيَّةِ هَؤُلاء «**كُفرُهُم بالحق إذا كان معَ مَن لا يَهْوَوْنَهُ**»؛ وهذا من جاهليتِهم لأن الحقَّ أحقُّ أن يُتَّبَع أينما كان، يجب على الإنسان أن يَرْضَخْ للحق وأن ينقَادَ للحق وأن يكون صاحب حقٍّ مُتَّبِعٍ للحق، لا يكونُ صاحِبَ باطِل، لكن هؤلاء من جاهليتهم أن الحقَّ إذا كان مع من يُعادُونَه أو من لا يهوَونه لا يقبلونَ به، فإذا كان بينهُم وبين شَخْصٍ أو فِئَةٍ عداوَة وكان الحقُّ معهُم لا يقبَلونه ولا يرضَوْن به وتَسْتنكِف نفوسَهُم عن قَبولِهِ وتسْتكْبِر، ويقولون: كيف نأخُذ بهذا الحق وهو عند فُلان من الناس وعند الفِئة الفُلانِية من النّاس ممن لا يهوونهُم!! فلا يقبلون بالحق.

ومثَّل الشيخ رحمه الله إلى العداوة التي بين اليهود والنصارى وكونُ كلُّ منهم لا يهوَى الآخر؛ تولَّدَ عنه رفضُ كلُّ واحدٍ من الطَرَفين الحق الذي عند الآخر، لا لشيء إلا لكونِه لا يهوى صاحِبه، وانظُر هذا ظاهِراً في الآية التي ساقّها المصنِّف قال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ فكلُّ فئةٍ منهُما جَحَدت الحقَّ الذي عِند الأُخرى وأبطلتْهُ وادَّعَت أنه

ليس بشيء؛ هل لكونها درسَتْ هذا ومحَّصَتْه وميزَتْهُ وتبيَّن لهم أنهم ليسوا على شيء؟! أبداً، وإنما لكونهم لا يهوَوْنَهُم، ولكونهم يُبغِضُونهُم ويُعَادُونهم، فبَنَوا على ذلك الحُكْم على كل ما عندهم بالضلالِ والباطِل.

قال: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني الله ﷻ قال مُبطلاً هذا الحُكم العام المَبْنِي على غيرِ هُدى؛ قال: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهذا فيه تَنبيه أن التقويم وتميز الحقَّ من الباطِلْ لا يُبنى على ماذا؟ لا يبنى على عَدَاوة بينكَ وبينَ إنسان فتقول بِنَاءً على تِلْكَ العَداوة أن كُل ما عندَهُ باطل، أو بينك وبين فِئة فتقول كل ما عندهم باطل لكون بينك وبينهم عداوة هذه جاهلية!

قال: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾أي: من أراد أن يُميز حقًّا من باطل وهُدًى من ضلال فعليه أن يُميزَ ذلك في ضَوْءِ الكِتاب الذي يَمِيز به الإنسان الحَقّ من الباطِلْ والهُدى والضلال، ولهذا يُسمَى الكتاب «فُرْقَانًا» ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، الفرقان هو الذي يُمَيِّز به بين حقٍّ وباطل، وهُدًى وضلال، ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، لا يمكن أن يكون الإنسان بهذه الصِفة إلا إذا كان معه كتاب ووحيٍ من اللهِ ﷻ فيُؤمن به كلام الله ويمضِي سَائِراً عليه يُمَيِّز به بينَ حقٍ و باطل وهدًى وضلال.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

[المتن]

قال المؤلف ﵀:

«**المسألة الثالثة والثلاثون: إنكارهم ما أقَّروا أنه من دينِهم، كما فعلوا في حَجِّ البيْت؛ فقال تعالى:** ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾[البقرة: ١٣٠]».

[الشرح]

هذه أيضًا من جاهِلِيتهم؛ من جاهلية أهل الكتاب: «**إنكارُهُم ما أقّرُّوا أنه من دينهم**»؛ مما يُقرُّونَ به أنهُم أتباع لإبراهيم الخَليل ﵇، بل زعمُوا أن إبراهيم كان يهُودِيًا، وقد مرَّ مَعنا قولُ الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا﴾ زَعَمُوا ذلك وأنهم هُم وإيَّاهُ شيء واحِد ودينهُم ودينهُ واحد، هكذا زعموا!

فيقول ﵀: «**إنكارُهم ما أقرُّوا أنّه من دينهم**»؛ إبراهيم ﵇ بالإجماع هو الذي بَنى بيْت الله، هو الذي بنى الكَعْبَة ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾[البقرة: ١٢٧]، وهو الذي أذَّنَ بالناسِ بالحَجِّ إلى الكعبة إلى بيتِ اللهِ تبارَكَ وتعالى، فَلمَّا دَعاهُم النبي ﷺ إلى الحج وإلى استقبال الكعبة وهم يدَّعُون أنهم على مِلَّة إبراهيم وأن إبراهيم منهُم وأخبرهم أن هذه ملة إبراهيم لم يَقبلوا!! ولهذا يقول الشيخ: «**إنكارهم ما أقروا أنه من دينِهم كما فعلوا في حجِّ البيت، فقال الله وتعالى** ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾» قال الله

ﷻ في إبطالِ ما هُم عليه: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾؛ فهم في الظاهِر يدَّعُونَ الانتِساب إلى ابراهيم وأنهم على دينه وأنه على دينِهم، ثمَّ إذا دُعوا إلى ما دعا إليه إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ امتَنَعُوا من ذلك وأبَوْا؛ وهذه جاهلية.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الرابعة والثلاثون: أن كل فرقة تدّعي أنها الناجية؛ فكذبهم الله بقوله:** ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، **ثم بيّن الصواب بقوله:** ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢]».

[الشرح]

ثم ذكر المسألة الرابعة والثلاثين: «**أن كل فرقة تدّعي أنها الناجية**» أي: الناجية من عذاب الله وسخطه وناره التي أعدها لأعدائه وللكفار، فكل فرقه تدّعي أنها الناجية وأن النجاة من نصيبهم وأنهم هم الذين سيدخلون الجنّة يوم القيامة، ادّعى هؤلاء: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]، أيضا قالوا كما في آية أخرى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وما أرخص الدعاوى على الألسنة، ومن السهل على كل لسان أن يدّعي مثل هذه الدعاوى وأن ينطقها بلسانه ويقول: أنا الناجي، وأنا من أهل الجنة، وأنا لن أدخل النار، وأنا حبيبٌ إلى الله، وأنا يحبني الله.. هذه كلمات سهلة أن تقال على اللسان.

فالشيخ يقول رحمه الله: من جاهلية هؤلاء «**أن كل فرقة تدّعي أنها الناجية؛ فأكذَبَهم الله**» في هذه الدعوى، بماذا أكذبهم؟! -وقف هنا متأملا- بماذا أكذبهم؟ قال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الدعوى لا تكفي، فالذي

يدّعي لنفسه أنه ناجي فليأت بالبرهان، هاتوا برهانكم على النجاة، ولهذا في آية أخرى جعل الله ﷻ علامة النجاة لزوم الحق واتباع الرسول ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران: ٣١]؛ هذا هو البرهان، أما مجرد الدعوى لا تكفي ولا تغني عن صاحبها شيئا، قال: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾، ثم ذكر الله تعالى البرهان.

قال الشيخ رحمه الله: «**ثم بيّن الصواب بقوله:** ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾»؛ هذا هو البرهان﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، من كان بهذه الصفة تكون له النجاة، أما مجرد ادّعاء؛ نحن أبناء الله وأحباؤه، أو لن يدخل الجنة إلا نحن، ولن ندخل النار أو نحو هذا الكلام هذا كلّه لا يجزئ صاحبة شيئا، هاتوا برهانكم وذكر الله تعالى البرهان قال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

وقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ جمعٌ بين شرطيّ قبول الأعمال وهما: الإخلاص للمعبود بإسلام الوجه له وحده، والمتابعة للرسول وذلك بإحسان العمل والاتباع لما جاءت به رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه؛ هذا هو البرهان الصادق: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

نظير ما جاء في هذه الآية تماما ما ورد في السنة؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ**»[1]، وفي رواية:

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٩٨٢)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٢٢٦).

«وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلاَّ مِلَّةً وَاحِدَةً»، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»(١).

فقوله ﷺ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي» مثل ما جاء في الآية ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ لأن الذي كان عليه ﷺ هو وأصحابه هو إسلام الوجه لله وإحسان العبادة والإتيان بها كما شرع الله. ولهذا قال في الحديث: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»؛ أي: من كان كذلك كان من أهل النجاة، أما مجرد الدعوى فالدعوى لا تغني صاحبها شيئا ولا تُجدي.

فإذاً ﴿ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾ البرهان هو الإسلام الوجه الله والإحسان بعبادة الله تعالى كما شرع الله ﷻ وأمر عباده بذلك.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) رواه الترمذي (٢٦٤١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٤٣).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الخامسة والثلاثون: التعبّد بكشف العورات كقوله:** ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾**[الأعراف: ٢٨]**».

[الشرح]

قال: «الخامسة والثلاثون: التعبّد بكشف العورات» والعياذ بالله، أي: من جاهلية هؤلاء أنهم اتخذوا كشف العورات عبادة يتعبدون بها، وهذا أمر كان يمارسه المشركون في الجاهلية، وكانوا يطوفون بالبيت عراةً! بعضهم حتى عورته المغلظة ليست مستورة عند بيت الله الحرام! وكانوا يفِدون إلى مكة للحج من أنحاءٍ مختلفة وإذا وصلوا إلى مكة تجردوا من ثيابهم قبل دخولها، ويقولون: لا نطوف ببيت الله بثياب أذنبنا فيها! فيجردون أنفسهم من الملابس رجالا ونساء ويدخلون مكة عراةً بدون ثياب تعبداً لله عز وجل والعياذ بالله بكشف العورات، ثم يطوفون بالبيت عراةً.

وبعضهم يطلب من الحمص (من قريش) أن يعيره ثوبا طاهرا حتى يطوفُ به، حتى أنهم في طلبهم يقول الرجل للرجل والمرأة للمرأة: أعطِني تطوافًا -يعني ثوبًا أطوف به- فإن وجد من يعطيه منهم ثوبا وإلا يطوفُ عاريًا على الكعبة، طاف عاريا ورجع عاريا! حتى أن المرأة كانت تطوف مع الرجال عارية ليس عليها حتى ما يستر عورتها المغلظة! وإحداهن كانت تطوف وتقول:

اليـوم يبـدو بعضـه أو كلـه   و مـا بـدا منـه فـلا أحلـه[1]

وتمشي تطوف عارية عند بيت الله!! جاهلية جهلاء وضلالة عمياء.

ويتقربون إلى الله بالعريّ أمام بيته وعند بيته!! من أين لكم ذلك؟! ما هذه الممارسات الشنيعة القبيحة التي تفعلونها عند بيت الله؟! ماذا قالوا؟: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾؛ لا اله إلا الله! احتجوا بأمرين على هذا التعري والفحش وهذه القبائح والشنائع!:

١. ﴿قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ وُلدنا هكذا ووجدنا آباءنا يمارسون هذه الممارسات! فإذا كان أبوك لا يعقل تمضي على ما هو عليه من فساد العقل وفساد الرأي والانحراف؟! تقليدٌ أعمى وجدنا عليه آباءنا!

٢. الأمر الثاني وهو أشنع وأعظم وأفحش؛ قالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾؛ الله ﷻ لا يأمر بالفحشاء، الله يأمر بالزينة ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، ليس فقط تلبس بل خذ زينتك وتزين بأجمل ما يكون عندك من ثياب تلبسها مستعداً لصلاتك متهيئا لعبادتك وطاعتك لله تبارك وتعالى.

فمن جاهلية هؤلاء التعبد لله تعالى بالعري، وهذه الجاهلية التي كان عليها المشركون أيضا وُجدت، وُجد لها نظائر عند أهل الطرائق الباطلة، حتى إنَّ عند بعض الطرقية من أهل الضلال يقولون: لا يبلغ المريد مبلغه ورتبته العالية في

(١) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (١/ ٨٠)، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٥)، و«البداية والنهاية» (٢/ ٣٧٣).

الطريقة إلا إذا تجرد عند شيخه!! ويعدون التجرّد نوعًا من التقرب أو نوعًا من أبواب التوبة التي يتقربون بها إلى الله ويتعبدون لله ﷻ بها.

فهذه جاهلية جهلاء كان عليها أهل الشرك والباطل، والله ﷻ حمى أمة الإسلام ومنَّ عليهم بالإسلام الذي فيه هدايتهم للتي هي أقوم وفيه صلاحهم وفلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة السادسة والثلاثون: التعبد بتحريم الحلال كما تعبَّدوا بالشرك**».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**المسألة السادسة والثلاثون**» أي: من مسائل الجاهلية «**التعبد بتحريم الحلال**»؛ التعبد: أي التدين والتقرب إلى الله تبارك وتعالى «بتحريم الحلال» أي: بتحريم ما أحل الله سبحانه وتعالى لهم من الطيبات، ويحرمون على أنفسهم ما أحله الله عز وجل، أو يحرم عليهم أحبارهم ورهبانهم ما أحل الله عز وجل فيحرمونه، يحرمون على أنفسهم ما حرمته نفوسهم عليهم وما حرمه أيضاً عليهم الرهبان الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله عز وجل.

ومثَّل رحمه الله على ذلك بأخطر ما يكون وهو الشرك بالله عز وجل، قال: «**كما تعبدوا بالشرك**» أي: بالله عز وجل، والشرك محرم لكنهم أجازوه لأنفسهم وتدينوا به وَتقربوا إلى الله تبارك وتعالى به وقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]؛ فأصبحت عقيدتهم تحليل الحرام وتحريم الحلال، مناقضةً لشرع الله سبحانه وتعالى ودينه الذي أمر به عباده جل وعلا عباده هدايةً له وفلاحاً وسعادةً في الدنيا والآخرة.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة السابعة والثلاثون: التعبد باتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله**».

[الشرح]

«**التعبد باتخاذ الأحبار والرهبان**»؛ الأحبار: علماؤهم، والرهبان: عُبَّادهم، فتدين هؤلاء الجاهليون «**باتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله**» أي: أن ما يُحِلُّهُ الرهبان لهم يحلونه وإن كان حرمه الله، وما يحرمه عليهم الرهبان يحرمونه ولو كان أحله الله، فيحلون ما أحل لهم الرهبان ويحرمون ما حرموا عليهم؛ فهذا من اتخاذ الأحبار والرهبان أربابا من دون الله، كما في الآية الكريمة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ -ﷺ- وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ: «**يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ**»، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ**»[1].

فعبادة الأحبار والرهبان تكون بطاعتهم بتحريم ما أحل الله وبتحليل ما حرم، فهذه الطاعة بحد ذاتها عبادة، فالشرك الذي وقعوا فيه هنا شرك الطاعة وتسوية الأحبار والرهبان بالله تبارك وتعالى، لأن الحكم لله والخلق عبيدٌ لله تبارك وتعالى ليس لهم تشريع

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٩٣).

أو أمر أو حكم، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثامنة والثلاثون: الإلحاد في الصفات، كقوله تعالى** ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [**فصلت: ٢٢**]».

[الشرح]

وهذه كذلك من جاهلية هؤلاء «**الإلحاد في الصفات**»، والإلحاد في صفات الله تبارك وتعالى: هو الميل والعدول بها عن الحق الثابت لها، لأن الإلحاد مأخوذ من اللحد وهو الميل؛ ألحَدَ السهم عن الرمية: أي مال، فاللحد: هو الميل، والإلحاد في الصفات: هو الميل بها عن الحق الثابت لها، وحق صفات الله تبارك وتعالى أن يؤمَن بها كما جاءت، وأن تُثبت كما وردت، وألا تُعطل بأن تُنفى أو تُحرَّف بأن تغيَّر ألفاظها أو معانيها وَمدلولاتها، أو أن تُمثل صفاته تبارك وتعالى بصفات المخلوقين -تنزه الله تبارك تعالى عن ذلك-، أو أن تُكيف بأن يحاول بعقله القاصر وفكره الضعيف أن يعرف كيفيتها؛ فكل ذلكم من الميل والعدول بها عن الحق الثابت لها فهو إلحاد في صفات الله تبارك وتعالى.

ولهذا الإلحاد ليس نوعـًا واحدًا ولا مسلكـًا واحدا وإنما هو أنواع ومسالك، يجمعها وصف الإلحاد وتتفرق طرائق الملحدين في صفات الله تبارك وتعالى.

فأهل الجاهلية كان من أنواع جاهليتهم إلحادهُم في صفات الله تبارك وتعالى، وذلك بالإنكار لها أو لشيء منها، كما مَثَّلَ لذلك المصنف رحمه الله بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ هذا إلحاد في صفات الله تبارك وتعالى.

وقد ذُكِرَ في سبب نزولها: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ الآيَةَ كَانَ رَجُلَانِ مِنْ قُرَيْشٍ وَخَتَنٌ لَهُمَا مِنْ ثَقِيفَ، أَوْ رَجُلَانِ مِنْ ثَقِيفَ وَخَتَنٌ لَهُمَا مِنْ قُرَيْشٍ فِى بَيْتٍ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَتُرَوْنَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ حَدِيثَنَا قَالَ بَعْضُهُمْ يَسْمَعُ بَعْضَهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَئِنْ كَانَ يَسْمَعُ بَعْضَهُ لَقَدْ يَسْمَعُ كُلَّهُ. فَأُنْزِلَتْ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾ الآيَةَ ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ﴾ الآيَةَ(١).

أي: فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ فذكر ﷻ هذا الإلحاد الذي وقعوا فيه بظنهم؛ أي: اعتقادهم أن الله ﷻ لا يعلم كثيراً مما يعملون.

ولتلاحظ هنا أن هؤلاء الذين وصف الله ﷻ حالهم لم ينفوا صفة العلم لله ﷻ من أصلها ولم يجحدوها من أساسها، وإنما نفوا علمه بكثير من أعمالهم؛ فذكر الله ﷻ أن هذا أوقعهم في الردى والهلاك ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ فهذا الظن الفاسد والاعتقاد الباطل في صفات الله ﷻ أوقع هؤلاء في الردى والخسران ودخول النيران وحلول عقوبة الله ﷻ عليهم بجحدهم لعلم الله ﷻ بكل شيء؛ حيث ظنوا إن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون، وهذا من الإلحاد في صفات الله ﷻ الذي يوقع صاحبه في الردى.

---

(١) رواه البخاري (٤٨١٦)، ومسلم (٢٧٧٥).

وهنا ننتبه إلى أن باب الصفات وإثباتها لله ﷻ يقوم على أصلين: إثباتٌ بلا تمثيل، وتنزيهٌ بلا تعطيل، على حد قول الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ففي قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ تنزيه، وفي قوله ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ إثبات، فتوحيد الأسماء والصفات قائم على هذين الأصلين: التنزيه لله ﷻ عن كل ما لا يليق به، وإثبات الكمال لله ﷻ مما ثبت به كتابه وثبتت به سنة رسوله ﷺ؛ فمن نفى ما أثبته الله ﷻ لنفسه أو ما أثبته له رسوله ﷺ من الصفات فهو ملحد، ومن أثبت ما نفاه الله ﷻ عن نفسه وما نفاه عنه رسوله ﷺ فهو ملحد.

ولهذا؛ الإلحاد يقع بإثبات ما نفى الله وبنفي ما أثبت، والمثال الذي ساقه المصنف ﵀ تعالى في قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا إلحادٌ بنفي ما أثبت الله، الله ﷻ أثبت لنفسه العلم الواسع المحيط، العلم بما كان، والعلم بما سيكون، والعلم بما لم يكن لو كان كيف يكون، وأنه ﷻ أحاط بكلِّ شيء علما: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] أي: بعلمه واطلاعه ﷻ، فأثبت ﷻ لنفسه العلم الواسع، العلم المحيط، العلم بكل شيء، فمن نفى هذا الذي أثبته الله ﷻ لنفسه فهو ملحد، كما صنع هؤلاء بقولهم أو بظنهم إن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون.

ويقع كذلك الإلحاد بإثبات ما نفى الله؛ بأن يثبت لله ﷻ ما نفاه الله عن نفسه، ومثال هذا النوع في قوله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ [مريم: ٨٨-٩١]؛ فقولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ هذا إلحادٌ بإثبات ما نفى الله، والمثال السابق إلحاد بنفي ما أثبت الله.

فمن أثبت ما نفى الله فهو ملحد، ومن نفى ما أثبته الله ﷻ فهو ملحد، وكل من الإلحادين -سواء بإثبات ما نفى الله، أو بنفي ما أثبت- يوقع صاحبه في أشد الهلكة وأعظم الخسران، ولهذا في النوع الأول قال: ﴿أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، وفي الثاني قال ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾؛ فهذا أمر أخطر ما يكون وأشنع ما يكون ويترتب عليه من الأضرار والنكال والعقوبات ما لا حد له ولا عد، فالإلحاد في صفات الله ﷻ جاهلية جهلاء وضلالة عمياء، وحمى الله ﷻ أمة الإسلام منها ببعثة محمد ﷺ حيث بيَّن ﷺ للأمة واجبها نحو أسماء الله ﷻ وصفاته، وأنها تُثبت لله ويؤمن بها وتُقر، ويعظم الرب ﷻ ويُقدر ﷻ حق قدره، ويُبتعد عن مسالك الضالين وطرائِقِ أهل الجاهلية.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة التاسعة والثلاثون: الإلحاد في الأسماء كقوله:** ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾[الرعد: ٣٠]».

[الشرح]

«**الإلحاد في الأسماء**» أي: أسماء الله تبارك وتعالى الحسنى، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وفي هذا تهديد ووعيد من الله تبارك تعالى من للملحدين في أسمائه، توعدهم الله تبارك وتعالى وتهددهم على إلحادهم في أسمائه سبحانه أولًا: بقوله جل وعلا﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾أي: تجنبوا طريقتهم واحذروا مسلكهم، والأمر الثاني: بما ختمت به الآية وهو قوله تعالى: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: سيعاقبون، ولم يذكر نوع العقوبة التي يحلُّها بهم لفظاعتها وشدتها وعظم النكال الذي أعده الله تبارك وتعالى للملحدين في أسمائه.

قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ أي: آمنوا بها وأثبتوها له جلّ وعلا وَتقربوا إلى الله سبحانه وتعالى بالإيمان بها والتوسُل إليه تبارك وتعالى بالإيمان بها ومناجاتِهِ بذلك، مقرين له جل وعلا بأسمائه الحسنى الثابتة في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم؛ وهذا الإيمان بأسماء الله والإقرار يؤدي بالمؤمن إلى الجنة والفوز بثواب الله، كما صح بذلك الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً**

إِلاَّ وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»[١]؛ من أحصاها أي: حفظها، وفهم معانيها، وعمل بما تقتضيه من الإخلاص وحسن الرجاء وصدق مع الله وتمام التوكل على الله وتتميم العبادة وتحقيق العبودية لله ﷻ.

فالإيمان بأسماء الله ﷻ الحسنى يفضي بالعبد إلى كل خير ورفعة في الدنيا والآخرة، أما الإلحاد في أسمائه سواءً بنفيها أو بأن يثبَت لله ﷻ من الأسماء ما لا يليق به ﷻ، أو بأن تحرَّف معانيها وَمدلولاتها، أو بأن يقاس ﷻ بخلقه ويمثل بهم، أو غير ذلك فهذا كله إلحاد في أسماء الله، وخروج بها عن الحق الثابت لها، وهو من صنائع ومسالك أهل الجاهلية التي جاء الإسلام بإبطالها.

ومَثَّل الشيخ ؒ على هذا النوع بقوله ﷻ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾[الرعد: ٣٠]؛ وذلك أن المشركين لما أراد النبي ﷺ أن يصالحهم في صلح الحديبية اتفقوا على أن يكتبوا كتاباً فيه ما تم بينهم من صلح، فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ هَاتِ، اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ -ﷺ- الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»، قَالَ سُهَيْلٌ أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللهِ مَا أَدْرِى مَا هُوَ وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللهِ لاَ نَكْتُبُهَا إِلاَّ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «**اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ**»[٢]، فجحدوا هذا الاسم، وكما نبه العلماء: الجحد هنا ليس مبنيًا على عدم معرفة القوم بأن الله ﷻ رحمن، وإنما هو نوع معاندة ومكابرة وتكبر على الحق وعلى

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣١)، ومسلم (١٧٨٣).

ما جاء به رسول الله ﷺ، وإلا هم على معرفة بذلك، ويأتي ذكر هذا الاسم في أشعارهم كثيراً، فـ«الرحمن» جحدوه هنا عناداً وتكبراً: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] وإلا الاسم معروف، ولهذا قال الإمام ابن جرير الطبري ﵀ في كتابه «التفسير»: «وقد زعم بعضُ أهل الغَباء أنّ العرب كانت لا تعرف (الرحمن)، ولم يكن ذلك في لغتها»(١)، ثم بيَّن ما يُكذب هذه الدعوى؛ الاسم معروف عندهم ولكنهم جحدوا على وجه المعاندة، فسمى الله ﵎ جحدهم لهذا الاسم على وجه المعاندة وَالمكابرة كفراً؛ قال: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

وإذا كان جحد اسم واحد لله ﵎ سواء للمعاندة وَالمكابرة أو لأي سبب آخر سماه الله ﵎ كفرًا؛ فكيف بمن يجحد أكثر أسماء الله ﷻ وأكثر صفاته ويعاند في ذلك ويكابر ويقدِّم هواه ومنطقه ورأيه وفكره على كلام الله وكلام رسوله ﷺ!! قال: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ فسمى ﵎ هذا الجحود كفرًا بالله ﵎.

* * * * *

---

(١) «جامع البيان في تأويل القرآن» (١/ ١٣١).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الأربعون: التعطيل كقول آل فرعون**».

[الشرح]

قال: «**الأربعون: التعطيل**»؛ والتعطيل: هو النفي والجحد لما أثبت الله سبحانه وتعالى، ومدلول هذه الكلمة لغةً التعطيل: هو النفي، كقول الله عز وجل: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج: ٤٥] أي: خالية متروكة، فالتعطيل هو النفي، ويقال: «جيد معطلة من الحلي» أي: خالية، فتعطيل الأسماء والصفات: نفيها وعدم إثباتها لله تبارك تعالى.

وهذا التعطيل كما نبه المصنف رحمه الله هو دين فرعون، الذي هو التعطيل والجحد، ولهذا كل معطل لأسماء الله تبارك وتعالى نسبته اللائقة به أنه هو فرعوني، على طريقة فرعون في التعطيل والجحد، أما الذي يثبت الصفات لله تبارك وتعالى فإنه على نهج الأنبياء وطريقتهم، ولنضرب على ذلك مثالاً:

الله جل وعلا أثبت لنفسه في كتابه وأثبت له رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته علوه جل وعلا على خلقه وأنه العلي العظيم الكبير المتعال الأعلى جل وعلا، فأثبت لنفسه ذلك وقامت البراهين الكثيرة على إثبات العلو له جل وعلا، وهي براهين لا تعد بالمئات بل بالآلاف، فالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والحجج البينات على علو الله تبارك وتعالى لا حصر لها: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢]،

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، آيات كثيرة ناطقة وشاهده بعلو الله ﷻ على خلقة؛ فمن أثبت العلو لله فدينه دين الأنبياء، ومن نفى علو الله ﷻ دينه دين من؟! موسى عليه السلام كان مما أبلغ فرعون به ودعاه إلى الإيمان به الإيمان بالله ﷻ المستوي على العرش العلي على الخلق علوًا يليق بجلاله وكماله، فجحد فرعون ذلك وقال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]؛ وهذا السياق فيه أن موسى عليه السلام أخبر فرعون أن الله في السماء، ولهذا أراد بزعمه أن يبني صرحًا أي: بناءً عاليًا شاهقا مرتفعا ليصعد عليه وليطلع هل يوجد إله في العلو كما أخبر موسى أو لا يوجد؟ قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾فجحد علو الله ﷻ وجحد وجوده، بل قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقال ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

وهذا الجحد من فرعون ليس مبينًا عن عدم علم منه بوجود الله وأنه خالق هذه المخلوقات، فهو يعلم ولكنه يقول ذلك مكابرة وعنادًا، واقرأ دليل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل: ١٤]، وفي قوله تعالى فيما ذكره ﷻ عن موسى عليه السلام فيما قاله لفرعون قال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الإسراء: ١٠٢]؛ ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ أي: يا فرعون ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: أنت في قرارة نفسك تعلم ولكن هذا الجحد كان من فرعون على وجه المعاندة وَالمكابرة.

فالذي يعطل الصفات فيه شبه من فرعون، والذي يثبت الصفات هو على سَنَن الأنبياء.

والتعطيل كما قال أهل العلم تعطيلٌ كُلي، وتعطيلٌ جُزئي؛ الكُلي: بنفي الصفات والأسماء عمومًا، والجُزئي: بتعطيل بعضها، وذلك بإثبات بعضٍا وجحد بعضٍا، ولهذا قال العلماء: باب الصفات واحد؛ القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الحادية والأربعون: نسبة النقائص إليه سبحانه**».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**الحادية والأربعون: نسبة النقائص إليه سبحانه، كالولد والحاجة والتعب مع تنزيه رهبانهم عن بعض ذلك**»؛ وهذا أيضًا داخل فيما سبق ألا وهو: الإلحاد في أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته، فمن جاهلية أولئك الجهلاء وضلالتهم العمياء نسبتهم النقائص إليه، والله سبحانه وتعالى منزه عن النقائص والعيوب جل وعلا.

«**نسبتهم النقائص إليه**» أي: نسبتهم إلى الله تبارك وتعالى ما لا يليق به من النقائص والعيوب، ومثَّل لذلك ببعض الأمثلة قال: «**كالولد**» أي: كنسبة الولد إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨]، قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، قالوا: الملائكة بنات الله؛ فهذا من الإلحاد، من الإلحاد في أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته: نسبة النقص إليه؛ كالولد.

«**وكالحاجة**» أي: حاجته تبارك وتعالى إلى خلقه.

«**وكالتعب**»؛ ولهذا قال عز وجل في ﴿سورة ق﴾: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] أي: وما مسنا من تعب، لأن اليهود يدَّعون أنه تبارك وتعالى وتنزه وتقدس أنه لما خلق السموات والأرض

تعب، هكذا يزعم اليهود أخزاهم الله، فنزه الله ﷻ نفسه عن ذلك قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

ومن ذلك أيضًا: قول اليهود أخزاهم الله ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، قال تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[المائدة: ٦٤].

قال: «**مع تنزيه رهبانهم عن بعض ذلك**» أي: عن بعض هذا الذي أثبتوه لله من النقائص، فينزهون رهبانهم عن بعض ذلك، ورهبانهم المراد به: عُبَّادهُم، الرهبان: العُبَّاد المنقطعين للعبادة، ومن انقطاع بعض الرهبان عن العبادة ترك النكاح والنسل، وهذا مما يتعبدون لله ﷻ به أو بعض رهبانهم يتعبد لله به ترك النكاح والنسل، فتقربون لله تعالى بذلك، فالراهب الذي يبلغ الدرجة العالية في الرهبانية عندهم هو الذي ينقطع ولا ينكح ولا يكون له نسل، وعندهم أن الراهب فعلاً هو من لا زوجة له ولا أولاد هذا هو المترهب.

إذاً الراهب ينزهونه عن الزوجة والولد وأنها لا تليق به، ثم هذا الذي ينزهون الراهب عنه ويرونه لا يليق به وأن مقامه أعلى يثبتونه لله تعالى الله وتقدس عن ذلك؛ فيقولون أن الله اتخذ صاحبة واتخذ ولداً، فيثبتون لله ﷻ ما ينزهون بعض رهبانهم عنه.

ولهذا يذكرون في القصص، ذكرها بعض أهل العلم، أن أحد المسلمين لقي جماعة من النصارى ومعهم راهب، معهم رجل منهم مترهب ومنقطع عن الزواج وعن الذرية، فأراد أن يحرجهم في هذا الباب فلما تبادلوا التحية قال للراهب كيف الزوجة والأولاد؟ يسأله كيف زوجتك وأولادك؟ فغضب من

حوله قالوا: كيف تسأله عن الزوجة والأولاد وهو راهب؟! يعني هذا لا يليق به، ثم قال لهم: كيف تنزهون الراهب عن الزوجة والأولاد وأنتم تقولون اتخذ الله صاحبة وولدا؟! فتثبتون لله ﷻ ما تنزهون رهبانكم عنه وما ترونه غير لائق برهبانكم، ترونه لا يليق بالرهبان وتثبتونه للعظيم الكريم الرحمن ﷻ!! فهذا من جاهلية هؤلاء الجهلاء وضلالتهم العمياء أنهم يثبتون لله ﷻ النقائص مما ينزهون بعض رهبانهم عنه.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثانية والأربعون: الشرك في الملك كقول المجوس**».

[الشرح]

«**الشرك في الملك**» هذا من أيضًا الجاهلية التي وجدت في هؤلاء الشرك في الملك؛ أي: بإثبات مالك وخالق مع الله تبارك وتعالى «**كشرك المجوس**» والمجوس: هم الذين يدَّعون وجود خالقين، خالق للخير وخالق للشر، خالق للنور وخالق للظلمة، فالمجوسية هي إثبات خالق مع الله تبارك وتعالى ومالك مع الله جل وعلا. ولهذا من أثبت لغير الله تبارك وتعالى حظًا من الملك الاستقلالي أو التسخير والتدبير والتصرف في هذا الكون ففيه مجوسية وهو في ذلك على نهج المجوس وعلى طريقتهم الذين يُثبتون خالقًا مع الله تبارك وتعالى.

ولهذا قال العلماء رحمهم الله عن القدرية نُفاة القدر -قدر الله عز وجل- قالوا هم مجوس هذه الأمة؛ لأن الذي يقول: «إن العبد هو الخالق لفعل نفسه» أثبت خالقًا مع الله، فكان فيه شبه من المجوس، وجاء في حديث يُرفع للنبي صلى الله عليه وسلم ويحسنه بعض أهل العلم: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «**الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ إِنْ مَرِضُوا فَلاَ تَعُودُوهُمْ وَإِنْ مَاتُوا فَلاَ تَشْهَدُوهُمْ**»[(١)].

كذلك يدخل في هذا الدهرية الذين يقولون: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾[الجاثية: ٢٤]، وسيأتي الكلام عليهم عند ذكر المصنف لهم.

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٩١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٤٢).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثالث والأربعون: جحود القدر**».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**الثالثة والأربعون: جحود القدر**» أي: إنكاره، والقدر قدرة الله عز وجل، والإيمان به ركن من أركان الإيمان وأصل من أصوله العظام، ولا إيمان لمن لم يؤمن بالقدر، ولهذا لما سأل جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، **قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»**[1]؛ فذكر عليه الصلاة والسلام الإيمان بالقدر في جملة أصول الإيمان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال جل وعلا: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠]، وقال جل وعلا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، وقال جل وعلا: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فالقدر أصل من أصول الإيمان وركن من أركان الدين، ولا إيمان لأحد إلا بالإيمان بالقدر، كما قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد،

(١) رواه مسلم (٨).

فمن آمن وكذب بالقدر فهو نقض للتوحيد»[١]، نقض تكذيبه -أي بالقدر- توحيده أي: لله ﷻ.

فلا يكون العبد مؤمنًا بالله موحداً إلا إذا كان مؤمنًا بأقدار الله ﷻ وأن الأمور كلها بقدر، وأن هذا الملك ملك الله، لا يمكن أن يكون فيه شيء أو أن يقع فيه شيء إلا بأذنه ﷻ وبعلمه.

ثم إن الإيمان بالقدر لا يصح إلا بالإيمان بمراتبه الأربعة التي جاءت مبينه في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهي:

أولاً: الإيمان بعلم الله ﷻ بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأنه ﷻ أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا.

والمرتبة الثانية: الإيمان بأن الله كتب مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ قبل خلقه السموات والأرض بخمسين ألف سنة كما جاء في الحديث الصحيح عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»[٢].

والمرتبة الثالثة: الإيمان بالمشيئة النافذة والقدرة الشاملة، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشاء لم يكن، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والمرتبة الرابعة: الإيمان بخلق الله ﷻ للأشياء، وأنه ﷻ خالق كل شيء، وأنه

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٩٢٥)، واللالكائي في «شرح الاعتقاد»(١٢٢٤).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٣).

ﷻ رب العالمين هو خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم لا شريك له في شيء من ذلك.

فهذه مراتب القدر، ولا يكون مؤمنًا بالقدر من لا يؤمن بهذه المراتب.

ولهذا الإيمان بالقدر حقيقته: الإيمان بعلم الله المحيط، وكتابته ﷻ لمقادير الخلائق، وأن الأمور بمشيئته سبحانه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه ﷻ الخالق لكل شيء، فمن لا يؤمن بهذه الأمور لا يكون مؤمنًا بالله ﷻ، ومن لا يكون مؤمنًا بالله لا يقبل الله ﷻ منه عمل، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، ولهذا جاء في الحديث أن عُبَادَة بْنِ الصَّامِتِ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»، يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- يَقُولُ: «**مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي**»[(١)].

فالذي لا يؤمن بالقدر يموت إن مات على ذلك يموت على غير مله الإسلام، لأن الإسلام جاء بالإيمان بقدر الله ﷻ.

الشاهد أن من جاهلية هؤلاء جحد القدر وعدم الإيمان به، إنكار القدر وعدم الإيمان به هذا من الجاهلية التي عند هؤلاء، ولا يعني ذلك أن جميعهم

(١) رواه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠١٧).

لم يكونوا مؤمنين بالقدر، بل بعضهم كانوا مؤمنين بالقدر مقرًا به، ويأتي في أشعارهم مثل قول أحدهم لمحبوبته:

يا عَبلُ أينَ من المَنيَّةِ مَهْربي   إن كانَ ربي في السَّماءِ قَضاها

هذا شاعر جاهلي؛ فيوجد فيهم من يؤمن بأن الأمور بقدر الله ﷻ، ويوجد فيهم من يجحد ومن يقول ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[الجاثية: ٢٤]، ونحو ذلك.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الرابعة والأربعون: الاحتجاج على الله به**».

[الشرح]

«**الرابعة والأربعون: الاحتجاج على الله به**» أي: بالقدر، وهذه نوع من المغالطة التي يمارسها أهل الجاهلية؛ يحتجون على باطلهم بالقدر، فإذا قيل لهم: لماذا تشركون؟ ولماذا ترتكبون الفحشاء؟ يقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، فيحتجون على باطلهم بالقدر وأن الله سبحانه وتعالى لو شاء ما فعلوا ذلك، فيحتجون على باطلهم بالقدر، وهذا جاهلية ومن طريقة أهل الجاهلية، فعندما يقال لشخص مثلاً لماذا لا تصلي؟ فيقول ما قدَّر الله لي الصلاة، هذه طريقة أهل الجاهلية، أو ما كتب الله لي الصلاة؛ فيحتج على باطله وعلى مخالفته بالقدر! فهذا نوع من الجاهلية، لأن الله سبحانه وتعالى قدَّر مقادير الخلائق وجعل للعبد مشيئة؛ يختار طريق الخير إن شاء، ويختار طريق الشر إن شاء ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾»[1].

---

(١) رواه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٥).

فيقال اعمل لمن عنده مشيئة، ولهذا قال سبحانه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩]، فالإنسان عنده مشيئة يختار بها طريق الخير ويختار بها طريق الشر، فكون الإنسان يحتج على باطلة أو على مخالفته أو على تركة لطاعة الله ﷻ بالقدر هذا من الجاهلية، بينما الواجب على العبد في هذا المقام أن يجاهد نفسه على فعل الصالحات والقيام بالطاعات، ويطلب من الله العون والثبات والسداد، أما أن يجلس معطِّلاً نفسه عن الخير مبتعدًا عن مسالك الخير ثم يقول الله ما كتب لي ذلك!!، هل جاهدت نفسك على الخير وهل رجوت الله وسألته وطلبت منه وألححت عليه ورجوته فحرمك؟، أم أنك حرمت نفسك بإعراضك وصدودك وتركك لطاعة ربك ﷻ؟

الشاهد أن هذه جاهلية كان عليها المشركون، ووجد في الأُمة من صار عنده وجه شبهٍ للمشركين بذلك، يحتج على تركه للطاعات أو على فعله للمنكرات بالقدر.

✽ ✽ ✽ ✽ ✽

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«المسألة الخامسة والأربعون: **معارضة شرع الله بقدره**».

[الشرح]

«**معارضة شرع الله بقدره**» وهذه أيضًا جاهلية؛ يعارضون الشرع بالقدر، وليس هناك معارضة إلا في رؤوس هؤلاء وأفهام هؤلاء، وإلا الأمر منتظم ولا تعارض.

فهؤلاء يعارضون شرع الله بقدره فيقولون: كيف يُقدِّر سبحانه وتعالى ما لا يرضاه شرعًا؟ يقدِّر الكفر مثلاً كونًا وقدراً والشرك وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] أي: لا يرضاه شرعًا ودينًا!! وهذا ليس فيه تعارض إلا في أفهام هؤلاء وعقول هؤلاء.

ولهذا سلكُوا هذا المسلك الباطل الآثم بأن عارضوا شرع الله سبحانه وتعالى بقدره وليس بينهما تعارض، لأن الله سبحانه وتعالى قدَّر الخير وقدَّر الشر، وابتلى عباده سبحانه وتعالى وامتحنهم واختبرهم ليميز الخبيث من الطيب، المؤمن من الكافر، الصادق من الكاذب، ابتلاهم سبحانه الله سبحانه وتعالى بذلك حتى يتحقق الامتحان ويتحقق صدق الصادق وكذب الكاذب، ومن المقبِل على الله سبحانه وتعالى حقًا من غيره؛ ولهذا كانت هذه الدنيا دار امتحان وابتلاء ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]؛ فيحتاج من العبد أن يُقبِل على شرع الله سبحانه وتعالى ودينه، وأن يحقق

العبودية لله ﷻ، وأن يسأل الله ﷻ دومًا وأبداً أن يثبته على الحق والهدى وأن يعيذه من الباطل والردى(١).

* * * * *

(١) فائدة: هل العبدُ مسيَّرٌ أو مُخيَّر؟

قال شيخنا العلامة عبد المحسن العباد البدر حفظه الله: «وأهل السُّنَّة والجماعة وسَطٌ بين الجبرية الغلاة في الإثبات، والقدرية النفاة؛ فإنَّهم أثبتوا للعبد مشيئةً، وأثبتوا للربِّ مشيئةً عامَّة، وجعلوا مشيئةَ العبد تابعةً لمشيئة الله، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فلا يقع في مُلك الله ما لَم يشأه الله، بخلاف القدرية القائلين: إنَّ العبادَ يخلقون أفعالَهم، ولا يُعاقب العباد على أشياء لا إرادة لهم فيها ولا مشيئة، كما هو قول الجبرية، وبهذا يُجابُ عن السؤال الذي يتكرَّر طرحُه، وهو: هل العبدُ مسيَّرٌ أو مُخيَّر؟ فلا يُقال: إنَّه مسَيَّرٌ بإطلاق، ولا مُخيَّرٌ بإطلاق، بل يُقال: إنَّه مُخيَّرٌ باعتبار أنَّ له مشيئةً وإرادةً، وأعماله كسب له يُثاب على حَسَنها ويُعاقَب على سيِّئها، وهو مسيَّرٌ باعتبار أنَّه لا يحصل منه شيءٌ خارجٌ عن مشيئة الله وإرادته وخلقه وإيجاده.» «قطف الجنى الداني» (ص١٠١).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة السادسة والأربعون: مسبة الدهر، كقولهم:** ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾[الجاثية: ٢٤]».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**السادسة والأربعون: مسبة الدهر، كقولهم** ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾»، الدهر: هو تقلب الليل والنهار، وتقلب الليل والنهار ليس لليل والنهار فيه اختيار، فهو مقلَّبٌ بتقليب الله تبارك وتعالى، فسب المقلَّب بلا اختيار منه سبٌّ لِمُقلِّبه، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «**قَالَ اللهُ عز وجل: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»[١]، قوله صلى الله عليه وسلم: «**وَأَنَا الدَّهْرُ**» ليس معناه أن الدهر اسم من أسماء الله وصفه من صفاته، بل معناه واضح؛ قال: «**وَأَنَا الدَّهْرُ**» ثم وضح المعنى قال: «**أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، أي: تقلُّب الليل والنهار -وهو الدهر- هو بتقليب الله، فسبُ المقلَّب سبٌ لمقلبه تبارك وتعالى، فالذي يسب الدهر يؤذي الله كما جاء في الحديث بهذه المسبة للدهر.

فهذه جاهلية سب الدهر، مثل قول الإنسان: «قاتل الله مثلاً هذا اليوم» أو نحو ذلك من الكلمات التي يسب فيها اليوم أو الساعة أو يلعن الساعة، أو هذا

(١) رواه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

الوقت أو نحو ذلك، فهذا كله من أفعال أهل الجاهلية التي جاء الإسلام بأبطاله والتحذير منه.

وكان الواحد من أهل الجاهلية إذا أصيب بضائقة أو شدة أو مرض أو نزلت به نازلة أو أصيب بحادث أو نحو ذلك سب اليوم أو سب الساعة التي حصل فيها ذلك الشيء أو لعنها أو نحو ذلك؛ هذا كله جاهلية، لأن الساعة واليوم والدقيقة والليل والنهار والشهور لا تملك لنفسها شيء، هي مقلبة بتلقيب الله، فسبها سب لمقلبها ومسخرها، سب المسخَّر سب للمسخِرِ ﷻ، فمن جاهلية هؤلاء الجهلاء سبُ الدهر(١).

(١) قال العلامة عبد العزيز بن باز ﷫: «كان العرب في الجاهلية ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد، سبوا فاعلها فكان مرجع سبها إلى الله ﷻ، إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يصفونها، فنهوا عن سب الدهر؛ وقد نقل هذا التفسير للحديث بهذا المعنى عن الشافعي، وأبي عبيد، وابن جرير، والبغوي وغيرهم»«مجموع الفتاوى» (١/ ١٤٧).

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة السابعة والأربعون: إضافة نعم الله إلى غيرة، كقوله تعالى** ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**المسألة السابعة والأربعون**» أي: من مسائل الجاهلية «**إضافة نعم الله إلى غيره**»؛ إضافة نعم الله من صحةٍ أو مالٍ أو ولدٍ أو غير ذلك من النعم التي يُمن الله سبحانه وتعالى بها على عباده، والنعم كلها منَّة الله كما قال جل وعلا: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[النحل: ١٨]، وكما قال جل وعلا: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فالنعم كلها نعمه سبحانه؛ فهو المنعم الكريم المعطي المنان الجواد سبحانه وتعالى.

فمن جاهليه أهل الجاهلية نسبة النعم إلى غير المنعم؛ نسبة النعم إلى من جعله الله سبحانه وتعالى سبباً في حصولها أو أيضا من لم يجعل الله سببا في حصولها، وينسون فضل الله سبحانه وتعالى ومنَّه وتوفيقه وتيسيره.

وأورد رحمه الله شاهد ذلك ودليله قول الله عز وجل: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ ، وهذه الآية جاءت قريبا من أواخر ﴿سورة النحل﴾، و يسميها بعض أهل العلم «سورة النعَم» لكثرة ما عدَّد الله سبحانه وتعالى فيها من نعمه على عباده بأنواع النعم المتعلقة بالمسكن والمأكل والمشرب والملبس.. وغير ذلك من نعمه تبارك وتعالى الكثيرة على عباده، فعدد جل وعلا فيها من نعمه ما لم يعدَّد في سور أخرى

ولهذا يسميها بعض أهل العلم «سورة النعم»، في تمام ذكره لهذه النعم قال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١] أي: لله ﷻ، وأيضًا قال في تمام هذه النعم: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ يعرفون أنها من الله في قرارة نفوسهم، وأنه ﷻ هو المنعم بها والمتفضل، لكن ينكرون نعمه الله بنسبتها إلى غيره، مثل أن يقول قائلهم عندما يحظى بنعمة: «إنما أوتيته على علم»، أو يقول «ورثته كابر عن كابر»، أو يقول «هذا بجدارتي وعرق جبيني وهذا بحذقي»، أو يقول «أنا أهل لذلك» أو نحو ذلك؛ فهذا كله داخل في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

قول القائل «إنما أوتيته على علم»، أو «هذا بحذقي وشطارتي وجدارتي» أو «أنا حقيق به» أو «ورثته كابرًا عن كابر» أو نحو ذلك كله داخل تحت قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾؛ يعرفون أنه هو المنعم ولكن ينكرونها بنسبتها إما إلى ما جعله الله سبحانه سببا لوجودها أو إلى ما لم يجعل ﷻ سببًا لوجودها، مثل قولهم: «مطرنا بنوء كذا وكذا» و النوء ليس سببا للمطر، بل سببه الافتقار إلى الله واستغفاره والتوبة إليه وفعل الطاعات ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

ولهذا كما أن المسلم مطالب أن يصون عقيدته مما يفسدها أو ينقضها فكذلك فهو مطالبٌ أن يصون ألفاظه من كل أمر يُخل بالإسلام لله وقدره ﷻ حق قدره ومعرفة منِّه وفضله ﷻ على العباد، فكما أن القلوب تصلح أيضا الألسنة ينبغي

أن تُصلح وتصان، فإذا منَّ الله ﷻ على عبده بنعمة وتفضل عليه بعطية عليه أن يذكر نعمة الله عليه، قد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله ليَرضى عن عبده أن يأكل الأَكلة فيَحمده عليها، أويشرب الشَّربة فيحمده عليها**»(١)، يعرف أن هذه الشربة وهذه الأكلة وهذا الملبس وهذا المسكن نعمته ﷻ فيحمد الله فيرضى عنه ربه سبحانه، وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ، قَالَ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ**»(٢)، يذكر نعمة الله عليه قبل أن ينام، فالمسلم يذكر نعم الله عليه في كل وقت.

فذكر النعمة والاعتراف بفضل الله ﷻ على عبده وحمده ﷻ وشكره على نعمه هذا الذي يتحقق به إيمان المسلم، أما إذا كان ينسب النعمة إلى غير المنعم بها فهذا من كفران النعم وهو داخلٌ في ما كان عليه أهل الجاهلية فيما أشير إليه في قوله ﷻ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

* * * * *

(١) رواه مسلم (٢٧٣٤).

(٢) رواه مسلم (٢٧١٥).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثامنة والأربعون: الكفر بآيات الله**».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**الثامنة والأربعون: الكفر بآيات الله**» أي: عدم الإيمان بها؛ بجحدها وعدم قبولها وعدم قبول ما تضمنته من الهدى والفلاح وسعادة الناس في الدنيا والآخرة.

فكان من صنائع أهل الجاهلية الكفر بآيات الله وهي كلامه ووحيه تبارك وتعالى المنزل على أنبيائه ورسله، ثم ماذا عندما يكفرون بآيات الله بأي شيء يؤمنون؟ تجدهم يؤمنون بالخرافة والضلال والأهواء والباطل، ويدعون النور الذي جاء في آيات الله تبارك وتعالى؛ وهذه جاهلية جهلاء، لا يؤمنون بآيات الله يكفرون بها وفيها عزهم وفلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، ويؤمنون بالخرافة والأوهام والشعوذة وكتب السحر والكتب المظلمة، يؤمنون بها ويقبِلون عليها، وكلام الله تبارك وتعالى وآياته ووحيه وتنزيله هذه لا يؤمنون بها بل يكذبون ويجحدون.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف ﷀ:

«**المسألة التاسعة والأربعون: جحد بعضها**».

[الشرح]

«**التاسعة والأربعون جحدُ بعضها**» أي: أنه لا يجحدها كاملة وإنما يجحد بعضها، ولاسيما إذا كان هذا البعض يخالف هواه ولا يوافق ما يُريد وما يتوجه إليه، ولهذا قال الله ﷻ في شأن اليهود: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[البقرة: ٨٥]؛ فيؤمن ببعض آيات الكتاب ويجحد بعضًا، يؤمن منها بما يوافق هواه، ويجحد منها ما كان مخالفًا لهواه ولتوجهُهِ؛ فهذا أيضا من الجاهلية لأن الآيات كلها كلام الله وكلها حق وهدى وسعادة وفلاح للإنسان في الدنيا والآخرة، فكونه يؤمن ببعضها ويجحد بعضها هذا تفريقٌ بين متماثل، كلها حق وكلها هدى وكلها ضياء ونور فما الذي يجعله يؤمن ببعض ويكفر ببعض والكل حق وهدى!! ما الذي فرَّق بين ما آمن به وما لم يؤمن به؛ فهذا كله من دلائل جاهلية هؤلاء.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الخمسون**: **قولهم**: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[الأنعام: ٩١]».

[الشرح]

الخمسون من مسائل الجاهلية: «**قولهم** ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾»؛ وهذه قالها اليهود جحداً لرسالة محمد ﷺ وما بعثه الله تبارك وتعالى به من الحق والهدى، لما جاء ﷺ بالقرآن الكريم كلام رب العالمين ووحيه وتنزيله سبحانه وتعالى قال اليهود ردًا لذلك وتكذيبًا به ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، ولاحظ كلمة هؤلاء الأفاكين المفترين! لم يقولوا فقط هذا الذي جئت به لم وادَّعيتَ أنه منزل من الله لم ينزل من الله، بل قالوا هذا الكلام العام قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾مطلقا؛ فهذا جحدا للكتب المنزلة كلها، وهذا يشمل أيضا التوراة التي يدَّعون الانتساب إليها وأنهم من أهلها، ولهذا جاء في السياق نفسه﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ التوراة التي تدَّعون أنكم تؤمنون بها من الذي أنزلها؟ فهم يقولون في ردهم وتكذيبهم للوحي المنزل على محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾؛ وهذه الكلمة فيها جحد لجميع الكتب المنزلة، والإيمان بكتب الله أصلٌ من أصول الإيمان قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾[الشورى: ١٥] أي: آمنتُ بكل كتاب أنزله الله على كل رسول، وهؤلاء قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ جحد للكتب المنزلة كلها، وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ

﴿بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦] ؛ «أل» في قوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾للاستغراق؛ أي: جميع الكتب المنزلة من قبل ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ فجحد الكتب المنزلة وعدم الإيمان بها كفرٌ بالله ﷻ؛ لأنها كتب الله فمن كفر بها فهو كافر بالله ﷻ.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الحادية والخمسون: قولهم في القرآن:** ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]».

[الشرح]

المسألة الحادية والخمسون من مسائل الجاهلية: «**قولهم**» أي: أهل الشرك وأهل الجاهلية «**في القرآن**» أي: في كلام الله تبارك وتعالى المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ أي: ليس كلام الله، وليس منزلًا من الله تبارك وتعالى، ولم يتكلم الله تبارك وتعالى به، بل هو قول البشر، أي: هذا كلام قاله بشر لم يقُله الله تبارك وتعالى وإنما قاله بشر أي: قاله أحد الناس، والنبي صلى الله وسلم لم يأتِ به من الله تبارك وتعالى، وهذا كفر وجاهلية جهلاء كان عليها هؤلاء؛ قالوا ذلك جحدا للحق ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾، وهذا الزعم زعم متكرر من أهل الجاهلية في رد الوحي، عندما يقولون: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ أي: أن هذا مخلوق من مخلوقات الله ليست صفةً من صفاته وليس من كلامه تبارك وتعالى؛ وهذا يؤدي إلى رد الوحي وامتهانه وعدم قبوله، بخلاف ما إذا آمن الإنسان بأنه وحي الله وتنزيله وكلامه فإن هذا يورث الإنسان تعظيم الكلام والعناية به وقدره حق قدره؛ فكان من جاهلية هؤلاء المتكررة عبر التاريخ الادّعاء بأن الوحي المنزل من الله تبارك وتعالى ليس من كلام الله.

ولهذا في القرآن ورد في سياق تكذيب بعض أمم الأنبياء لأنبيائهم قولهم لهم:

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خَلْقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧] وفي قراءة ﴿إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، مثل قول الوليد هنا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ أي: مخلوق ليس من كلام الله ﷻ.

فالقول بأن القرآن مخلوق هذه جاهلية ميراث موروث من أهل الجاهلية، والذي يقول أن القرآن مخلوق وأنه ليس كلام الله ﷻ هذه تركة وُرثت من أهل الجاهلية، وقد قال ﷺ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا...**»[1]، ويوجد في المنتسبين للإسلام من يدَّعون ذلك؛ يدَّعون أن القرآن مخلوق وأنه ليس كلام وأنه إما عبارة عن كلام الله أو حكايةٌ عنه، وأن الله بزعمهم -تعالى عما يقولون- لا يتكلم، فهذا كله جاهلية وضلال وإفك وقول على الله ﷻ بلا علم.

فالقرآن كلام الله، قال ﷻ ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، فالقرآن كلام الله، والتوراة كلام الله، والإنجيل كلام الله، ولا يزال رب العالمين يتكلم متى شاء بما شاء كلامًا يليق بجلاله وكماله وعظمته، وكما أنه ﷻ له ذاتٌ لا تشبه الذوات فهو ﷻ له صفات تليق بجلاله وكماله منها الكلام لا تشبه الصفات، فنؤمن بذلك ونقر به ونثبت لربنا ﷻ الكلام ونقول: إن القرآن كلام الله ﷻ منه بدأ وإليه يعود، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ٢]، فهو من الله هو الذي تكلم به ﷻ، فمن قال في القرآن غير ذلك فهذه جاهلية،

(١) () رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

والله ﷻ توعد في هذا السياق من قال هذا القول الآثم والكلام الباطل ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ توعده ﷻ بقوله ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر: ٢٦-٢٨] إلى آخر الآيات.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف ﵀:

«**المسألة الثانية والخمسون: القدح في حكمة الله تعالى**».

[الشرح]

«**الثانية والخمسون: القدح في حكمة الله تعالى**» وهذا من الجاهلية؛ الزعم بأن مشيئة الله وأفعاله ﷻ تصدر عن غير حكمة، فينفون الحكمة في أفعاله ﷻ، وهذا من الجاهلية لأنه ﷻ لا يفعل الشيء إلا عن حكمة، وهو ﷻ حكيمٌ ومن أسمائه «الحكيم» الذي له الحكمة البالغة ﷻ في كل أفعاله، ولا يفعل شيئا إلا عن حكمة: خلق الخلق لحكمة، وأوجدهم لحكمة، وشرع الشرائع لحكمة وأمر بالأوامر ونهى عن النواهي لحكمة، لا يأمر بشي إلا وفيه مصلحة ونفع للعباد، ولا ينهى عن شيء إلا فيه مضرة على العباد، فمن جاهلية أهل الجاهلية ومَن أخذ بسنة أهل الجاهلية من فِرق الضلال نفى الحكمة عن الله، قد وُجد في بعض الفرق المنتسبة للإسلام نفي الحكمة ويقولون إن الله ﷻ يفعل بمشيئة يخلق ويوجِد ونحو ذلك لا عن حكمة، فينفون الحكمة والتعليل في أفعال الله ﷻ، وهذه جاهلية جهلاء.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثالثة والخمسون: إعمال الحيَل الظاهرة والباطنية في دفع ما جاءت به الرسل، كقوله تعالى:** ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٥٤]، **وقوله تعالى:** ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران: ٧٢]».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**المسألة الثالثة والخمسون: إعمال الحيل الظاهرة والباطنية في دفع ما جاءت به الرسل**» وهذه من طرائق أهل الجاهلية يحتالون على الشرائع وعلى ما جاءت به الأنبياء ويبحثون عن دفعه وردِّه بأنواع الحيل، وكلما أُمروا بأمر أرادوا أن يتفلتوا منه وأن يتخلصوا منه بأي حيلة وبأي طريق.

ومن أكثر الأمم فعلا للحيل اليهود، وهم أهل مكر.. أهل مكر كبار، وأهل احتيال واسع للتخلص من الشرائع والتنصل مما يأمرهم الله تبارك وتعالى به، فأهل حيل كثيرة جداً مرادهم بها التخلص من أوامر الله تبارك وتعالى.

والله عز وجل ذكر شيئا من حيل هؤلاء على وجه التحذير للأمة من أن يفعلوا مثل فعلهم، مثل ما ذكر تبارك وتعالى من نهيه لهم عن اصطياد الأسماك في يوم السبت، فلما نهاهم عن ذلك احتالوا، فكانوا يضعون الشباك في البحر يوم الجمعة ويأخذونها يوم الأحد، وهذه من حيل اليهود، والله عز وجل لما نهاهم عن الاصطياد يوم السبت ابتلاهم؛ فأصبح الصيد يكثر كثرةً مغرية يوم السبت ويفتقدونه في

الأيام الأخرى، فاحتالوا على شرع الله ﷻ فكانوا يضعون الشِباك يوم الجمعة ويأخذونها ممتلئة بالأسماك يوم الأحد، وهم بزعمهم أنهم لم يباشروا صيداً يوم السبت.

وهذا الذي ابتلى الله ﷻ به اليهود ابتلى به أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام؛ فهو ﷻ نهاهم عن الصيد وهم حُرم، فكان الصيد يأتي تناله رماحهم وأيديهم، يأتي الصيد وهم من أهل الصيد ويحبون الصيد وتتوق نفوسهم للصيد فنهاهم الله ﷻ عن الصيد فابتلاهم الله أن تنال الصيد رماحهم وأيديهم، حتى لو بيده يريد أن يمسكه يستطيع، فما كانوا يتعرضون عليه، ففرق بين أهل الإيمان والصدق مع الله ﷻ، وبين أهل المكر والاحتيال والكيد.

فالمكر والاحتيال والكيد من طرائق أهل الجاهلية، أما المؤمن فإنه يتلقى أوامر الله سبحانه وتعالى بالقبول والانقياد والاستسلام، ولا يحتال على أوامر الله ﷻ، ولا يبحث لنفسه عن حيل يُمشي بها الأمر ويتعدى بها حدود الله ﷻ، وهذا الاحتيال يدخل على نفس الإنسان عندما تُريد أن تتفلت من الأوامر وتتخلص منها فيبدأ يبحث عن الحيل التي يتخلص فيها بزعمه من أمر الله ﷻ.

قال: «**كقوله** ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾» وهذه الآية جاءت في سياق بيان حال اليهود ومكرهم الكبار في التفلُّت من أوامر الله ﷻ والتخلص من شرائعه وما يأمر به تبارك وتعالى عباده بالمكر؛ أي: بالاحتيال وأنواع التلبيس الذي يريدون به التخلص مما يأمرهم الله به ﷻ به.

قال: «**وقوله**: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾» وهــذه أيضا داخلة فيما سبق من احتال اليهود ومكر اليهود وسعيهم أيضا في نشر الباطل، يحتالون مثل هـذه الحيل من أجل نشر الباطل ورد الحق. ومـاذا يقصد هؤلاء بهذه الطريقة ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ لأنهم بهـذه الطريقة يريـدون خلخلة أهل الإيمان وإدخال الشكوك عليهم، مثل أن يأتي مجموعة من هؤلاء أهل الكتاب ويدخلون في الإسلام ويقولون اقتنعنا أنه الدين الحق وآمنا، فـي الصباح الباكر يأتون ويقولون نحن اقتنعنا بأن دينكـم دين الحق وأنه مـن الله وأن فيـه الهدى وها نحن نعلن إيماننا ونعلن إسلامنا؛ هذا في أول النهار كذبا ليس عن قناعة ولا عن صدق، ثم في آخر النهار يقولون لا، نحن تبين لنا أن هذا دين غيـر صحيح وأنه دين كاذب وأنه دين ملفق فنحن نرجع، فهـذه الطريقة يسلكها بعض هؤلاء مـن أجـل خلخلة أهل الإيمان وتشكيكهم في الدين؛ فيبدأ الضعفاء والجهلة يقولون هؤلاء آمنوا وعرفوا الدين واقتنعوا بما فيه ثم في آخر النهار كفروا!! إذا يوجد خلل في هذا الدين، فيبدأ الشك يدخل على الجهلاء والضعفاء، فهذه حيلة يفعلها هؤلاء من أجل تشيك الناس في دينهم، ويطلبون من بعضهم أو يتواصون على أن يؤمنوا بالكتاب أو يعلن بعضهم الإسلام لوقت معين ثم يرجع، ومرادهم بهذه الحيلة تشكيك الناس تشكيك أهل الأيمان في دينهم، خلخلة إيمـانهم؛ فهذه كلها مـن حيـل اليهود وحيل أهل الضلال والباطل، وهذا كله من الجاهلية.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الرابعة والخمسون: الإقرار بالحق ليتوصلوا به إلى دفعِه، كما قال في الآية**».

[الشرح]

هذا كالتفصيل لما سبق؛ من جاهلية هؤلاء «**الإقرار بالحق ليتوصلوا به إلى دفعه**» وهذه حيلة يفعلها هؤلاء ليتوصلوا من خلالها إلى دفع الحق ورد الدين الذي بُعث به أنبياء الله تبارك وتعالى ورسله عليهم صلوات الله وسلامه، فيحتالون مثل هذه الحيل من أجل أن يتوصلوا من خلالها إلى دفع الحق.

قال: «**الإقرار بالحق**» أي: الإقرار الظاهري ظاهراً بالحق؛ فيعلنون أنهم مثلا أسلموا وأنهم آمنوا بما جاء به الرسول ظاهرا؛ من أجل أن يتوصلوا إلى دفعه بعد أن يمكثوا فترةً ليست بطويلة مقرين بالحق معلنين الدخول فيه يعلنون بعد ذلك رجوعهم، مجموعة منهم تعلن الإقرار بالحق ثم بعد وقتٍ ليس بالطويل يعلنون رجوعهم عن الحق.

ومرادهم مرادهم أصلا بالدخول والإقرار ومن ثم الرجوع مرادهم بذلك كله دفع الحق، طريقه يفعلونها واحتيال يحتلونه من أجل دفع الحق ورده وإدخال الشك على أهله.

[المتن]

قال المؤلف ﵀:

«**المسألة الخامسة والخمسون: التعصب للمذهب، كقوله فيها:** ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣]».

[الشرح]

قال ﵀: «**الخامسة والخمسون: التعصب للمذهب**» أي: المذهب الذي هم عليه والمسلك الذي يسلكونه بعجره وبُجره وكيفما كان، ولو كان كله أهواء وكله ضلال وكله باطل يتعصبون له تعصبًا أعمى ولا يحيدون عنه قيد أنملة بل يتمسكون به وينافحون عنه ويدافعون متعصبين له تعصبًا أعمى.

لهذا وضعوا قاعدة لأنفسهم يعلنون فيها تعصبهم لمذهبهم ذكرها الله ﷻ في قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾؛ أي: لا تقبلوا من أحد مهما يقول لكم، حتى لو ما كان يقوله حق بيِّن، ونور واضح، فلا تقبلوا من أحد إلا لمن تبع دينكم؛ أي: من كان معكم على دينكم وعلى مذهبكم اقبلوا منه، أما من لم يكن كذلك إياكم أن تأخذوا منه حرفًا واحدا أو تقبلوا منه شيئا.

فهذا من الجاهلية؛ لأن الحق أحق أن يُتبع، والواجب على صاحب الحق أن يقبل الحق أينما وجده، فالتعصب الأعمى جاهلية كان عليها أهل الضلال والباطل وجاء الإسلام بإبطال ذلك ودعوة الناس إلى الإيمان بالحق وإلى التفكر، وإلى الخروج من ربقة التقليد الأعمى والتعصب الأعمى، والنظر في الأمور والوقوف عند الأدلة والحجج، والتوجه إلى الله ﷻ بالسؤال

بالهداية، قد كان نبينا عليها الصلاة والسلام يقول فـي استفتاحه لصلاة الليل: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، أهدني لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»(١).

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١) رواه مسلم (٧٧٠).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة السادسة والخمسون: تسمية اتِّباع الإسلام شركًا كما ذكره في قوله تعالى** ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ **[آل عمران: ٧٩]**».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**المسألة السادسة والخمسون: تسمية اتباع الإسلام شركا**» أي: شركا بالله عز وجل، وهذه من الأمور التي فعلها أهل الجاهلية لرد الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

وذكر المصنف رحمه الله شاهداً لهذه الجاهلية فقال: «**كما ذكره الله تبارك وتعالى في قوله:** ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾» وقد ذكر العلماء -رحمهم الله تبارك وتعالى- في كتب التفسير وغيرها في سبب نزول هذه الآية: «حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك، كما تعبد النصارَى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرِّبِّيس: أوَ ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعونا! أو كما قال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: معاذَ الله أن نَعبُد غيرَ الله، أو نأمر بعبادة غيره! ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني أو كما قال، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿مَا

كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾، الآية إلى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١).

فسمَّوا الذي دعاهم إليه ﷺ من التوحيد والاستسلام لله والانقياد له وتحقيق توحيده ﷻ «شركا».

ولهذا أنزل الله ﷻ في إبطال دعوى هؤلاء مُبرئًا رُسله كلهم من ذلك فقال: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فالرسل مبرءون من ذلك، منزهون من أن يقولوا مثل هذه المقالة.

وبهذا يُعلم الفساد العريض الواسع الذي يقع فيه بعض من ينتسب إلى دين محمد ﷺ ثم يتخذه معبودًا من دون الله يصرف له أنواع العبادة؛ يدعوه ويستغيث به ويلتجئ إليه ويطلب منه المدد والعون، فهذا كله مناقض تمام المناقضة لهذه الآية، ومناقض تمام المناقض للإسلام الذي بُعث به ﷺ، لأنه بعث بما بُعث به جميع الأنبياء من إخلاص الدين لله وأفراده ﷻ بالعبادة وأن العبادة لا يُصرف منها شيء منها لأحدٍ كائن من كان، لا لنبي مرسل ولا ملك مقرب ولا لغيرهما من مخلوقات الله ﷻ، لأن العبادةً حق لله ﷻ لا يُصرف شيء منها إلا له ﷻ.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٥٣٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٤٨٤).

[المتن]

قال المؤلف ﵀:

«**المسألة السابعة والخمسون: تحريف الكلم عن مواضعه**».

[الشرح]

المسألة السابعة والخمسون: «**تحريف الكلم**» أي: كلام الله ﷻ «**عن مواضعه**» أي: التي أنزل عليها، وكلام الله ﵎ أنزل مشتملا على الحق والنور والهدى والضياء، وقد سلك أهل الجاهلية في رد كلام الله ﷻ المشتمل على الحق والنور مسالك كثيرة من أجل رده، منها التحريف؛ تحريف الكلم عن مواضعه، ولهذا قال ﷻ في ذمه لليهود: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

والتحريف: هو التغيير والتبديل، ويكون التحريف بتغيير الألفاظ، ويكون أيضًا بتغير المعاني.

يكون التحريف بتغيير الألفاظ: أي: يغيروا ألفاظ كلام الله، مثل ما صنع اليهود في تحريف التوراة، حرفوها تحريفًا واسعا وغيروا فيها وكتبوا أشياء بأيديهم وزعموا أنها من كلام الله وزادوا ونقصوا وبدلوا وغيروا في كلام الله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾أي: يبدلونه بتغيير ألفاظه.

أو يبدلونه بتغيير معانيه ومدلولاته؛ ومن أمثلة تحريف اليهود ما جاء في الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ**

ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ. فَبَدَّلُوا فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ»(١).

الله ﷻ لما أمرهم أن يقولوا حطّة أي: حُط عنا خطايانا وأن يدخلوا الباب سجدًا حرفوا ذلك فزادوا نونًا قالوا حنطة أي: حبة من حنطة، فتغير المعنى وتغير المدلول وفسد المراد، لأنهم قيل لهم قولوا حطة أي: حط عنا خطايانا فزادوا نونا قالوا: «حنطة» تحريفًا للكلم، وقال: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ فدخلوا الباب على أَسْتَاهِهِمْ وعلى ظهورهم؛ كل ذلك مخالفه وتغيير وتبديل لما أمرهم الله ﷻ به.

فهذا من الجاهلية؛ سواء تحريف الألفاظ أو تحريف المعاني، وهذه السنة التي كان عليها اليهود وُجِد أيضًا في المنتسبين إلى محمد ﷺ وإلى دين الإسلام من سلكُوا هذا المسلك، وتحريف ألفاظ القرآن غير مستطاع، لأن الله ﷻ حفظ القرآن وصانه عن ذلك، فاشتغلوا بتحريف المعاني، وقيَّض الله ﷻ من الأئمة العدول علماء الإسلام من ينفون عن كلام الله تحريف المبطلين وتأويل الجاهلين، فوُجد من يحرف في الكلام ويبدل ويغير ويحمل القرآن على غير معناه وعلى غير مدلوله، سواء في صفات الله ﷻ أو في أمور الدين الأخرى بين مقلٍّ أو مستكثر، ومن يقرأ دين الباطنية يرى تحريفًا لمعاني كلام الله ﷻ شنيعًا عجيبًا فيه إلغاء للشرائع والعقائد ولكل ما جاء عن الله ﷻ، لأن كل شيء من كلام الله له تفسير عندهم على ما يهوونه، وهكذا أهل الباطل من أصحاب

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٣٠١٥).

العقائد الفاسدة أيضًا يشتغلون بالتحريف؛ تحريف الأسماء وتحريف الصفات وتحريف ما لا يوافق أهواءهم من كلام الله ﷻ، فهذا كله من الجاهلية التي جاء الإسلام بإبطالها.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف ﵀:

«**المسألة الثامنة والخمسون: لَيّ الألسنة بالكتاب**».

[الشرح]

قال ﵀ المسألة الثامنة والخمسون: «**لي الألسنة بالكتاب**» يلوون ألسنتهم بالكتاب أي: يحركونها به ليُظن أنهم من أهل الكتاب، وهم ليس من أهل الكتاب ولكن هذا المسلك سلكه هؤلاء ليُظن أنهم من أهل الكتاب ومن ثم يتوصلوا إلى ما يريدونه من باطل وإلى ما يريدونه من ضلال؛ فهذا أيضًا من أعمال الجاهلية، يحرك لسانه بالكتاب تلاوةً ترتيلا ليُظن أنه من أهل الكتاب وهو ليس من أهله.

بل مما يُذكر وهو من عجيب ما يُذكر: أن بعض المنصرين بعبارة حفظ القران لا لشيء إلا ليشكك الناس وليلبِّس عليهم وليثير المتشابه في بينهم وليشككهم في دينهم، فمن ينظر إليه ويجده يحفظ آيات من القرآن يطمئن إلى ما سيقول، ثم يجعل هذا منفذًا له لنشر ما عنده من ضلال وباطل، وهذه من طرائق أهل الضلال.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة التاسعة والخمسون: تلقيب أهل الهدى بالصباة الحشوية**».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**التاسعة والخمسون تلقيب أهل الهدى بالصباة**» أي: الصابئة «**والحشوية**» أي أهل الحشو، حشو لأمور ليس فيها فائدة وليس من ورائها طائل؛ فينبزونهم بالألقاب، ينبزون أهل الحق بالألقاب فيقولون صابئة أو يقولون حشوية أو يقولون غثاء أو غُثر أو نحو ذلك من الكلمات التي يطلقونها على أهل الحق وأهل الهدى من أجل تنفير الناس عن الحق والهدى، لما عجزوا عن مقاومة الحجج والبينات وأفلسوا من ذلك لجؤوا إلى حيلة المفلسين وهي: الكذب الرخيص والدعايات الملفقة؛ هؤلاء صائبة، وهؤلاء حشوية(١)،

(١) وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أصل هذه الكلمة، وأول من أطلقها واستعمالها عند الفرق؛ فقال رحمه الله: «وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ: (حَشْوِيَّةٌ) فَهَذَا اللَّفْظُ لَيْسَ لَهُ مُسَمًّى مَعْرُوفٌ لَا فِي الشَّرْعِ وَلَا فِي اللُّغَةِ وَلَا فِي الْعُرْفِ الْعَامِّ؛ وَلَكِنْ يُذْكَرُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ بِهَذَا اللَّفْظِ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ، وَقَالَ: كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ حَشْوِيًّا، وَأَصْلُ ذَلِكَ: أَنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ قَالَتْ قَوْلًا تُخَالِفُ بِهِ الْجُمْهُورَ وَالْعَامَّةَ يُنْسَبُ إلَى أَنَّهُ قَوْلُ الْحَشْوِيَّةِ أَيْ: الَّذِينَ هُمْ حَشْوٌ فِي النَّاسِ لَيْسُوا مِنْ الْمُتَأَهِّلِينَ عِنْدَهُمْ؛ فَالْمُعْتَزِلَةُ تُسَمِّي مَنْ أَثْبَتَ الْقَدَرَ حَشْوِيًّا، وَالْجَهْمِيَّةُ يُسَمُّونَ مُثْبِتَةَ الصِّفَاتِ حَشْوِيَّةً، وَالْقَرَامِطَةُ - كَأَتْبَاعِ الْحَاكِمِ - يُسَمُّونَ مَنْ أَوْجَبَ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْحَجَّ حَشْوِيًّا، وَهَذَا كَمَا أَنَّ الرَّافِضَةَ يُسَمُّونَ قَوْلَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ قَوْلَ الْجُمْهُورِ وَكَذَلِكَ الْفَلَاسِفَةُ تُسَمِّي ذَلِكَ قَوْلَ الْجُمْهُورِ فَقَوْلُ الْجُمْهُورِ وَقَوْلُ الْعَامَّةِ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ، فَإِنْ كَانَ قَائِلُ ذَلِكَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْخَاصَّةَ لَا تَقُولُهُ؛ وَإِنَّمَا تَقُولُهُ الْعَامَّةُ وَالْجُمْهُورُ فَأَضَافَهُ إلَيْهِمْ وَسَمَّاهُمْ حَشْوِيَّةً» «مجموع

هؤلاء نابتة، هؤلاء غثر، هؤلاء كذا، ألقاب يطلقونها على أهل الحق والهدى من أجل أن ينفِّروا الناس عنهم. وهذه طريقة موجودة عند أهل الباطل في قديم الزمان وحديثه؛ فإذا أرادوا تنفير الناس عن حقٍ أو هدى لقَّبوا من عنده الحق بالألقاب ليُنفروا عن الحق الذي معه.

* * * * *

الفتاوى» (١٢/ ١٧٦).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الستون: افتراء الكذب على الله**».

[الشرح]

قال: «**الستون: افتراء الكذب على الله**» وهذا كثيرٌ عند أهل الباطل؛ يفترون الكذب على الله سبحانه وتعالى وينسبون إليه افتراءً وكذباً ضلالهم وباطلهم وما هم عليه من نحل زائفة وعقائد باطلة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾[النحل: ١١٦].

فهؤلاء من طرائقهم الكذب على الله سبحانه وتعالى وذلك بنسبة ما هم عليه من العقائد باطلة والأديان الفاسدة إلى الله عز وجل.

يقولون: هذا الذي نحن عليه هو دين الله، ويقولون هذا من عند الله، أو يقولون: الله الذي حرم هذا أو الله الذي حلل هذا كذباً وافتراءً على الله سبحانه وتعالى؛ فهذا من مسالك أهل الجاهلية.

والكذب على رسل الله من الكذب على الله، لأن الرسل مبلغون عن الله، وقد قال ﷺ: «**وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»(١)، ولهذا أهل

(١) رواه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٤).

البدع استغلوا هذا المسلك القبيح: الكذب على الرسول ﷺ من أجل نشر بدعهم ونشر خرافاتهم.

و سبق ذكر بعض الأمثلة على ذلك فيما سبق؛ بعض المشركين عبدة الأوثان وعبدة القبور يقول: قال ﷺ: (إذا أعيَتكم الأمور فعليكم بأهل القبور) والعياذ بالله، هذا كلام لا يقوله مشرك فضلًا أن يقوله مسلم، فضلا أن يقوله عالم، فضلا أن يقوله نبي الله ﷺ، بل النبي ﷺ قال: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[(١)].

وقول بعض الكذبة أيضًا من المشركين إن النبي ﷺ قال: (لو اعتقدت في حجر نفعك)؛ هذا كلام المشركين أهل القبور وأهل الشرك وأهل الوثنية، وينزه كل مسلم وكل عالم فضلا عن نبي الله ورسوله ﷺ عن مثل هذا الكلام الفاسد الباطل.

فالشاهد أن أهل الجاهلية في قديم الزمان وحديثه من طرائقهم الكذب على الله والكذب على رسُله عليهم صلوات الله وسلامه.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

[المتن]

قال المؤلف ﵀:

«**المسألة الحادية والستون: التكذيب بالحق**».

[الشرح]

«**الحادية والستون: التكذيب بالحق**» يكذبون على الحق ويكذِّبون بالحق؛ يكذبون على الحق على رب العالمين، ويكذِّبون بالحق الذي جاءهم من الله تبارك وتعالى يجحدونه ولا يؤمنون به، فجمعوا بين سوأتين في باب التكذيب:

- **الأولى**: الكذب على الله بنسبة الأديان الفاسدة الباطلة التي هم عليها إلى الله ﷻ.
- **والثانية**: التكذيب بما جاءهم من الله يكذِّبون به.

فجمعوا بين سوأتين: تكذيبٌ بالحق الذي جاءهم من الله ﷻ، وكذبٌ على الله بنسبه الباطل الذي هم عليه إلى الله ﵎، وكل ذلك جاهلية.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثانية والستون: كونهم إذا غلبوا بالحجة فزعوا إلى الشكوى للملوك كما قالوا:** ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٧]».

[الشرح]

هذا من طريقه أهل الجاهلية ومن مسالك المفلسين من الحجج والبراهين، لهم مسالك كثيرة منها هذا المسلك الذي ذكره المصنف رحمه الله: «**كونهم إذا غلبوا بالحجة**» أي: لم يستطيعوا مقاومة حجة بحجة وبرهان ببرهان «**يلجئون إلى الشكوى للملوك**» كيف يصنعون؟ يأتون إلى الملك ويقولون له: إن فلان يسعى للإطاحة بملكك ويخطط لأن يكون هو الملك، وهكذا يلفقون بأشياء ويكذبون كذبات من أجل أن يتسلط الملك عليه، فهذه طريقة من طرائق أهل الجاهلية، ولهذا قال: «**كونهم إذا غلبوا بالحجة فزعوا إلى الشكوى للملوك**» وطريقتهم في الشكوى متكررة، ماذا يقولون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تتركهم هكذا يفسدون ويعثون في الأرض فساداً!! حتى ملكك الذي أنت عليه يتضرر من هذا الفساد الذي هم يسعون فيه، ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾ أي: أتترك موسى؟! إلى متى تتركه على هذا؟ فيحرضون الملوك حتى يتسلطوا على أهل الحق فهذه طريقة من طرائق أهل الجاهلية.

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كان من دعاة الحق وأئمة الهدى، ولما عجز

خصومه من أهل البدع وأهل الضلال وأهل الباطل عن مقاومة الحجج التي معه سلكوا هذه الطريقة، وذهبوا إلى الوالي وقالوا له مفترين وكاذبين: أن الإمام ابن تيمية ﵀ يخطط أن يكون هو الوالي وأن تكون الولاية له، وإلى متى تتركه؟ فقام الوالي واستدعى شيخ الإسلام ابن تيمية وأخذ يسائله ويحقق معه في هذا الموضوع، فقال له شيخ الإسلام ابن تيميه ﵀: «بنفس مطمئنة وقلب ثابت وصوت عال سمعه كثير ممن حضر أنا أفعل ذلك **والله إن ملكك وملك المغل لا يساوي عندي فلسين**، فتبسم السلطان لذلك وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة إنك والله لصادق وإن الذي وشيء بك إلي كاذب»[1]؛ رجل معروف بالعلم والاشتغال بالدعوة إلى الله وبالتعليم ولا يفكر أصلا ولا يخطر في باله مثل هذا الأمور.

فالشاهد أن هذا من الطرائق التي يسلكها أهل الباطل وأهل الضلال؛ الفزع إلى الملوك بالشكوى إليهم وتلصيق التُّهم الافتراءات على أهل الحق.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) «الأعلام العلية» (ص٧٣).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثالثة والستون: رميهم إياهم بالفساد في الأرض كما في الآية**».

[الشرح]

«**رميهم إياهم**» أي: دعاة الحق من الأنبياء وأتباع الأنبياء من الدعاة الحق «**بالفساد في الأرض كما في الآية**» أي: المتقدمة.

فهذا من مسالك أهل الباطل يزعمون أن أهل الحق يفسدون في الأرض، ولهذا قالوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فزعموا أن موسى وقومه أي: الذين كانوا معه على الحق والهدى أنهم من المفسدين في الأرض، ولهذا بالمقابل لما سعى فرعون لنقض ما جاء به موسى ماذا قال للناس ؟ قال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] يعني لا أهديكم إلى السبيل الذي هو الإفساد الذي عليه موسى، أهديكم إلى سبيل الرشاد: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ كلمة في الظاهر جميلة لكنها تحمل الكفر والباطل؛ وهذه طريقة أهل الباطل، يلمِّعون الشيء الذي يدعون إليه ويصفونه بالصفات الجميلة حتى يُقبل، وأيضا يقعون في أهل الحق كذباً وافتراءً حتى ينفُر الناس منهم، مثل قولهم عن أهل الحق أنهم مفسدين في الأرض وأنهم من أهل الفساد في الأرض من أجل صد الناس عن الحق الذي معهم.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الرابعة والستون: رميهم إياهم بانتقاص دين الملك، كما قال تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[الأعراف: ١٢٧]، وكما قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ [غافر: ٢٦]**».

[الشرح]

قال: «**الرابعة والستون رميهم إياهم**» أي: رمي أهل الجاهلية أهل الحق «**بانتقاص دين الملك**» هذه من الطرائق «**كما قال تعالى**: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾» قال أهل الضلال لفرعون منفرين من موسى عليه السلام: أن موسى جاء بدين يريد أن يتوصل به إلى إلغاء ما أنت عليه من الدين الصحيح ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ أي: يلغي كل ما أنت عليه من الحق والهدى، هكذا قالوا لفرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ و قالوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾.

«**وكما قال تعالى** ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾» أي: يغير الدين الحق الذي أنتم عليه، فهذه من طرائق أهل الجاهلية في رد الحق والهدى.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الخامسة والستون: رميهم إياهم بانتقاص آلهة الملك كما في الآية**».

[الشرح]

«**رميهم**» أي: أهل الجاهلية «**إياهم**» أي: أهل الحق «**بانتقاص آلهة الملك**».

قال: «**كما في الآية**» أي: المتقدمة ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ فيقولون: هذا جاء ينتقص من الآلهة ويحط من شأنها ويقلل من قدرها فجعلوا هذا مسلكًا أيضا لهم للتنفير من الحق والصد عنه.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة السادسة والستون: رميهم إياهم بتبديل الدين كما قال تعالى:** ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]».

[الشرح]

«**رميهم**» أي: أهل الجاهلية «**إياهم**» أي: أهل الحق «**بتبديل الدين**» تبديله: أي تغيره.

كما قال تعالى فيما ذكر عن فرعون أنه قال لقومه ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ أي: أخاف عليكم من موسى أن يبدل دينكم ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ وهذا من قبيل: «رمتني بدائها وانسلت»، فهذا صنيع فرعون، وهو إظهار الفساد في الأرض، بل أعظم الفساد في الأرض جاء على يديه وعلى يدي أمثاله ومن هم على شاكلته، وأما موسى عليه السلام وبقية الأنبياء جاءوا بالحق والهدى وصلاح الناس وجاءُ بما تدعوا إليه الفطر السليمة والعقول السليمة، هذا الذي جاء به موسى عليه السلام، لكن هؤلاء من أجل التنفير والصد عن الحق والهدى يقولون مثل هذا الكلام، قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة السابعة والستون: رميهم إياهم بانتقاص الملك كقولهم** ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[الأعراف: ١٢٧]».

[الشرح]

الشاهد من الآية قوله: ﴿وَيَذَرَكَ﴾ أي: يتركك ويلغي مكانتك ومنزلتك، وهذا فيه انتقاص لك وحط من شأنك وقدرك.

فهذه من طرائق هؤلاء: رمي أهل الحق بانتقاص الملك مثل ما جاء في هذه الآية: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثامنة والستون: دعواهم العمل بما عندهم من الحق، كقوله: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١]، مع تركهم إياه**».

[الشرح]

ثم ذكر المسألة الثامنة والستون: «**دعواهم العمل بما عندهم من الحق**»؛ هذا ادَّعاء، لكن من حيث الواقع العملي خلاف ذلك، فيدَّعون أنهم يعملون بالحق الذي عندهم لكن في حقيقة الأمر حتى الحق الذي عندهم هم مضيِّعون غير عاملين به، قال: كقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وهم في الواقع حتى الذي أُنزل عليهم مفرطين فيه ولهذا قال المصنف: «**مع تركهم إياه**».

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة التاسعة والستون: الزيادة في العبادة، كفعلهم يوم عاشوراء**».

[الشرح]

«**المسألة التاسعة والستون: الزيادة في العبادة**»؛ أي: الزيادة على حد المشروع، على حد ما شرع الله لهم.

«**كفعلهم يوم عاشوراء**» أي: يوم العاشر من محرم، وهو اليوم الذي أهلك الله سبحانه وتعالى فيه فرعون وجنوده بالغرق، ولهذا كان اليهود يصومونه، صامه موسى عليه السلام شكراً لله تبارك وتعالى وكانوا يصومنه شكرا لله، لكنهم لم يكتفوا بذلك أتوا بأعمال كثيرة يفعلونها في ذلك اليوم لم تشرع لهم، وليست مشروعة لهم يفعلونها في ذلك اليوم يوم عاشوراء زائدة عن الحد الذي شُرع لهم مما جاء في دين نبي الله موسى عليه السلام، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ قَدِمَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - الْمَدِينَةَ، فَرَأَى الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ «**مَا هَذَا؟**»، قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَى، قَالَ: «**فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ**»، فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ[1]، وأمر أيضا بمخالفة اليهود في ذلك: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: حِينَ صَامَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ يَوْمٌ تُعَظِّمُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**فَإِذَا كَانَ الْعَامُ**

(١) رواه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠).

الْمُقْبِلُ إِنْ شَاءَ اللهُ صُمْنَا الْيَوْمَ التَّاسِعَ» قَالَ: فَلَمْ يَأْتِ الْعَامُ الْمُقْبِلُ، حَتَّى تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ(١)؛ يصوم العاشر شكراً لله على إغراقه لفرعون في ذلك اليوم، ويصوم التاسع من أجل مخالفه اليهود، فصيام التاسع والعاشر من شهر محرم من سنة نبينا عليه الصلاة والسلام، صيام العاشر شكر لله تبارك وتعالى على ما أنعم جل وعلا به وأكرم عز وجل، وصيام التاسع من أجل المخالفة.

والشاهد أن هؤلاء من جاهليتهم «**الزيادة في العبادة**» أي: على حد المشروع؛ فيوم العاشر من محرم يمارسون فيه أعمال غير مشروعة ولا دليل عليها من كتاب الله ولا من سنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

ثم أن الله عز وجل قد ابتلى الناس في يوم العاشر من محرم ببلوى ألا وهي: قتل الحسين بن علي رضي الله عنه ظلمًا، قتل في هذا اليوم في يوم العاشر من محرم، وقتله ظلما وعدوانا رضي الله عنه وأرضاه، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - «**الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»(٢).

ومكانة الحسن والحسين معروفه عند أهل العلم وأهل السنة وأهل الفضل؛ فهم من الصحابة الأخيار ومن آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام ولهما مكانتهما العلية ومنزلتهما الرفيعة، وشاء الله سبحانه وتعالى أن يبتلي الناس بأن يُقتل الحسين رضي الله عنه ظلما في يوم العاشر من محرم، فكان قتله في ذلك اليوم باب فتنة وابتلاء، فمن

---

(١) رواه مسلم (١١٣٤).

(٢) رواه الترمذي (٣٧٦٨)، وابن ماجه (١١٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٩٦).

الناس من جعلوا ذلك اليوم في كل عام على مر التاريخ يوم مأتم وإظهار للحزن ويوم لطم للخدود وشق الجيوب وعمل بإعمال أهل الجاهلية مما لم يشرعه الله ﷻ ولم يأذن لعباده به، ونسوا ما شُرع لهم في هذا اليوم، وربما لو قيل لبعضهم ماذا يشرع للمسلمين في يوم عاشوراء؟ ربما لا علم لهم بذلك وليس عندهم منه خبر لاشتغالهم بهذا الأمر المبتدع.

وقابل هؤلاء لرد بدعتهم وضلالهم ببدعة أخرى جعلوا يوم عاشوراء يوم توسعة ويوم فرح ويوم أكل وشرب وتوسعة على الأولاد والحلوى إلى آخره؛ من أجل الرد على بدعة هؤلاء، فهذا خطأ وهذا خطأ، ولا يتعبد لله ﷻ بالأهواء وبالمحدثات وإنما يتعبد لله ﷻ بما شرع، ولهذا يوم عاشوراء تمارس فيه أمور وممارسات كثيرة كلها لم يأذن بها الله وليست في دين الله ولا في دين نبيه ﷺ، والذي يشرع لنا في يوم عاشوراء أن نصومه شكرا لله، وأن نصوم معه اليوم التاسع من أجل مخالفة اليهود وأن نكون على الطمأنينة وعلى العبادة وعلى القيام بطاعة الله ﷻ بما شرع لنا وبما أمرنا ﷻ به.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة السبعون: نقصهم منها كتركهم الوقوف بعرفات**».

[الشرح]

بيَّن رحمه الله في هاتين المسألتين ما كان عليه أهل الجاهلية من الزيادة على المشروع من جهة، والنقص منه من جهة أخرى، وأن الواجب على المسلم أن يكون على حذر من هذه الجاهلية وذلك بالوسطية ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، والوسط: هو الذي يقيم على الصراط لا يكون غاليا ولا جافيا، لا يزيد عليه ولا ينقص منه، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**»[(١)]؛ سواء كان ذلك بتجاوز الحد أو بالنقص منه، فكان من طريقة أهل الجاهلية في عددٍ من المسائل يزيدون على الحد المشروع.

ومثَّل على ذلك رحمه الله «**كفعلهم يوم عاشوراء**» وعرفنا أن يوم عاشوراء هو اليوم الذي نجا فيه موسى عليه السلام ومن معه وغرق فيه فرعون وجنوده، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ**»، فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ[(٢)] لأنهم كانوا يصومون ذلك اليوم تأسيا بموسى عليه السلام، لكن لم يكونوا يقتصرون على عبادة الصيام بل

(١) رواه ابن ماجه (٣٠٢٩)، والنسائي (٣٠٥٧)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٤٥٥).

(٢) رواه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠).

يتخذون ذلك اليوم يوم احتفال يُظهرون فيه الزينة والاحتفاء وأشياء يفعلونها زائدة على الحد المأمور، فهذا زيادة في الدين.

وسبق الإشارة إلى أن الله ﷻ ابتلى الناس في ذلك اليوم بمصيبة وهي قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما، وهذه ولاشك مصيبة عظيمة، ولما كانت هذه المصيبة وقعت في هذا اليوم أخطأ على إثر ذلك طائفتان من الناس؛ طائفة أخذت تجعل هذا اليوم على مدار الأعوام يوم مأتم ويوم حزن تُلطم فيه الخدود وتشق فيه الجيوب ويُدعى فيه بدعوى أهل الجاهلية، وقسم آخر من الناس بزعمٍ منهم رد باطل أولئك اتخذوا ذلك اليوم يوم توسعة على الأولاد والأهل في الطعام والشراب واللباس؛ وكل ذلك مما لم يشرعه الله ولم يأذن به تبارك وتعالى، فالذي شُرع للناس في يوم عاشوراء هو صيامه والتقرب إلى الله تبارك وتعالى بصيام ذلك اليوم، فمن زاد على حد المشروع له فهذه جاهلية لم يأذن بها الله تبارك وتعالى، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[الشورى: ٢١].

وكما أن الزيادة على المشروع باطلة لا تجوز، فكذلك النقص والتدين بذلك والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بذلك؛ ولهذا عقد رحمه الله المسألة السبعون قال: «**نقصهم منها**» أي: من العبادة التي شرع ﷻ لعباده.

قال رحمه الله: «**كتركهم الوقوف بعرفات**» والوقوف بعرفات هي من إرث نبي الله تبارك وتعالى إبراهيم عليه السلام، ولهذا جاء في بعض الأحاديث أن نبينا ﷺ بعث إلى الناس وهم وقوف بعرفات وقال لهم: «**قِفُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ فَإِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ**

أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ»(١)، أي: وقوفكم في عرفات إرثٌ من إرث إبراهيم عليه السلام، فكان المشركون لا يقفون في عرفات ويقولون: لا نخرج خارج الحرم، فيقفون في المزدلفة وتركوا هذا الإرث المبارك الذي هو الوقوف بعرفات، وقد قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩] أي: من عرفات، لا من مزدلفة، لأن الوقوف بعرفات شعيرة من شعائر الحج وهو إرث من إرث إبراهيم عليه السلام، فما كانوا يقفون في عرفات، حتى لما حج النبي ﷺ تحرى بعضهم أن لا يخرج إلى عرفات، لأنهم مضوا على هذا الأمر وعلى ترك الوقوف في عرفات إلى أن بُعث ﷺ وعاد الأمر إلى ما كان عليه أولا في الإرث المبارك لنبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام. تركُ أولئك الوقوف بعرفات ووقوفهم في المزدلفة تركٌ للواجب الذي فرضه الله سبحانه وتعالى على من حج أن يقف في عرفات، فتركوا ذلك وكانوا لا يقفون إلا في المزدلفة ولا يتجاوزونها، فهذا ترك للواجب ونقصٌ من العبادة.

إذًا هؤلاء من جاهليتهم إما الزيادة في المشروع ما لم يأذن به الله، أو النقص منه؛ وكلا من الزيادة والنقص من الجاهلية.

* * * * *

(١) رواه أبو داود (١٩١٩)، والترمذي (٨٨٣)، وابن ماجه (٣٠١١)، والنسائي (٣٠١٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٩٤).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«المسألة الحادية والسبعون: **تركهم الواجب ورعا**».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**الحادية والسبعون: تركهم الواجب ورعا**» أي: يتورعون بترك ما أوجب الله سبحانه وتعالى عليهم، يتركون أمورًا أوجبها الله سبحانه وتعالى عليهم يفعلونها على سبيل التورع؛ وهذا من الجاهلية، فكيف يكون ما أوجبه الله على عباده أمرًا يتورع من فعله؟! لاشك أن هذا من الجاهلية، وكيف يُتقرب إلى الله عز وجل بالتورع عن أمر أوجبه الله على عباده؟! التورع يكون عن الأمور المحرمة والأمور المشتبهة والأمور التي فيها ريبة «**دَعْ ما يريبُكَ إلى ما لاَ يرِيبُكَ**»(١)، أما الواجبات وفرائض الدين فهذه كيف تُجعل مجالًا يتورع الإنسان منه ويتجنبه تورعا؟! فهذه من جاهلية هؤلاء.

والأمثلة على ذلك من حالهم كثيرة منها: ما سبق أن مر معنا وهو تركهم للباس تورعا من أن يطوفوا به وقد فعلوا فيه الذنوب والمعاصي، فكانوا يطوفون بالبيت عراة ويتورعون من الطواف باللباس لأن اللباس بزعمهم لباسٌ

(١) رواه الترمذي (٢٥١٨)، والنسائي (٥٧١١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٧٤٧).

عصوا الله ﷻ به فلا يطوفون به، يتورعون من لبسه، ولبسه واجب، فستر العورة واجب ويحرم على الإنسان أن يكشف عورته؛ فيتركون الواجب الذي هو ستر العورة تورعًا؛ أي: على سبيل الورع ويقولون كيف نطوف بثياب عصينا الله ﷻ بها؟.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثانية والسبعون: تعبدهم بترك الطيبات من الرزق**».

[الشرح]

«**الثانية والسبعون: تعبدهم بترك الطيبات من الرزق**» ترك ما أباحه الله سبحانه وتعالى لهم وأحله لهم من الطيبات يتعبدون لله تبارك وتعالى بترك ذلك؛ أي: يجعلون ترك الطيبات من الرزق نوعًا من العبادة التي يتقربون بها إلى الله سبحانه وتعالى، ولهذا جاء في أعمال أهل الجاهلية أنهم يحرمون أمورًا مثل تحريمهم لأصناف من بهيمة الأنعام كالوصيلة والحام ونحوها: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾[المائدة: ١٠٣] ؛ فيجعلونها محرمة على أنفسهم يحرمونها على أنفسهم ويتدينون ويتقربون إلى الله سبحانه وتعالى بذلك التحريم، فتحريمهم لتلك البهائم على أنفسهم يعدون ذلك قربةً من القرب التي يتقربون بها إلى الله تبارك وتعالى، ولهذا قال عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[الأعراف: ٣٢].

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف ﵀:

«المسألة الثالثة السبعون: تعبدهم بترك زينة الله».

[الشرح]

قال ﵀: «**الثالثة والسبعون: تعبدهم بترك زينة الله**» أي: يجعلون من القرب التي يتقربون بها إلى الله ﷻ ترك الزينة، ومثال ذلك سبق قريبا؛ وهو أنهم يتركون اللباس الذي هو زينة وجمال للإنسان وسترٌ لعورته، يتركون اللباس ويتجردون من ألبستهم يفعلون ذلك على وجه التدين والتقرب إلى الله ﷻ والله يقول: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[المتن]

قال المؤلف ﵀:

«**المسألة الرابعة والسبعون: دعوتهم الناس إلى الضلال بغير علم**».

«**المسألة الخامسة والسبعون: دعوتهم إياهم إلى الكفر مع العلم**».

[الشرح]

هنا يشير ﵀ في هاتين المسألتين إلى مسلكين من مسالك أهل الجاهلية:

المسلك الأول يصف فيه حال عُبَّاد هؤلاء وهم الرُهبان المنقطعين للعبادة والعمل متقربين بها إلى الله ﷻ عن غير علمٍ، بل برهبانية ابتدعوها وعبادات اخترعوها لم يشرعها الله ﷻ لهم؛ فهذا الصنف من الناس حالهم كما وصف الشيخ ﵀: «**يدعون الناس إلى الضلال بغير علم**» لأنهم هم ضالون في أنفسهم يتقربون إلى الله ﷻ ببدع وأهواء وضلالات ما أنزل الله بها من سلطان، وفي الوقت نفسه يدعون غيرهم إلى أن يتقربوا إلى الله ﷻ بهذه البدع والضلالات التي كانوا يتقربون إلى الله ﷻ بها، ومثل هؤلاء وعلى طريقة هؤلاء أهل الضلال في كل وقتٍ وحين ممن يُحدِثون في الدين مما لم يأذن به الله وما لم يشرعه الله ثم يدعون الناس إلى تلك البدع، فدعاة البدع ودعاة الضلال فيهم شبه برهبان النصارى الذين تقربوا إلى الله ﷻ ببدع ما أنزل الله بها من سلطان ثم صاروا دعاةً إلى تلك البدع.

ثم ذكر رحمة الله تعالى **المسلك الثاني** وهو: «**دعوتهم إياهم إلى الكفر مع**

العلم» ليس عن جهل ولكن عن علمٍ بأن هذا الذي يدعون الناس إليه كفرٌ بالله وشرك به ﷻ، يضلون الناس بعلم ويدعون الناس إلى الكفر والضلال والباطل عن علم، فهم في أنفسهم يعرفون عن أنفسهم أنهم دعاة للضلال ودعاة للباطل ودعاة للكفر بالله ﷻ، لكن يدفعهم إلى ذلك أغراض عديدة مثل: الطمع في الرئاسات، أو الطمع في الأموال، أو حسد الناس على ما أتاهم الله ﷻ من الخير والفضل، أو غير ذلك من الأغراض.

وهذه الحال التي يشير إليها كحال اليهود، والحالة الأولى كحال عبَّاد النصارى، وقد قال الله ﷻ في سورة الفاتحة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أهل العلم والعمل ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهم اليهود الذين عندهم علم لا يعملون به ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم النصارى الذين يعملون بغير علمٍ، ولهذا قال من قال من سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى»[(١)].

«من فسد من علمائنا» أي: عنده علم لا يعمل به، ومن فسد من عبَّادنا أي: من يعبد الله بالبدع والأهواء والضلالات وما لم يشرعه الله ﷻ لعباده.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) انظر: «تفسير الإمام ابن كثير» (٤/ ١٣٨).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة السادسة والسبعون: المكر الكبار كفعل قوم نوح**».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**السادسة والسبعون: المكر الكبار**» والمكر يكون فظيعًا بالغًا مبلغه في الكبر والشناعة عندما يكون صاحبه يخطط لإيقاع الناس في الكفر بالله عز وجل والشرك به وعبادة الأصنام والأوثان والبقاء عليها، فمن كان يخطط لهذا الأمر ويرتب له ويريد أن يكون الناس عبدةً للأوثان والأصنام وأن يبقوا على هذه العبادة فهذا أشنع المكر وأكبره، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى عن قوم نوح: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾[نوح: ٢٢-٢٤]؛ فالمكر الكبار هو التخطيط الآثم والترتيب لدعوة الناس إلى الشرك بالله، ودعوة الناس إلى البقاء على الشرك بالله تبارك وتعالى.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

[المتن]

قال المؤلف ﵀:

«**المسألة السابعة والسبعون: أن أئمتهم إما عالمٌ فاجر وإما عابدٌ جاهل، كما في قوله** ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٥-٧٨]».

[الشرح]

قال ﵀: «**المسألة السابعة والسبعون: أن أئمتهم إما عالمُ فاجر وإما عابدٌ جاهل**»؛ أئمتهم أي: من جعلوهم أسوة لهم وقدوة لهم يقتدون بفعالهم ويتشبهون بهم وبأعمالهم، لا يخرجون عن رجلين: إما عالم فاجر، أو عابد جاهل.

إما عالم فاجر عنده علم بشرع الله ﷻ ولكن فجوره يجعله في نفسه لا يعمل بهذا العلم، ويجعله فجوره ثانيا: يدعو الناس إلى غير هذا العلم؛ فإن كان كتابا حرفه وغيَّر فيه وبدل، وإن كان حكما شرعيا ألغاه ووضع مكانه غيره من الأعمال التي لم يشرعها الله ﷻ، واتخذ أيضا ترأُسه بعلمه سبيلا لأكل أموال الناس بالباطل وارتكاب الفواحش ونحو ذلك من الآثام، فقدوة هؤلاء وأئمتهم إما عالم فاجر على الصفة التي أشرت إليها.

أو عابدٌ جاهل يعبد الله بجهل وعن غير علم، قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»(١)، فمن عبد الله بجهل فإنما ما يفسد أكثر مما يصلح، وإذا كان يعبد الله عز وجل بالجهل والبدع والأهواء ثم يكون في الوقت نفسه داعية إلى ذلك فهذا شر إلى شر.

إذًا قدوة هؤلاء لا يخرجون عن رجلين: إما عالم فاجر أو عابد جاهل، وذكر الدليل على ذلك قال: «**كما في قوله**: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾»؛ فقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخره هذا حال العالم الفاجر، يسمع كلام الله عنده علم به، سمعه وبلغه كلام الله وفهمه وعرف معناه لكن ماذا صنع؟ قال: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ لا يفعلون هذه الممارسات عن جهل بل عن علم، ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فهذه حال العلماء الفجار.

ثم ذكر تبارك وتعالى حال العباد الجهلة بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ أي: إلا مجرد قراءة وتلاوة يقرأ الآيات لكن لا يدري ماهي، ولا يعبد الله بما تدل عليه لأنه لا يدري ما هي ولا يعرف معناها، بل يعبد الله سبحانه وتعالى

(١) رواه أحمد في «الزهد» (١/ ٣٠١).

بالبدع والأهواء، أما آيات الله وكلامه فإنه لا يفهمه، حظه منه مجرد القراءة والتلاوة، ولهذا قال: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي: إلا مجرد قراءة، يقرؤون الآيات قراءةً بألسنتهم، أما الفهم فهم بعيدون عنه فضلا عن أن يعملوا بآيات الله ﷻ، ولهذا قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾[البقرة: ١٢١]، وقد قال العلماء: إن تلاوة الكتاب حق التلاوة تكون بالقراءة للآيات، والفهم لمعانيها، والعمل بما تقتضيه؛ فكل ذلك يعد تلاوةً، حتى العمل نفسه يعد تلاوة، العمل والاتباع يعد تلاوة ولهذا قال: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾[الشمس: ٢] أي: تبِعها، فاتباع الكتاب والعمل بما جاء به هذا جزء من تلاوته، والأميون وهم عبدةٌ جهلةٌ يعبدون الله ﷻ بغير علم وحظهم من كلام الله وكتابه هو مجرد التلاوة.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثامنة والسبعون: دعواهم أنهم أولياء الله من دون الناس**».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**الثامنة والسبعون: دعواهم أنهم أولياء الله من دون الناس**» ولهذا قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[المائدة: ١٨] ، وهذه دعاوى رخيصة سهلة على اللسان أن ينطق بها، لكن الدعاوى لا قيمة لها؛ إذا لم يحقق الإنسان ما ينال به الولاية وما ينال به تولي الله تبارك وتعالى له فإن دعاواه لا تفيده، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١] لا يكفي مجرد الدعاوى أن يقول الإنسان أنا يحبني الله، أو أنا أحب الله، أو أنا من أولياء الله، هذه الدعاوى لا تفيد صاحبها شيئا، ولهذا قال جل وعلا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾، وفي الحديث المشهور عند أهل العلم بـ«حديث الولي» وفي الحديث القدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ..**»(١)، ذكر الله سبحانه وتعالى فيه في هذا الحديث القدسي علامة الولي ومن هو الولي: هو الذي يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالفرائض ثم ينتقل إلى درجة أعلى من ذلك بعد تقربه إلى الله سبحانه وتعالى بالفرائض ألا

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

وهي التقرب إليه بالنوافل والرغائب والمستحبات «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ».

فالذي لا يفعل الفرائض ويفرط في الواجبات ويرتكب المحرمات من أين له أن يكون وليا لله ﷻ؟!! وهذه حال هؤلاء؛ تركوا دين الله وضيَّعوا الواجبات وارتكبوا المحرمات ثم مع هذا الركام من الباطل الذي هم عليه والذي يمارسونه يقولون نحن أبناء الله أحباؤه، بل قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾[البقرة: ١١١] لن يدخل الجنة إلا نحن، ومن سوانا لن يدخلها، وهم أهل شرك وكفر ومعاص وآثام وترك المحرمات ثم مع هذا الركام الكبير من الباطل يقولون نحن أولياء الله ونحن أحباء الله ولن يدخل الجنة إلا نحن!! ويقولون لن تمسنا النار إلا أيام معدودات أيام قليلة، فمثل هذه الدعاوى رخيصة.

ولهذا من ضل من دعاة الباطل سلكوا مثل هذا المسلك وادَّعوا مثل هذه الدعاوى، ولهذا يوجد عند بعض أئمة الطُرقية من أهل الضلال والباطل نظير هذا الكلام، وزعمهم أن الجنة بأيديهم، وأنه لا يدخل أحد النار من مريديهم وأتباعهم ونحو ذلك، فمثل هذه الدعاوى سهلة على كل لسان ورخيصة يمكن النطق بها لكنها لا تجدي ولا تفيد صاحبها شيئا، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[النساء: ١٢٣].

ثم إن ولي الله ﷻ حقًا وصدقا لا يزكي نفسه، فلا يقول أنا من أولياء الله، وأنا من المقربين، لأن الله ﷻ يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[النجم:

٣٢]، لا يزكي نفسه بل لا يزال مطيعا لله ﷻ محافظا على أوامر الله متجنبا الحرام والآثام وهو خائف، قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ ؒ: «أَدْرَكْتُ ثَلاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - ﷺ - كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ»[1]، قال الحسن البصري ؒ: «إن المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع بين إساءة وأمنا»[2]؛ المنافق يسيء العمل وهو آمن من مكر الله، مع إساءته يقول: أنا من أولياء الله، وأنا من أهل الجنة، وأنا لن أدخل النار، ونحو ذلك من الدعاوى .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(١) ذكره البخاري في «صحيحه» (١/ ٩٣) معلقاً، وأخرجه في «التاريخ الكبير» (٤١٢) موصولاً.

(٢) انظر: «تفسير الإمام الطبري» (١٩٤٥)، و«تفسير الإمام ابن كثير» (٥/ ٤٨٠).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة التاسعة والسبعون: دعواهم محبة الله مع تركهم شرعه؛ فطالبهم الله بقوله** ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٧٠]».

[الشرح]

«**دعواهم محبة**» أي: أنهم يحبون الله وأن الله يحبهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[المائدة: ١٨]، فهم يدَّعون أنهم يحبون الله وأن الله سبحانه وتعالى يحبهم «**مع تركهم شرعه**» أي: لا يطيعون الله ولا يمتثلون أوامره ولا يجتنبون ما نهاهم عنه تبارك وتعالى، وفي الوقت نفسه يقولون الله يحبنا ونحن أحباء الله، يقولون هذا القول مع أنهم تاركون لشرع الله سبحانه وتعالى.

قال المصنف رحمه الله: «**فطالبهم الله بقوله** ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾» فجعل تبارك وتعالى علامة المحبة صدق الاتباع، لأن اتباع الرسل ولزوم شرع الله سبحانه وتعالى الذي أنزله تبارك وتعالى على رسله هذه علامة المحبة، ولهذا بعض العلماء يسمي هذه الآية الكريمة «آية المحنة»؛ أي: من ادَّعى محبة الله فليمتحن نفسه على ضوء هذه الآية، هل هو متبع لشرع الله أو غير متبع؟ إن كان متبعا فهذا من علامات صدق المحبة، وإن كان غير متبع يمارس المحرمات ويترك الواجبات فأين البرهان؟

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمر في القياس شنيعُ
لو كان حبك صادقا لأطعته ... إن المحب لمن أحب مطيعُ

لو كان هناك محبة صادقة لوجدت الطاعة؛ فإذا لم توجد الطاعة فعدم وجودها دليل على عدم وجود المحبة، لا يمكن أن يكون هناك محبة قلبية صادقة وفي الوقت نفسه عصيان وعدم طاعة لله ﷻ، فطالبهم الله أن يبرزوا علامة صدق محبتهم لله ﷻ إن كانوا صادقين: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

ولهذا عند هذه الآية الكريمة قال الحافظ ابن كثير ﵀ في كتابه التفسير: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله.. قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِبّ، إنما الشأن أن تُحَبّ وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾»(١)، فليس الشأن أن تقول أنا أحب الله بادِّعاء ذلك مجرد دعوى، ولكن الشأن أن تحَب أي: أن يحبك الله، والله ﷻ لا يحبك بمجرد هذه الدعاوى مع تركك لطاعته وفعلك للمحرمات والآثام والموبقات التي لا تزيد الإنسان من الله إلا بعدا، فقالوا: «ليس الشأن أن تُحِب ولكن الشأن أن تحَب» أي: أن يحبك الله، والله ﷻ يحبك بفعل الفرائض والعناية بالطاعات كما مر معنا في الحديث القدسي: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**».

(١) «تفسير الإمام ابن كثير» (٢/ ٣٢).

فالـذي يطلب لنفسه محبة الله ويرجو أن يكون ممن يحبهم الله ﷻ فليسلك المسالك التي توصله إلى ذلك؛ وذلك بفعل الأوامر وترك النواهي، وفي الدعاء المأثور الثابت عن نبينا ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «**أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ**»[1]، والشاهد هنا قوله: «**وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ**» فلابد من الأعمال والطاعات التي تقرب الإنسان إلى حب الله ﷻ.

* * * * *

(١) رواه الترمذي (٣٢٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح المشكاة» (٦٠).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثمانون: تمنيهم الأماني الكاذبة كقوله** ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[البقرة: ٨٠] ، **وقوله** ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾[البقرة: ١١١]».

[الشرح]

قال رحمه الله «**المسألة الثمانون: تمنيهم الأماني الكاذبة**» أي: مع الضلال الذي هم عليه والباطل الذي يمارسونه والبعد الكبير عن دين الله الذي شرع لعباده وأمرهم به، مع ذلك كله يتمنون الأماني الكاذبة؛ أي: مع الشرك والضلال والباطل يقول: أتمنى أن أكون في الدرجة العالية من الجنة مثلا، وأتمنى أن لا أدخل النار وألا يعذبني الله، وأتمنى أن ألقى الله وهو راضٍ عني وغير ساخط.. أماني تكذبها الأعمال، ولهذا وصف الشيخ رحمه الله الأماني بأنها كاذبة لأن الأعمال تكذبها؛ يتمنى ولا يعمل! والأماني التي لا يكون هناك معها عمل تتحقق به الأماني لا توصِل الإنسان إلى مطلوبة، ولهذا مر معنا في الآية الكريمة قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] ، وفي هذا المعنى يقول الحسن البصري رحمه الله: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقته الأعمال»[١].

---

(١) رواه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (٥٦).

«ليس الإيمان بالتمني» أي: بمجرد الإتيان بمثل هذه الأماني الكاذبة، «ولا بالتحلي» أن يصف نفسه بالإيمان دون أن يقوم بحقيقة الإيمان ودون أن يحقق الإيمان في نفسه، «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقته الأعمال».

قال ﵀: «**تمنيهم الأماني الكاذبة كقولهم** ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [آل عمران: ٢٤]» ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾، وإن مستنا تمسنا أيام قليلة معدودة، حتى بعضهم قالوا أن النار إنما تمسنا المدة التي عبدنا فيها العجل قبل رجوع موسى إلينا، فأيام معدودات هي التي تمسنا فيها النار ثم نخرج ونكون في الجنة.

أيضا مثل ذلك قولهم: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ هذه أماني؛ لا ندخل النار ندخل الجنة هذه أماني لا يترتب عليه وقوع الأمر الذي يتمنونه ما لم يحققوا الأعمال التي تكون بها النجاة من النار ويكون بها دخول الجنة، وفي الدعاء المأثور: «**اللَّهمَّ إنِّي أسألك الجنَّة وما قرَّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قول أو عمل**»(١)، فالجنة لها أعمال وأقوال تقرب إليها، والنار لها أعمال وأقوال تقرب إليها؛ فالذي يعمل الأعمال التي تقرب إلى الجنة يفوز بالجنة، والذي يعمل الأعمال التي تقرب إلى النار يبوء بدخول النار، أما مجرد الأماني فإنها لا تجدي ولا تفيد صاحبها شيئا.

---

(١) رواه أبو داود (رقم: ١٤٨٠)، وصححه العلاَّمة الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣١٣).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الحادية والثمانون: اتخاذ قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد**».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**المسألة الحادية والثمانون: اتخاذ قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد**»؛ اتخاذها مساجد المراد به: أن هؤلاء اتخذوا قبور أنبيائهم مكانًا للعبادة يتحرون العبادة عندها والمكث عندها أي الوقوف الطويل والدعاء عندها، فاتخذوها مساجد: أي اتخذوها موضعا للعبادة، سواءً بنو عليها بناءً جعلوه مسجدا، أو اتخذوها موضعا للعبادة بدون أبنية يعكفون عندها ويتحرون العبادة عندها ويمارسون العبادة عندها كل ذلك من اتخاذها مساجد.

فاتخاذ القبور مساجد يكون بأمرين:

١. يكون بالبناء عليها بحيث تكون مسجدا، أي: مسجدًا مبنيا وضع للعبادة.

٢. والأمر الثاني: أن تكون القبور مكانا تُتحرى العبادة عنده، بحيث يعكف عند القبر ويتحرى الدعاء والذكر لله تبارك وتعالى عند القبر، فهذا من اتخاذها مساجد.

وقد قال صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا[1]، اتخذوها مساجدا بالبناء عليها، واتخذوها مساجد بجعلها موضعا للعبادة يتحرون العبادة عندها. وشاهد هذا قوله صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه البخاري (٤٣٦)، ومسلم (٥٣١).

في الحديث: «**وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»[(١)]، أي: مكانا للعبادة أينما تدرك الإنسان المرء الصلاة يصلي، ويستثنى من ذلك المقبرة والحمام؛ المقبرة ليست مكانا تُتحرى العبادة فيه أو تُفعل فيه، وفعل العبادة أي القربة التي يتقرب بها إلى الله عند المقابر أو في المقابر هذا من ذرائع الشرك ووسائل الباطل، ولهذا جاء عَنْ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَا تُصَلُّوا إِلَى الْقُبُورِ**..»[(٢)]، لأن هذا ذريعة الشرك حتى وإن كان لا يريد أن يصلي إلا لله، ولهذا مرةً قَالَ أَنَس رضي الله عنه: «رَآنِي عُمَرُ وَأَنَا أُصَلِّي إِلَى قَبْرٍ فَجَعَلَ يَقُولُ: يَا أَنَسُ الْقَبْرَ، فَجَعَلْتُ أَرْفَعُ رَأْسِي أَنْظُرُ إِلَى الْقَمَر، فَقَالُوا: إِنَّمَا هُوَ يَقُولُ الْقَبْرَ»[(٣)].

مثل ما تقول لصاحبك «يا فلان الحية» أو «يا فلان العقرب»؛ لأن هذا ذريعة الشرك، تحري العبادة السجود والركوع عند القبور حتى لو لم يقصد صاحبه إلا التقرب إلى الله سبحانه وتعالى هذا ذريعة للشرك وعبادة القبور من دون الله.

فمن جاهلية أولئك: اتخاذ القبور مساجد؛ أي مكانًا تتحرى العبادة عندها.

❃ ❃ ❃ ❃ ❃

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢٣).

(٢) رواه مسلم (٩٧٢).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧٦٥٧)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (١٥٨١).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثانية والثمانون: اتخاذ آثار أنبيائهم مساجد كما ذُكر عن عمر** رضي الله عنه».

[الشرح]

قال: «**الثانية والثمانون : اتخاذ آثار أنبيائهم مساجد**» آثار الأنبياء: أي المواضع التي للأنبياء فيها أثر معين، مثل شجرة جلس تحتها ومعه قومه أو بايعوه عندها، أو جلس في مكانٍ أو مر في مكانٍ أو نحو ذلك؛ فمن الجاهلية اتخاذ آثار الأنبياء مساجد، يعني يقول: هذا موضع جلس فيه النبي نفعل هنا مسجد، أو نتحرى الصلاة في هذا المكان، أو هذه الشجرة جلس عندها أو مر بها فنتحرى الصلاة عندها، وهكذا، يجعلون آثار الأنبياء مساجد أي: مكانا تتحرى العبادة عنده السجود والركوع؛ فهذه من أعمال أهل الجاهلية.

ولهذا أشار المصنف قال: «**كما ذُكر عن عمر**»، لأن عمر رضي الله عنه وجد بعض الناس يمرون على الشجرة التي تمت عندها بيعة الرضوان ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] ، فهذه الشجرة وجد عمر أن بعض الناس يتحرى في سفره المرور عندها الصلاة، فأمر عمر رضي الله عنه بقطع

الشجرة وقال: «هَكَذَا هَلَكَ أَهْلُ الْكِتَابِ اتَّخَذُوا آثَارَ أَنْبِيَائِهِمْ بِيَعًا..»[1] أي: يتحرون العبادة عند آثار الأنبياء.

ونحن مطالبون باتباع آثار الأنبياء الذي هو دينهم والكلام الذي بلَّغوه للناس والأعمال التي هم قدوة للناس بها؛ عبادة الله وفعل الخيرات وتجنب المحرمات والآثام، ولهذا يسمي أهل العلم أحاديث النبي ﷺ آثارا، وبعض مصنفات أهل العلم في الحديث سموها بهذا الاسم «الآثار»، لأن أحاديث النبي ﷺ هي آثاره التي يجب على الإنسان أن يحرص عليها وأن يأخذ منها النصيب الأوفر، أما أن يتخلى عن هذه الآثار ويتتبع الآثار التي هي الأماكن التي مر بها أو جلس عندها أو نحو ذلك ويتحرى العبادة عندها فهذا أمرٌ هو من الأمور التي لم يشرعها الله سبحانه وتعالى لنا.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧٦٣٢)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٢٧٣٤).

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثالثة والثمانون: اتخاذ السُرج على القبور**».

[الشرح]

«**الثالثة والثمانون: اتخاذ السُرج على القبور**» أي: الإضاءات، يضعون سُرُجا تضيء المكان وتجعل القبر مكانًا مضيئا؛ فيضعون السرج ويضعون أيضا الستائر ويضعون الزينة على القبور، ومثل هذه الأمور وضعها على القبور يحرك قلوب الجهال والطغام والعوام إلى العكوف عند القبور وتحري العبادة عندها وتعظيم القبور التعظيم الذي لم يأذن به الله تبارك وتعالى، فتكون سبب فتنة للناس؛ فهذا من أعمال أهل الجاهلية «اتخاذ السرج على القبور»، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: «**لَعَنَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- زَائِرَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ**»(١).

لعن عليه الصلاة والسلام من يفعل ذلك، لأن اتخاذ السرج على القبور من أسباب الافتتان بالقبور والتعلق بها.

---

(١) رواه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي (٢٠٤٣)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (٢٠٧٥).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الرابعة والثمانون: اتخاذها أعيادا**».

[الشرح]

«**اتخاذها**» أي: القبور «**أعيادا**» أي: مكانا يعاود إما بعود العام أو الشهر أو اليوم أو الأسبوع أو نحو ذلك، مثل أن يقول قائلهم: «أنا كل سبت أذهب إلى القبر» أو مثلا: «كل يوم بعد العشاء مثلا»، فيجعل وقتا ثابتا يعاود فيه القبر ويكرر ذلك تلك المعاودة، ولهذا ورد إنكار علي بن الحسين -وهو أعلم أهل البيت في زمانه- على من أتى قبر النبي -ﷺ- يدعو الله، فنهاه وقال: «أَلاَ أُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**لاَ تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلاَ بُيُوتَكُمْ قُبُورًا وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ وَتَسْلِيمَكُم يَبْلُغُنِي حَيْثُ مَا كُنْتُمْ**»[(١)].

«**لاَ تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا**» أي: مكانا يُقصد بالمعاودة والتكرار كل يوم مثلا أو كل شهر أو على رأس كل سنة أو نحو ذلك من المعاودة.

فمن أعمال الجاهلية التي جاء الإسلام بالتحذير منها: اتخاذ القبور عيداً.

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧٦٢٤)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٦٧٢٦)، وانظر: «تحذير الساجد» (ص٨٥) للألباني.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«المسألة الخامسة والثمانون: الذبح عند القبور».

[الشرح]

«الخامسة والثمانون: الذبح عند القبور» أي: ذبح القرابين تقربا للمقبورين بها، أو تحريا لذبحها عند القبور تبركا؛ فهذا من أعمال أهل الجاهلية[1].

فكانوا يتقربون إلى المقبورين بذبح النذور والذبائح؛ فهذا من الشرك بالله سبحانه وتعالى وهو من أعمال الجاهلية، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] قوله ﴿وَنُسُكِي﴾: أي ذبحي.

جاء فذي حديث يرفع إلى نبيّنا عليه الصلاة والسلام مبيناً هذا الأمر قال: «دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب.

قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟

قال: مر رجلان على قوم لهم صنم، لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئا، فقالوا لأحدهما: قرب.

---

(١) تفصيل وتأصيل لمسألة الذبح عند القبور:

قال العلامة صالح الفوزان حفظه الله: «والذبح عند القبور: إذا كان تعظيما لها فهذا شرك أكبر، وإذا كان تعظيما لله، ولكن فعله عند القبر يظن أنه مشروع، فهذا بدعة ووسيلة إلى الشرك، فلا يجوز الذبح عند القبور حتى ولو كان الذابح لا يعتقد في القبور وإنما يذبح لله؛ لأنه إذا اعتاد الناس الذبح عند القبور آل هذا إلى عبادتها من دون الله عزوجل، وكذلك الذبح للجن لاتقاء شرهم أو للعلاج، فهذا شرك بالله..» «شرح مسائل الجاهلية» (ص١٨٠).

قال: ليس عندي شيء أقربه.

قالوا له: قرب ولو ذبابا.

فقرب ذبابا، فخلوا سبيله، فدخل النار.

وقالوا للآخر: قرب.

فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله ﷻ فضربوا عنقه، فدخل الجنة»[(١)].

إذا كان التقرب لتلك المعبودات ولو بذباب موجبا لدخول النار فكيف بمن يشتري أطيب بهيمة الأنعام وأسمنها ويأتي بها يقودها ويسوقها إلى القبر ويذبحها عنده متقربا بها إليه!! فهذا من الشرك بالله تبارك وتعالى المصادم للتوحيد كل المصادمة، وقد ثبت عن علي رضي الله عنه أنه قال سمعت النبي ﷺ يقول: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ**»[(٢)].

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (ص١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٣)، وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٥٨٩٢) للألباني.

(٢) رواه مسلم (١٩٧٨).

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة السادسة والثمانون: التبرك بآثار المعظمين؛ كدار الندوة، وافتخار من كانت تحت يده بذلك، كما قيل لحكيم بن حزام رضي الله عنه بِعت مكرمة قريش؟ فقال: «ذهبت المكارم إلا التقوى»**».

[الشرح]

ثم قال رحمه الله: «**المسألة السادسة والثمانون: التبرك بآثار المعظمين**» أي: عندهم، وآثار المعظمين: هي المواقع التي لها اختصاص بهم، كأن يكونوا مثلا يجلسون فيها كثيراً أو كانت ناديا من أنديتهم أو موضعا معروفا بجلوسهم فيه أو بأعمالٍ معينه لهم في تلك الأماكن، «**التبرك بآثار المعظمين**» أي: التماس البركة بإتيان أماكن المعظمين عندهم فيجلس في تلك الأماكن طلبا مثلاً للبركة، أو ربما مسح يده أو ألصق صدره بتلك الأماكن طلبا للبركة، أو جعل ملابسه أو شيء من حاجاته وطعامه في تلك الأماكن طلبا للبركة؛ كل ذلك من أعمال أهل الجاهلية «التبرك بآثار المعظمين».

وضرب مثالا لذلك قال: «**كدار الندوة**» وهذه الدار كانت لبعض المعظمين عندهم فكانت مكانا يتخذ للتبرك وطلب البركة، وهذا من جاهلية هؤلاء.

قال: «**وافتخار من كانت تحت يده بذلك**» يعني تلك الآثار من كانت تحت

يده يفتخر بذلك، لأنه عنده مكان مبارك ومكان تطلب فيه البركة وتُلتمس، فكانوا من عنده شيء من تلك الأمكنة يفتخر بذلك.

قال: «**كما قال لحكيم بن حزام بعت مكرمة قريش؟**» يعني تخليت عنها وتركتها؟ «**فقال: ذهبت المكارم إلا التقوى**» أي: تقوى الله ﷻ.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة السابعة والثمانون: الفخر بالأحساب**».

«**المسألة الثامنة والثمانون: الطعن في الأنساب**».

«**المسألة التاسعة والثمانون: الاستسقاء بالأنواء**».

«**المسألة التسعون: النياحة**».

[الشرح]

ثم ذكر رحمه الله هذه الأمور الأربعة من مسائل الجاهلية، قد جمعها نبينا عليه الصلاة والسلام محذراً منها في حديث واحد، حيث قال صلى الله عليه وسلم: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ**» وَقَالَ: «**النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ**»[(١)].

فذكر عليه الصلاة والسلام هذه الخصال الأربعة من خصال أهل الجاهلية محذراً منها، في الوقت نفسه أخبر عليه الصلاة والسلام أنها لا تُترك، سيوجد في الأمة من يمارس هذه الأعمال التي هي من أعمال أهل الجاهلية.

قال: «**الفخر بالأحساب**» أي: التفاخر تفاخر الإنسان بحسبه، أي: يقول مثلا أنا ابن فلان الذي يملك كذا أو الذي يرأس كذا أو الذي عنده كذا ويتفاخر

---

(١) رواه مسلم (٩٣٤).

بأحسابه من الأجداد والآباء والمآثر التي كانوا عليها، «نحن كنا كذا، ونحن عندنا كذا» تفاخرا؛ فهذا من أعمال الجاهلية، فمن أعمال الجاهلية التفاخر بالأحساب، بل كانوا يعقدون مجالس التفاخر يتفاخرون فيها وتتسبب تلك المجالس زيادة الأحقاد والضغائن والعداوات بينهم وبغي بعضهم على بعض وتسلط بعضهم على بعض، كل ذلك بسبب التفاخر والتعالي بين الناس؛ فجاء الإسلام بالنهي عن ذلك والتحذير منه.

قال: «**الطعن في الأنساب**» أي: طعن بعضهم في أنساب بعض، كأن يقول: «أنت لا أصل لنسبك، أو أنت نسبك وضيع، أو أنت من نسب دنيء» أو نحو ذلك طعنًا في أنساب الناس بالازدراء والانتقاص والتحقير والتهوين من شأنهم، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ؟**»، قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ»[1]، والله ﷻ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات: ١٣]. فمن أعمال الجاهلية الطعن في أنساب الناس من أجل الازدراء والتحقير والانتقاص.

قال: «**الاستسقاء بالأنواء**» الاستسقاء: طلب السقيا، بالأنواء: أي مواضع

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٤٨٩)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٧٤٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥١٣٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٧٠٠).

النجوم، جاء في بعض الأحاديث «الاستسقاء بالنجوم»: اعتقاد أن السقيا ونزول المطر ينزل بتأثير النجوم وأنها هي السبب والمؤثر في نزول المطر، ولهذا كانوا إذا نزل المطر يقولون «مُطرنا بنوئ كذا وكذا» كما جاء في عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ - ﷺ - صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ - ﷺ - أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**»، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِى كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**»[(١)].

فمن أعمال الجاهلية الاستسقاء بالأنواء؛ أي: الاعتقاد أو الظن أن الأنواء هي السبب في نزول المطر، فإذا ظن أنها سبباً في نزول المطر وأن الذي ينزِّل المطر هو الله ثم نسب إليها نزول المطر لظنه أن الأنواء سببٌ في نزول المطر فهذا من كفران النعمة، أما أذا اعتقد أن الأنواء أو النجوم هي التي تنزل المطر فهذا من الشرك الناقل من الملة، والأنواء ليست سببًا لنزول الأمطار، سبب نزول الأمطار رحمة الله ﷻ؛ رحمته بعباده وإقبال العباد عليه بالتوبة والإنابة والاستغفار كما قال ﷻ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠-١١] فسبب نزول الأمطار هو إقبال العباد على الله تائبين منيبين مستغفرين، كما أن الذنوب والمعاصي والآثام سبب في تأخر نزول الأمطار أو في عدم نزولها، فإن التوبة والإنابة والاستغفار سبب في نزول الأمطار،

---

(١) رواه البخاري (١٠٣٨)، ومسلم (٧١).

ولأجل ذلك شُرعت صلاة الاستسقاء؛ أن يجتمع الناس يصلون ويدعون الله ﷻ ويستغفرون.

قال: «**النياحة**»؛ النياحة: البكاء بصوت وعويل وتسخط وجزع على الميت وتعداد مآثره ومحاسنه بكاءً وشجبًا وتسخطًا، وأيضًا تكون النياحة بضرب الخدود وشق الجيوب وقطع الشعر تسخطًا وجزعا، وهذا كله من أعمال الجاهلية؛ كان إذا مات لهم ميت أخذوا يصيحون ويُسمع لهم عويلٌ وصياح وبكاء عال وتسخط على الأمر الذي وقع وموت ميتهم، وأيضا يمزقون الثياب بقطع جيوبها، ويضربون الخدود كل ذلك تسخطًا، ويكثر هذا الأمر في النساء لضعف المرأة وقلة الصبر فيها، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في تتمة الحديث: «**والنائحة إذا لم تتب**»، الأمر يشمل حتى النائح لكن خص المرأة بالذكر بقوله: «**والنائحة**» لأن هذا الأمر يكثر في النساء، ولهذا الضعف الذي في المرأة مُنعت المرأة من زيارة القبور، و «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- زَائِرَاتِ الْقُبُورِ»[1]، لأن المرأة ضعيفة ما تتحمل مثل الرج.

قال: «**النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا**» إذا لم تتب من النياحة التي كانت عليها وماتت غير تائبة منها «**تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ**»؛ سربال: أي ثياب تغطي جسمها من القطران، والقطران هو النحاس المذاب يصلي الجسم صليًا ويحرقه ويغطي ثيابها، القطران هو النحاس المذاب

(١) رواه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي (٢٠٤٣)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (٢٠٧٥).

أو الزفت المذاب، «وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» الدرع: هو الذي يغطي الصدر، فتقام يوم القيامة على هذه الهيئة وهذا جزاء من جنس العمل؛ لأنها لما حصلت لها المصيبة لم تصبر ولم ترضَ بالمقضي والمقدَّر ومسكت جيبها ومزقته ودرعها قطعته في المصيبة، فعوقبت من جنس العمل، قطعت درعها ومزقته فتُكسى يوم القيامة كساءً هذه صفته.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«المسألة الحادية والتسعون: **أن أجلَّ فضائلهم البغي، فذكر الله فيه ما ذكر**».

[الشرح]

«**أن أجلَّ فضائلهم**» أي: أهل الجاهلية «**البغي**»؛ أي: أجلَّ أمرٍ يدَّعونه فضلًا لهم يتفاخرون به ويمدحون أنفسهم بفعله ويعدُّونه في مآثرهم، وعندما ينشئون القصائد والأشعار يعدونه في مقدمة مفاخرهم ومآثرهم البغي؛ أي: عدوان بعضهم على بعض، عدوانا على الدماء وعدوانا على الأموال وعدوانا على الأعراض، فهذا البغي يعدونه مفخرة، وإذا أراد بعضهم أن يتفاخر وأن يعدِّد مآثره أو يعدد مآثر قبيلته أول ما يفتخر به البغي، يقول: (نحن الذين قتلنا من قبيلة كذا عدد كذا مثلا، ونحن أخذنا من نوقهم وإبلهم كذا وكذا) فيعدون بغيهم وعدوانهم على الأعراض والأموال والدماء مفخرةً، ولهذا قال رحمه الله: «**أن أجل فضائلهم البغي**»، وهذا يظهر عندما تتفاخر القبائل وتعدد المآثر الذي هم عليها .

قال: «**فذكر الله فيه ما ذكر**» ذكر الله فيه أي: في البغي ما ذكر؛ أي: من التحذير وبيان حرمته وأنه لا يحل ولا يجوز ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾[النحل: ٩٠]، فهذه أمور حذر الإسلام منها ونهى عنها؛ أن يبغي أحدٌ على أحد، فلا يجوز أن يبغي عليه لا في مال ولا في عرض ولا في نفس، فالبغي حرام، ولهذا في حجة الوداع قال ﷺ: «**فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا**»(١).

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَجْلِسٍ، فَقَالَ: «**تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ**»(٢)؛ قوله ﷺ في هذا الحديث «**وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ**» هذه أنواع البغي؛ البغي على الأعراض «**لا تزنوا**»، البغي على الأموال «**لا تسرقوا**»، البغي على الدماء «**لا تقتلوا**»، فحذر ﷺ من البغي بأنواعه، اعتداء الإنسان على الآخر في نفسه أو في ماله أو في عرضه هذا مما جاءت الشريعة في التحذير منه أشد التحذير.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) رواه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

(٢) رواه البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩).

[المتن]

قال المؤلف ﷺ:

«**المسألة الثانية والتسعون: أن أجلَّ فضائلهم الفخر ولو بحق؛ فنُهي عنه**».

[الشرح]

قال: «**أن أجل فضائلهم الفخر**» أي: التفاخر، فالفخر يعدونه عندهم في باب الفضائل أمرًا مهمًا، فعندما يجلسون في تعداد الفضائل كلٌّ يفخر بما عنده، والفخر لا يخلو كما ألمح المصنف من حالتين: إما أن يكون فخرا بحق، أو بغير حق.

وفخر بحق؛ أي: بأمر موجود وأمرٍ حصل يفخرون به، أو فخر بغير حق: باختلاق أمور يكذبون أنهم فعلوها أو حصلت لهم وهي لم تقع. ولهذا يقول ﷺ: «**أن أجل فضائلهم الفخر ولو بحق**» أي: ولو بأمر هو معدود من أعمالهم أو فعلوه أو وُجد منهم، فالفخر والتفاخر لا يجوز بل المطلوب هو التواضع وأن لا يفخر الإنسان على أخيه، بل يتواضع سواء كان الفخر بحق أو بغير حقٌّ كل ذلك لا يجوز، وهؤلاء كان من فضائلهم التفاخر.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثالثة والتسعون: أن تعصب الإنسان لطائفته على الحق والباطل أمر لا بد منه عندهم؛ فذكر الله فيهم ما ذكر**».

[الشرح]

ثم ذكر رحمه الله هذه المسألة وهي: التعصب الأعمى، تعصب الواحد منهم التعصب الأعمى لفئته وطائفته في أي أمرٍ يكون منها؛ حق أو باطل، هدى أو ضلال، لا يبالون طالما أنه من أفعال طائفته فهو يعده حقًا، غير متأمل أو متدبر أو متفكر فيه، بل هو متعصبٌ لطائفته تعصب أعمى.

قال رحمه الله: «**أن تعصب الإنسان لطائفته على الحق والباطل أمرٌ لا بد منه عندهم**» يعني هذه أمور مسلَّمة عندهم لا ينفكون عنها، كل واحد منهم متعصب لطائفته وإن فعلت طائفته ما فعلت، فهو متعصب لها سائر على نهجها مقتفي آثار طائفته بقطع النظر عن كون الأشياء التي تمارسها طائفته حق أو باطل هدى أو ضلال.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الرابعة والتسعون: أن من دينهم أخذ الرجل بجريمة غيره، فأنزل الله** ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام: ١٦٤]».

[الشرح]

«**أن من دين أهل الجاهلية أخذ الرجل بجريمة غيره**» وهذه من جاهلية هؤلاء، فمثلا لو أن رجلا من قبيلة اعتدى على رجل آخر من قبيلة أخرى فقتله، من جاهلية هؤلاء أنهم لا يأخذون القاتل نفسه والمعتدي نفسه بجريمته فيعاقَب بمثل ما عاقب به، بل لا يقنعون بالقاتل نفسه فيطلبون مثلا رأس رئيس القبيلة أو كبيرها، أو يطلبون بدل ذلك عشرة من أعيان القبيلة، وهؤلاء ما ذنبهم؟! فما ذنب هؤلاء العشرة؟! أو ما ذنب رئيس القبيلة!! أو ما ذنب الوجهاء في القبيلة عندما يطالب بدمهم ويُقتلون مقابل أن واحد منهم اعتدى!! فهذه من الجاهلية، العدل والإنصاف والحق أن المعتدي الظالم الباغي هو الذي يعاقب، أما الآخر الذي لم يحصل منه بغي ولا عدوان بأي حق يعاقَب؟

ولهذا قال رحمه الله: «**فأنزل الله**﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾» لا يؤاخذ الإنسان بذنوب الآخرين إذا لم يكن هو المتسبب أو الفاعل أو المباشر، فجاء الإسلام بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فمن جاهلية هؤلاء أخذ العقوبة من غير المعتدي، وهذا الأمر يحصل في الناس وعند السفهاء، حتى في نطاق يعني ضيق بين الجهال والسفهاء من صغار السن، عندما يعتدي صغير على صغير بضربه

يذهب ويضرب إخوانه؛ هذا من نوع جاهلية أولئك، لأن ما علاقة الآخرين باعتداء شخص! العقوبة إذا أنزلت تنزل بالمعتدي نفسه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الخامسة والتسعون: تعيير الرجل بما في غيره، فقال: «أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»**[1]».

[الشرح]

قال: «**تعيير الرجل بما في غيره**»؛ التعيير: هو الانتقاص للإنسان وذِكر العيب فيه، والله سبحانه وتعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، فكان من جاهلية هؤلاء في باب التعيير أن يعيروا الشخص بما في غيره، ليس فقط يعيرونه بما فيه من الصفات بل يعيرونه بما في غيره كذلك.

عَنِ الْمَعْرُورِ قَالَ لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا، فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «**يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**»[2].

وضرب رحمه الله مثالا على ذلك «**قال أعيرته بأمه؟**» لأن هذا من خصال الجاهلية

---

(١) رواه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).

(٢) رواه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).

تعيير الإنسان بما في غيره؛ وهذا من خصال الجاهلية التي جاء الإسلام بالتحذير منها والنهي عنها، لا يعيِّر الإنسان، والتعيير سخرية وتهكم بالآخرين يمنع منه.

قوله ﷺ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ» فيه دليل على أن المسلم قد يقوم فيه شيء من خصال الجاهلية ولا يكون كافرًا بها بل ينقص إسلامه، وهذا يقال في كل عملٍ من أعمال الجاهلية ليس كفراً، مثل ما سبق معنا: الفخر في الأحساب، والطعن بالأنساب، والنياحة على الميت؛ هذه من كبائر الذنوب وليست كفرًا، فإذا وقعت من الإنسان يكون بوقوعه فيها فيه جاهلية ينقص بها إيمانه ويضعف دينه، ولا يكون بها كافرًا منتقلًا من ملة الإسلام[1].

---

(١) وقد بين أهل العلم وفصلوا في حكم إطلاق لفظ الجاهلية؛ قال العلامة صالح الفوزان حفظه الله: «هناك من يطلق لفظ الجاهلية على المجتمعات المسلمة؛ لما فيها من فساد، ويرتِّب على هذا اللفظ ما تعرفون؛ فهل هذا الاتجاه صحيح؟

الجاهلية العامة انتهت ببعثة الرسول ﷺ؛ فإنه ببعثته ﷺ انتهت الجاهلية العامة ولله الحمد، وجاء الإسلام، وجاء العلم، وجاء النُّور، وسيبقى ويستمرُّ إلى يوم القيامة؛ فليس بعد بعثة النبي ﷺ جاهليَّةٌ عامَّةٌ، لكن تكون هناك بقايا من الجاهليَّة، لكنها جاهلية جزئيَّة، وجاهلية بمن قامت به، أمَّا الجاهليَّة العامَّة؛ فقد انتهت ببعثة الرسول ﷺ، ولن تعود إلى قيام السَّاعة.

أما وجود الجاهليَّة في بعض الأفراد أو الجماعات أو بعض المجتمعات؛ فهذا أمر واقع، لكنَّه جاهليَّةٌ خاصَّةٌ بمن وُجِدت فيه، وليس عامَّة؛ فلا يجوز إطلاق الجاهليَّة على وجه العموم؛ كما نبَّه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في [اقتضاء الصِّراط المستقيم (١/ ٢٢٦)]» «المنتقى» (١/ ٣٦٨).

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«**المسألة السادسة والتسعون: الافتخار بولاية البيت؛ فذمهم الله بقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا﴾ [المؤمنون: ٦٧]**».

[الشرح]

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**السادسة والتسعون: الافتخار بولاية البيت**» أي: تولي أمر بيت الله الحرام من عنايةٍ بالبيت ونظافته وصيانته ونحو ذلك من الأعمال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]، فيفتخرون بولاية البيت: «**فذمهم الله بقوله** ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ لماذا؟ لأنهم جعلوا ولاية البيت هي عملهم الصالح وتركوا طاعة الله ولزوم أمره والقيام بعبادته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وتحقيق الإيمان به، وأخذوا يتفاخرون بهذا الأمر ويستكبرون وهم معرضين عن طاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ولهذا يقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فذمهم الله بقوله** ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾»؛ ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ فلاحظ هنا السياق: استكبار وافتخار بولاية البيت، وإعراض عن كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وطاعة الله وامتثال أمره تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ التي فيها سعادتهم، ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ أي: لم تُقبِلوا على الكتاب ولم تقبلوه بل كنتم على أعقابكم تنكصون، ثم في الوقت نفسه عندكم استكبار «نحن كذا، نحن الذين عندنا كذا،

نحن الذين تولينا كذا، نحن أهل السقاية، نحن أهل الرعاية للبيت» مستكبرين به سامرا تهجرون، آيات الله تتلى عليهم لا يتدبرونها ولا ينصاعون لها ولا يتمثلون، ويتفاخرون ويستكبرون بولايتهم للبيت وسقايتهم للحاج، ولهذا ذمهم الله ﷻ في هذه الآية وفي آيات أخر بهذا الصنيع.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة السابعة والتسعون: الافتخار بكونهم ذرية الأنبياء فأتى الله بقوله:** ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤]».

[الشرح]

أيضا من جاهلية هؤلاء «**الافتخار بكونهم ذرية الأنبياء**» يقيمون على الشرك وعلى الكفر ولا يستجيبون للنبي ﷺ ولا يطيعون الله ﷻ في أوامره ويتفاخرون بكونهم ذرية الأنبياء، والله يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٢]، وفي الحديث يقول عليه السلام: «**وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»[1]، فيتفاخرون بكونهم ذرية الأنبياء وهم في الوقت نفسه معرضون عن نهج الأنبياء وطريقة الأنبياء؛ ألا وهي توحيد الله وإخلاص الدين له وطاعته وامتثال أوامره سبحانه وتعالى.

قال: «**فأتى الله بقوله** ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾»؛ عندما يقول القائل منهم «أنا من ذرية إبراهيم»؛ هل قوله «أنا من ذرية إبراهيم» أن يكون له من صحائف أعمال إبراهيم عليه السلام؟ أبداً أعمال إبراهيم عليه السلام له وهي التوحيد والإيمان وهو خليل الرحمن، وأعمالهم هم الشرك والكفر بالله عليهم، ولهذا جاء بقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾؛ الأنبياء كسبوا

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

الإيمان والتوحيد والإخلاص والطاعة لله وبلاغ دينه، وأنتم كسبتم هذا الشرك والباطل الذي تمارسونه، ولكلٍ ما كسب، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾[الأحقاف: ١٩]، كل يجازي بعمله.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثامنة والتسعون: الافتخار بالصنائع، كفعل أهل الرحلتين على أهل الحرث**».

[الشرح]

«**الافتخار بالصنائع**» الصنائع التي تيسرت لهم، فمن تميز بصناعةٍ ما فإنه يفخر على من دونه ويتعالى عليه.

ومثَّل ذلك بمثال قال: «**كفخر أهل الرحلتين على أهل الحرث**» أهل الرحلتين: كما في الآية ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ [قريش: ١-٢] كان لهم رحلتين في السنة، فأعيانهم وتجارهم وأثرياءهم يسافرون لرحلتين تجاريتين في السنة؛ رحلة في الصيف كانت إلى الشام، ورحلة في الشتاء إلى اليمن، لغرض التجارة، فأهل الرحلتين رحلة الشتاء ورحلة الصيف يفخرون على أهل الحراثة الذين لهم أرض يحرثونها فهؤلاء يفخرون عليهم يفخرون عليه بأنهم أهل الرحلتين؛ فهذا من الجاهلية التفاخر بالصنائع.

ومثل ذلك عندما يفخر إنسان على زميله بصناعته يقول: (أنا عندي وظيفة، أنت ما عندك وظيفة) يفتخر عليه، أو مثلا يقول: (أنا عندي تجارة.. أنت ما عندك تجارة)، أو (أنا عندي تجارة.. وأنت تعمل في وظيفة كذا وكذا أنا أفضل منك أنا أحسن منك) تفاخر، هذا على طريقة هؤلاء وعلى نهجهم التفاخر

بالصنائع، من ميزه الله بصناعه لا يفتخر على الآخرين بل يحمد الله ﷻ الذي يسَّر له وأنعم عليه ويسأله ﷻ المزيد من فضله، لا أن يجعل هذا الذي منَّ الله عليه وأكرمه به سببًا للتفاخر على الناس والتعالي عليهم، فإن مثل هذا التفاخر من عمل أهل الجاهلية(١).

---

(١) وقد بين الله سبحانه مدى علم هؤلاء، ومدى نفعه بالنسبة إليهم، قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [سورة الروم: ٧].

قال العلامة السعدي ﵀: «فينظرون إلى الأسباب ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئا، فهم واقفون مع الأسباب غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها.

﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها فعملت لها وسعت وأقبلت بها وأدبرت وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها ولا النار تخافها وتخشاها ولا المقام بين يدي اللّه ولقائه يروعها ويزعجها وهذا علامة الشقاء وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب.

وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية ما فاقوا به وبرزوا وأعجبوا بعقولهم ورأوا غيرهم عاجزا عما أقدرهم اللّه عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم وأشدهم غفلة عن آخرتهم وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رآهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطون وفي ضلالهم يعمهون وفي باطلهم يترددون نسوا اللّه فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون.

ثم نظروا إلى ما أعطاهم اللّه وأقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها وما حرموا من العقل العالي فعرفوا أن الأمر للّه والحكم له في عباده وإن هو إلا توفيقه وخذلانه فخافوا

[المتن]

قال المؤلف ﵀:

«**المسألة التاسعة والتسعون: عظمة الدنيا في قلوبهم كقولهم:** ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]».

[الشرح]

«**التاسعة والتسعون: عظمة الدنيا في قلوبهم**» أي: سلبت قلوبهم وأخذت أفئدتهم وأصبحت أعظم شيء عندهم، «**عظمة الدنيا في قلوبهم**»أي: في قلوب أهل الجاهلية.

وبين ﵀ مثالًا يوضح عظمة الدنيا في قلوب هؤلاء، وهو قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1]؛ عظيم عنده دنيا عنده

ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان حتى يصلوا إليه، ويحلوا بساحته وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبنيت عليه لأثمرت الرُّقِيَّ العالي والحياة الطيبة، ولكنها لما بني كثير منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير» «تيسير الكريم الرحمن» (ص٦٣٦).

(١) فسر العلامة عبد الرحمن السعدي ﵀ هذه الآية تفسيرا رائعا؛ فقال ﵀: «لو عرفوا حقائق الرجال، والصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند اللّه وعند خلقه، لعلموا أن محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب صلى اللّه عليه وسلم، هو أعظم الرجال قدرا، وأعلاهم فخرا، وأكملهم عقلا وأغزرهم علما، وأجلهم رأيا وعزما وحزما، وأكملهم خلقا، وأوسعهم رحمة، وأشدهم شفقة، وأهداهم وأتقاهم.

وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على

ملك عنده جاه، لا أن يعطى القرآن لرجل أو نشأ يتيما لا يملك مالًا، ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: له مكانته وله قدره من المال، وسموا أشخاصًا معينين يقولون: لولا نزل على فلان! فلان معروف بالمال معروف بالثراء معروف بالمكانة؛ فهذا يدل على عظمة الدنيا في قلوبهم وأن مقياس الأمور العظيمة يرجع إلى من أوتي الدنيا، ولهذا رد الله ﷻ عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الزخرف: ٣٢]؛ هذا الذي عنده مال الله الذي أعطاه، والذي عنده النبوة الله الذي أعطاه النبوة، والفضل بيد الله ﷻ يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

* * * * *

الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه، فكيف يفضل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله؟!، ومن جرمه ومنتهى حمقه أن جعل إلهه الذي يعبده ويدعوه ويتقرب إليه صنما، أو شجرا، أو حجرا، لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وهو كل على مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه، فهل هذا إلا من فعل السفهاء والمجانين؟

فكيف يجعل مثل هذا عظيما؟ أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد ولد آدم صلى اللّه عليه وسلم؟ ولكن الذين كفروا لا يعقلون» «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٧٦٤).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة المائة: التحكم على الله كما في الآية**».

[الشرح]

«**المائة: التحكم على الله**»؛ التحكم على الله في قسمه سبحانه وتعالى بين عباده، ومن تحكمهم على الله سبحانه وتعالى ما جاء في الآية السابقة: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ لا ينزَّل على محمد عليه الصلاة والسلام الذي نشأ يتيما فقيرا، هناك رجال عظماء كبار أصحاب أموال وأصحاب جاه؛ لو نزل عليهم القرآن! فهذا تحكم على الله، ورحمة الله عز وجل وفضله سبحانه يمن به على من يشاء، مثل ما قال تبارك وتعالى في آخر ﴿سورة الحديد﴾ قال: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩]، الفضل فضله والمنُّ منُّه سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، الأمر له جل وعلا، فهؤلاء من جاهليتهم التحكم على الله، لماذا أعطى الله فلان كذا ولم يعط فلان كذا؟ تحكمٌ على الله وقول عليه تبارك وتعالى بغير علم.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الحادية بعد المائة: ازدراء الفقراء فأتاهم بقوله:** ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]».

[الشرح]

ثم ذكر هذه المسألة «**ازدراء الفقراء**» ازدراءهم: انتقاصهم واحتقارهم والتقليل من شأنهم، ولهذا من ازدرائهم للفقراء طلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام أن يطرد الفقراء الذين عنده، وقالوا إن كبراءنا وعظماءنا لا يليق بهم أن ينضموا إلى هؤلاء الفقراء ويكونون هم وإياهم في مجلس واحد؛ فأتاهم بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثانية بعد المئة: رميهم أتباع الرسل بعدم الإخلاص وطلب الدُنيا فأجابهم بِقوله:** ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢]».

[الشرح]

قال رحمه الله في المسألة الثانية بعد المائة من مسائل أهل الجاهلية: «**رميهم أتباع الرُسلِ بعَدم الإخلاص وطلب الدنيا**»؛ أي: رمي أهل الجاهلة «**أتباع الرسل**» أي: المتبعين للرسل من الفقراء والضعفاء ونحوهم ممْن أشار المصنف رحمه الله في المسألة التي قبلها إلى أنهم يزدرونهم ويحتقرونهم وينتقصونهم، فكانوا يرمونهم بعدم الإخلاص وأنهم إنما دخلوا في دين النبي ﷺ طلبـًا للدنيا وطلبـًا للمال وطلبـًا للرئاسة ونحو ذلك.

قال: «**رميهم أتباع الرسل بعدم الإخلاصِ وطلب الدنيا**» أي: أنهم إنما أرادوا بالدخول مع النبي ﷺ في دينه إنما أرادوا بذلك الدنيا لم يكونوا بذلك مخلصين.

وأوردَ قول الله ﷻ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾؛ وهذه الآية أيضـًا لها تعلق بالمسألة التي قبلها وهي: ازدراء هؤلاء للفقراء وانتقاصهم لهم؛ قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، والله ﷻ أثبت لهؤلاء أنهم يبتغون بهذا العمل وجه الله قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾،

على خلاف ما ادَّعاه فيهم أهل الجاهلية من أنهم إنما أرادوا الدنيا أو أرادوا المال أو نحو ذَلك، فَالله ﷻ رب العالمين قال في شأن هؤلاء ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ وهذا هو الإخلاص.

ثمَ إن مقالة هَؤلاء أهل الجاهلية في هؤلاء الفقراء أنهم إنما أرادوا الدنيا عجيبة! لأن نية الإنسان بينه وبين الله، وحسابه على الله ﷻ، ولهذا قال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ النوايا عِلمُها عند الله ﷻ، وتكلُّم هؤلاء الجاهلين في نوايا هؤلاء تكلمٌ في مالا علم لهم بِه؛ وبهذا يستفاد فائدة أنه لا يجوز للإنسان أن يدخل في نوايا الناس، النية بين الإنسان وبين ربه، لا يطلع عليها إلا الذي يعلم ما في الصدور الخبير ﷻ، فليس للإنسان أن يدخل في نوايا الناس كأن يقول: هذا نيته فاسدة، أو هذا نيته غير صالحة، أو هذا لا يريد بهذا العمل إلا الرياء لا يريد وجه الله، هذا أمر يتعلق بالنية والنية محلُها القلب، ونية الإنسان بينه وبين الله، صَلُحت أو فَسُدت؛ ولهذا الذي لنا هو الظاهر وأما السرائر فالله ﷻ هو الذي يَتولاها، ولهذا الدخول في نوايا الناس هذا من أعمال أهل الجاهلية، لا يُدخل في نية الإنسان، نية الإنسان بينه وبين الله، والله ﷻ هو المطلع وهو العليم بما في الصدور ﷻ.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثالثة بعد المائة: الكُفر بالملائكة**».

[الشرح]

المسألة الثالثة بعد المائة من مسائل الجاهلية كفرهم بالملائكة، والكفر بالملائكة سواء كان كفراً بهم من حيث وجود الملائكة بمعنى أن يجحد وجود الملائكة، أو يجحدُ خصائص الملائكة، أو إعطاؤهم من الخصائص ما لا يليق بهم، أو نحو ذلك من أنواع الكفر.

وأهل الجاهلية فيهم فيما يتعلق بالملائكة أنواع من الكفر؛ فمن الجاهليون من أنكروا الملائكة، ومن الجاهليون من جعلوهم شركاء مع الله سبحانه وتعالى في العبادة، ومن الجاهليون من قالوا في حقهم أنهم بنات الله -تعالى الله عما يقولون- وكُل ذلك كفراً بالملائكة، ولا يكون مؤمناً بالملائكة إلا من آمن بهم وبأسمائهم وأوصافهم وخصائصهم ووظائفهم الواردة في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه الواردة في شرائع الله، فلا يكون مؤمناً بالملائكة إلا بذلك، أما مَنْ جحدَ وجود الملائكة أو جعلهم شُركاء لله أو أعطاهم مِن الخصائص ما لا يليقُ إلا بالله أو نحو ذلك فهذا كله كفر بالملائكة.

والكفر بملائكة الله عز وجل كفر بالله، لأنه لا يَستقيم إيمان العبد بالله إلا إذا آمن بِما أمرهُ الله تبارك وتعالى بالإيمان بِه؛ ولهذا أضاف تبارك وتعالى الإيمان بالملائكة إلى الإيمان

به في آيات، كقوله ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فأضاف الإيمان بملائكته ﷻ إلى الإيمان به، فالإيمان بهم من الإيمان بالله، ومن كفر بالملائكة فهو كافرٌ بالله ﷻ.

والإيمان بالملائكة رُكنٌ من أركان الإيمان وأصلٌ من أصول الدين، كما قال النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور عندما سأل النبي ﷺ عن الإيمان قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1].

وقال الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] فالإيمان بهم أصل من أصول الإيمان، والإيمان بالملائكة: هو الإيمان بأسماء الملائكة، وأعدادهم، ووظائفهم، وأوصافهم الواردة في القرآن والسنة إجمالاً فيما أُجمل وتفصيلاً فيما فُصِّل.

---

(١) رواه مسلم (٨).

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الرابعة بعد المائة: الكُفر بِالرسل**».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**الرابعة بعد المائة: الكفر بالرسل**» أي: رُسل الله عليهم صلوات الله وسلامهُ الذين بَعثهم الله سبحانه وتعالى وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه في إبلاغ دينه وبيان شرعه يتنزل عليهم وحي الله تبارك وتعالى فيبلغونه تامـًا وافيـًا كما أمرهم الله عز وجل بذلك من غير زيادة ولا نُقصان.

فالكفر برسل الله تبارك وتعالى كفرٌ بالله وهو من أعمال أهل الجاهلية، فمن أعمال أهل الجاهلية الكفر بالرسل وعدم الإيمان بهم، والإيمان بالرسل أصل من أصول الإيمان، لا يكون مؤمنـًا بالله عز وجل من لا يؤمن برسل الله عز وجل، والرسل الإيمان بهم: هو إيمانٌ بأنهم بعثوا من الله عز وجل وأن الله هو الذي بعثهم وأرسلهم، والإيمان بأنهم أهل صدقٍ ووفاءٍ، وأنهم بلغوا البلاغ المبين وما تركوا خيراً إلا دلوا أممهم عليه ولا شراً إلا حذّروا مِنه، وأنهم جاهدوا في الله حق جهاده حتى أتاهم اليقين، وأنهم مجتمعون على الدعوة إلى توحيد الله عز وجل وإخلاص الدين له، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ؛ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»(١)

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٣)، و مسلم (٢٣٦٥).

قال الإمام ابن حجر رحمه الله: «والعلات بفتح المهملة الضرائر، وأصله أن من تزوج امرأة ثم تزوج

أي: عقائدنا واحدة، أصولنا واحدة، لكن الشرائع تختلف: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة: ٤٨]، فالكفر بالرسل هذا من أعمال الجاهلية.

* * * * *

أخرى كأنه عل منها، والعلل الشرب بعد الشرب وأولاد العلات الأخوة من الأب وأمهاتهم شتى» «فتح الباري» (٦/ ٤٨٩).

[المتن]

قال المؤلف ﵀:

«**المسألة الخامسة بعد المائة: الكُفر بالكتب**».

[الشرح]

قال: «**الخامسة بعد المائة: الكُفر بالكتب**» أي: كتب الله ﷻ المنزلة على رسله الكِرام، وقد قال الله ﵎: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ﴾[الشورى: ١٥]؛ فهذا من أصول الإيمان أن تؤمن بِكُل كتاب أنزلهُ الله ﵎ على أي رسول، سواء عَلِمتَ اسم هذا الكتاب أو لم تعلمه، أو علمت شيئًا من تفاصيل ذلك الكتاب أو لم تعلم، لابد من الإيمان بِكُلِ كُتب الله ﵎ المنزلة، والإيمان بِأنها حق، وأنها تنزيل الله ﵎، وأنهُ ﷻ هو الذي تكلم بِها، وأن رسلهُ الكِرام بلغوها وافيه بِلا زيادة ولا نُقصان، وأنها مشتملة على الهداية والفلاح، وأن من آمن بها وعمل بها ممن أُنزلت عليهم فقد سَعِدَ في الدُنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بها فقد خسر الخُسران المبين في الدنيا والآخرة.

فالإيمان بالكتب أصلٌ من أصول الإيمان، وأهل الجاهلية يجحدون كتب الله ﷻ، ويجحدون الخير الذي فيها وما اشتملت عليه؛ من الدعوة إلى الهدى والحق والتوحيد والبراءة من الأوثان والأصنام وغير ذلك مما اشتملت عليه كتب الله تعالى.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة السادسة بعد المائة: الإعراض عما جاء عن الله**».

[الشرح]

قال: «**السادسة بعد المائة: الإعراض عمْا جاء عن الله**» وهذا يسميه أهل العلم كفر الإعراض: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣] يعرِض بقلبه وبسمعه، لا يستمع الحق ولا يتدبر بقلبه الحق بل مُعرض عنهُ تماماً، لا يستمع إليه ولا أيضاً يتدبر الحق بقلبه؛ فهو معرض بسمعه لا يعطي كلام الرسل اهتماماً فلا يسمعه ولا يتدبره، فهذا كافرٌ كفر إعراضٍ، معرضٌ عما جاءت بِه الرسل، فإذا نودي ودُعي ليسمع كلام الرسل وما جاءوا به من الحق أعرض وصد؛ فهذا كفرٌ كان عليه أهل الجاهلية، يسميه أهل العلم «كفر الإعراض».

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة السابعة بعد المائة: الكُفر باليوم الآخر**».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**السابعة بعد المائة: الكُفر باليوم الآخر**» أي: يوم القيامة وما فيه من الجزاء والحِساب والجنة والنار والوقوف بين يدي الله تبارك وتعالى ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؛ فكان في الجاهلية من يُنكر اليوم الآخر والبعث والقيام بين يدي الله تبارك وتعالى، قال عز وجل: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْ﴾[التغابن: ٧] فكان فيهم من ينكر البعث والجزاء والحِساب، وكان فيهم من يؤمن بذلك إجمالاً وفيهم من ينكره.

فإنكار البعث أو إنكار شيء من التفاصيل التي تكون يوم القيامة كُل ذلك من أعمال أهل الجاهلية وصنائعهم. والإيمان باليوم الآخر ركن مِن أركان الإيمان وأصل من أصوله العظام.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة الثامنة بعد المائة: التكذيب بِلقاء الله**».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**الثامنة بعد المائة: التكذيب بِلقاء الله**» وهذا مِن الإيمان باليوم الآخر؛ التكذيب بلقاء الله: بمعنى أن العبد سيلقى الله عز وجل يوم القيامة ويقف بين يديه ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؛ فكان في الجاهلية من ينكر لقاء الله تبارك وتعالى.

ومن أنكرَ لقاء الله فسدت أعماله، ومن آمن بلقاء الله تبارك وتعالى فإن هذا الإيمان يدفعه للاستعداد للقاء الله والوقوف بين يدي تبارك وتعالى، ولهذا قال جل وعلا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، ولهذا أيضًا يكثر في الأحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام قوله «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليفعل كذا»؛ لأن الإيمان باليوم الآخر والإيمان بلقاء الله يُحرك الإنسان إلى فعل الصالحات وترك السيئات.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**المسألة التاسعة بعد المائة: التكذيب ببعض ما أخبرت بِهِ الرُسل عن اليوم الآخر كما في قوله:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾ [الكهف: ١٠٥]، **ومنها التكذيب بقوله:** ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، **وقوله:** ﴿لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، **وقوله:** ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**التاسعة بعد المائة: التكذيب ببعض ما أخبرت به الرسل عن اليوم الآخر**»؛ وهنا ينبه المصنف رحمه الله في هذه المسائل أن كفر الجاهلية متفاوت فيما يتعلق بالأمور المغيبة، فمنهم مثلاً من يجحد وجود الملائكة أصلاً، ومنهم من يؤمن بوجود الملائكة وينكر بعضهم أو ينكر بعض أعمالهم وخصائصهم، فيما يتعلق باليوم الآخر، ومنهم من يجحد اليوم الآخر ويكفر بوجود ذلك اليوم وينكر البعث، ومنهم من يؤمن باليوم الآخر لكنه يجحد كثيراً من التفاصيل التي جاءت بها رسل الله عن اليوم الآخر، لأن جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم دعوا أممهم إلى الإيمان باليوم الآخر، وذكروا لهم أيضاً تفاصيل كثيرة تكون في ذلك اليوم؛ فكان كفر الكافرين بذلك اليوم متفاوتاً؛ منهم من جحد ذلك اليوم أصلاً وكفر بذلك اليوم ووجوده، ومنهم من آمن باليوم الآخر وآمن

بالبعث والحساب ولكنه يجحد شيئًا من التفاصيل أو جملة من التفاصيل التي تكون في ذلك اليوم العظيم.

ولهذا قال هنا: «**التكذيب ببعض ما أخبرت به الرسل عن اليوم الآخر**»، وهذا موجود عند بعض أهل الجاهلية يكذِّبون ببعض ما أخبرت به الرسل عن اليوم الآخر، وضرب على ذلك جملة من الأمثلة.

قال رحمه الله: «**كما في قوله**: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾» خص شيئًا من اليوم الآخر بالذكر وأنهم كذبوا به وهو لقاء الله عز وجل وأن الناس في اليوم الآخر يلقون الله جل وعلا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؛ فجحدوا ذلك، مثل ما مر معنا في المسألة السابقة «عدم الإيمان بلقاء الله».

قال رحمه الله: «**ومنها التكذيب بقوله** ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾»، ويوم الدين هو يوم الجزاء والحساب، والله عز وجل هو الدّيان أي: المُجازي المُحاسب، ولهذا يوم القيامة يجمع تبارك وتعالى الأولين على صعيد واحد ويناديهم سبحانه وتعالى بصوت يسمعه من بعُد كما يسمعه من قرُب يقول أنا الملك أنا الدّيان؛ فالدّيان: أي: المُجازي المُحاسب الذي يُجَازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

فمن أهل الجاهلية من أنكر ذلك وأن هناك حساب وجزاء وجنة ونار أنكروا ذلك وجحدوه، وبعضهم جحد ذَلك وجحد جملة من التفاصيل الواردة في ذلك بإسفاف، فمثلا: ذُكر أنه لما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾

فلما سمع أبو جهل بذلك قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزَنة النار تسعة عشر وانتم الدَّهم، أفيعجز كل عشرة منكم

أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحي إلى رسول الله ﷺ أن يأتي أبا جهل، فيأخذ بيده في بطحاء مكة فيقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ فلما فعل ذلك به رسول الله ﷺ قال أبو جهل: والله لا تفعل أنت وربك شيئا، فأخزاه الله يوم بدر[1].

فهذا كله من التهكم والجحد للتفاصيل التي يذكرها النبي ﷺ لما يكون في ذلك اليوم.

وهذه التركة تركة أهل الجاهلية في الجحد لهذه التفاصيل أو الاستخفاف بها موجودة عند الطرقية وأهل الباطل وأهل الضلال؛ فأحد شيوخ الطرقية الضُّلَّال يقول لمريديه: «لا عليكم يوم القيامة أبصق على النار وتصبح حشيشًا أخضرا!» يستخف ويستهين بهذا الأمر، هكذا أيضًا فيما يتعلق بالجنة والنعيم؛ فأهل الضلال وأهل الجاهلية يأخذون هذه الأمور مأخذ الاستخفاف والتهكم والاستهزاء والعياذ بالله.

«**وقوله**: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾» أيضًا هذه الحقائق التي جاء الخبر عنها في القرآن أن يوم القيامة لا بيع فيه ولا خُله ولا شفاعة، فهذا أيضًا مما يجحده أهل الجاهلية ويتهكمون به، ويوم القيامة يوم لا بيعٌ فيه، وقد يأتي الإنسان يوم القيامة مُفلسًا من الحسنات كما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ**

(١) «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨).

صَدَرَ لِلمُؤَلف

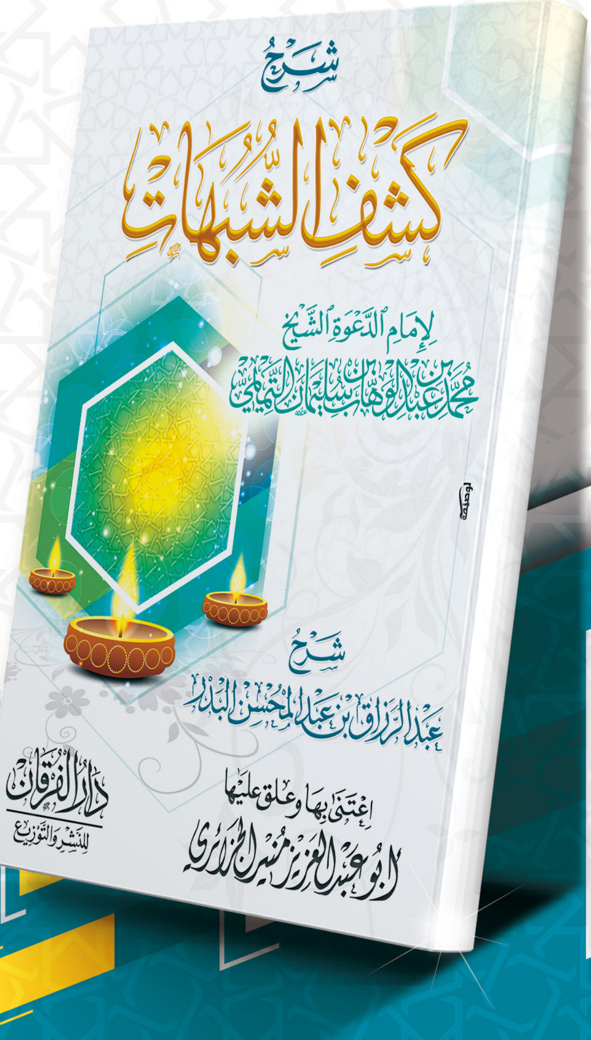

ISBN 978-9931-616-53-5
9789931616535